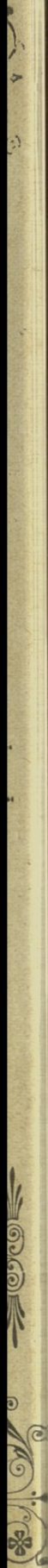


AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458



892.78

Z. 39ax A

c. 1

عروس فرغانة

رواية تاريخية غرامية

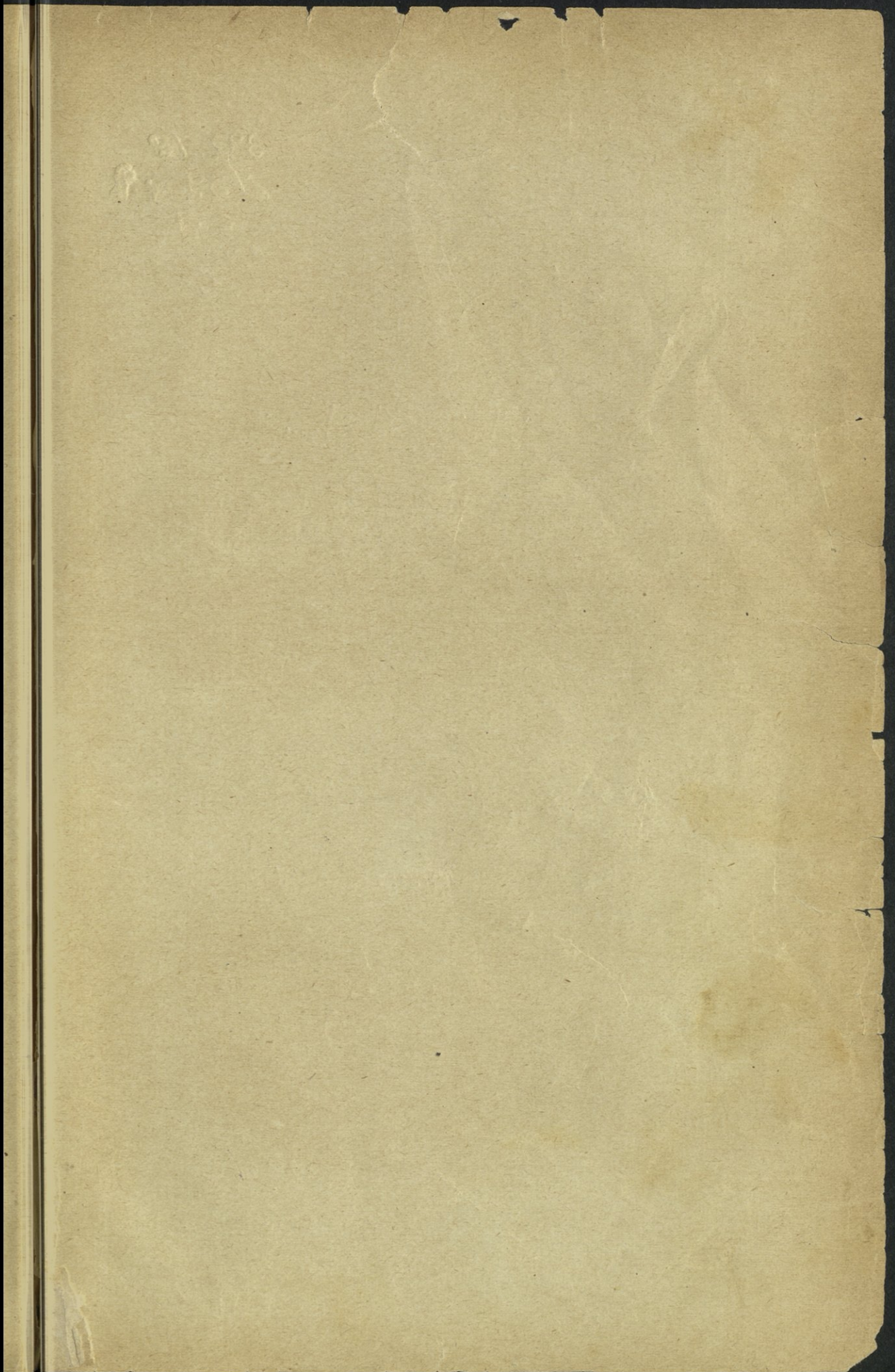
هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الاسلام
تنضمّن وصف الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله (سنة ٢١٨ -
٢٢٧ هـ) وقيام الفرس لارجاع دولتهم بالسيف ونهوض الروم
لاكتساح المملكة الاسلامية وبتخلل ذلك وصف
آداب الاتراك وعاداتهم في أقصى بلادهم ووصف سامرا
عاصمة المعتصم وواقعة البند في حرب بابك وواقعة
عمورية في حرب الروم وغير ذلك

تأليف

جمزجي زيدان

منشور الهلال

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٨



المقدمة

هذه هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي آخر كلامنا في الدولة العباسية في ابان مجدها لانها أخذت من عهد المعتصم وما بعده بالتفرع والتشعب وانتقلت السلطة السياسية الى اماراتها في خراسان وفارس والشام ومصر والمغرب وغيرها وبقيت لها السيادة الدينية فسنشرح من الحلقة الثالثة عشرة في وصف حال اهم تلك الفروع ونبدأ بدولة بني طولون بمصر ان شاء الله

ويزيدنا نشاطاً في هذا العمل ارتياح القراء لمطالعة هذه الروايات مع ما فيها من الفوائد التاريخية الاسلامية وما خوته من آداب المسلمين وعادات الامم التي احتكوا بها في ابان دولتهم حتى طبع اكثرها غير مصرّة . وقد وقع اسلوبها وقعاً حسناً عند الادباء وارباب الاقلام من المسلمين غير العرب في الهند وفارس وتركستان وسائر الشرق الاسلامي فأخذوا في نقلها الى لغاتهم . ومنهم من أخذ في نقل السلسلة كلها بالتتابع من فتاة غسان فما يليها ومنهم من نقل منها روايات متفرقة . فالذين اخذوا في نقل السلسلة كلها هم :

اولاً - سمو البرنس عبدالحسين مرزا نقلها الى الفارسية وزين بعضها بالرسوم

وقد نشرت في طهران وجاءنا أمثلة منها

ثانياً - الشيخ غلام محمد منشيء جريدة وكيل الهندية في امرتسار بالهند أوعز الى المولوي محمد حلیم الانصاري فأخذ في نقلها الى اللغة الهندستانية (الاوردية) وقد ظهر منها عدة حلقات مطبوعة في مطبعة وكيل المشار اليها وعندنا نسخ منها

ثالثاً - السيد محمد كريم قاضي المسلمين في باكستان أخذ في نقلها الى اللغة التركية الاذربيجانية وجاءنا منه ترجمة رواية عذراء قریش وكتاب يقول فيه « كنت عازماً على تأليف تاريخ الاسلام في اللغة التركية الاذربيجانية التي هي لغة ابناء وطني خدمة لهم . فلما اطلعت على رواياتكم الغرامية في تاريخ

الاسلام عزمت على نقلها الى اللغة المذكورة واكتفيت بها عن التأليف المخصوصة
..... فشرعت بعذراء قریش وسأقل بعدها ١٧ رمضان فغادة كربلاء اما
ارمانوسة فهي تحت الترجمة . ولما اطلع على حسن اسلوب الروايات وكثرة فائدتها
رجل القوقاس محيي المعارف والعلوم الحاج زين العابدين ثقي اوف قبل ان يطبع
هذه السلسلة على نفقته . وقد تم طبع عذراء قریش بحمد الله وارسلناها اليكم
ومتى ظهر غيرها ارسلناه في حينه . . . » والطبعة المشار اليها في غاية الاتقان على
ورق صقيل وحرف واضح

اما الذين نقلوا حقاقت متفرقة من هذه السلسلة او غيرها من رواياتنا
فمنهم خايل افندي بيدس بدمشق والمستشرق فلاديمر دانييلوف في موسكو نقلوا
المملوك الشارد الى الروسية نقلين . وفرانس افندي شهاب بمرسين نقل اسير
التمهدي الى الفرنسية . وقسطنطين افندي ثابت في بيروت نقل فتاة غسان
الى الانكليزية ومس هيكس في الناصرة نقلت عذراء قریش الى الانكليزية .
وميرزا جعفر بن علي اكبر في تبريز نقل ابو مسلم الخراساني الى الفارسية غير نقل
البرنس عبد الحسين . واكثر هذه الترجمات تحت الطبع . ومنها ترجمة فتاة
غسان الى لغة هندية لم تقدر على قراءة كلمة منها لانها مكتوبة بالقلم الهندي
الشائع في سيلان وسنقافورة وهو يخالف الاقلام المعروفة عندنا واللغة اسمها
« الاريدية » . وقد بعث الينا نسخة من هذه الترجمة حضرة السيد محمد بن
سالم الكلاي في سنقافورة واخبرنا ان مترجمها هو الشيخ احمد غني مريكر من
سكان ناقور . وكتب الينا السيد جلال الدين من كرابور الهند يستاذن في
ترجمة روايتي الامين والمامون وجهاد المحبين الى اللغة الهندستانية (الاوردية)
هذه هي الترجمات التي بلغنا خبرها ولعل هناك ترجمات لم نعلم بها لان
بعضهم لا يرى استئذان المؤلف لازماً . وفي كل حال فاننا نشكر لحسن ظن
المترجمين والناشرين ونرجو ان نوفق الى اتمام هذه السلسلة وبالله نستعين

الفصل الاول

فرغانة

هي مدينة كبيرة كانت عاصمة كورة فرغانة وكان الفرس يسمونها « اخشيكت » واقعة على ضفاف نهر جيحون على حدود تركستان والعرب يسمونه نهر الشاش والافرنج يسمونه نهر بكسارت والاتراك يسمونه سرداربا . وبيننا وبين فرغانة بعد شاسع مسافته بضعة اشهر فاذا اراد احدنا ان يسافر الى ضفاف جيحون اقضي له ان يسير شرقاً فيقطع الشام فالعراق ففارس فخراسان . ويعبر نهر سيحون ويحترق بخارا وسمرقند واشروسنة فيصل الى ضفاف جيحون او نهر الشاش بعد ان يجتاز الجبال والصحاري والسهول والاوودية ويرى في طريقه بين سيحون وجيحون امماً شتى تختلف لغة وطبيعة وديناً ناهيك بالمفاوز التي يعسر سلوكها لو عورتها وكثرة قطاع الطرق فيها واكثرهم من بدو التركن وهم اهل خشونة وسطو فالعرب لما قاموا للتخ بعد الاسلام فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس في بضع عشرة سنة لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الا في اواخر القرن الاول للهجرة فتحها قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤ هـ^(١) ولم يستعمروها او يقيموا فيها الا بعد ذلك باعوام عديدة . وكانت تابعة لولاية خراسان بتادية الجزية والخراج .

ورغم ما تقدم ذكره من المفاوز والجبال في الطريق الى فرغانة كان المسافر ينتهي بعد تلك الاخطار الى نهر جيحون فيقطعه الى مدينة فرغانة على ضفته اليمنى او الشرقية فيرى فيها الاسواق والابنية والقصور وحولها الاسوار والابواب وخارجها الارباح والبساتين على ضفاف ذلك النهر المبارك في ارض مستوية مساحتها ثلاثة فراسخ . وفي شمالها جبل وعرة على مسافة ميل منها . وفي وسطها قلعة عظيمة يقال لها في اصطلاح الفرس قهندز على عادة ابنية ذلك العصر تعتمد بها حامية المدينة عند الحاجة مبنية بناءً متيناً بالحجارة الضخمة وسائر ابنية المدينة من الطين . حولها سور له اربعة ابواب وحول هذا السور ارباض حولها سور ثان بابواب ويتخلل المدينة والارباح مياه جارئة وحياض كثيرة . وكل باب من ابواب الارباح يفضي الى بساتين ملتفة وانهر جارئة لاتنقطع مقدار فرسخ لاتصالها بالنهر .

(١) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٤

فهي من انزه بلاد تركستان او ما وراء النهر^(١)
 وكان سكان فرغانة عند الفتح الاسلامي اخلاطاً من اهل البلاد الاصيلين الذين
 يسمونهم « طاجية » وجماعات من جالية الهند والصين والترك . والطبقة الراقية فيهم جميعاً
 الفرس وقد كانوا ارقى المشاركة في ذلك العصر فكانت لهم الرئاسة والسياسية والنفوذ
 الادبي والديني لانهم كانوا ينقلون معهم تمدنهم حيثما حلوا ودينهم المحوسية ولغتهم البهلوية
 (الفارسية القديمة) وكانت البهلوية لغة الطبقة الراقية في الشرق الاقصى كما هو شأن اللغة
 الفارسية الحديثة الآن . وكانت لغة أهل فرغانة الاصيلين التركية القديمة المعروفة بالشاغطائية
 وكان على فرغانة عند الفتح امراء او ملوك يعرفون بلقب خاص بهم فيسمى احدهم
 « اخشيد » كما يسمى ملك الحبشة نجاشي وملك الروم قيصر وملك الفرس كسرى . وكان
 الاخشيد كثيرين يتولون اجزاء كورة فرغانة . فلما دخلت في حوزة المسلمين والحقوها بامارة
 خراسان لم تبق حاجة لبقاء ملوكها ولم يعترضهم المسلمون في دينهم او عاداتهم او شيء من
 احوالهم فنزح بعضهم الى قلب المملكة الاسلامية في العراق وتقرّبوا من بلاط الخلفاء
 وخدموهم واعنقوا الاسلام وتولوا الاعمال واشهرهم الاخشيد طغج بن جف صاحب مصر
 وظل آخرون في بلادهم يتمتعون بالسكينة والعيش الهنيء تحت ظل المسلمين

الفصل الثاني

عيد النيروز

أصبح أهل فرغانة في صباح يوم من ايام سنة ٢٢١ للهجرة وهم يتأهبون للاحتفال
 بالنيروز (رأس السنة) وقد أخذوا باقامة معالم الزينة فنصبوا الاعلام الملونة فوق منازلهم
 وعلقوا طاقات الرياحين على ابوابهم . ونقاطروا الى الاسواق يتباعون الالبسة الجديدة
 لاولادهم ويحملون اطباق الحلوى الى اهلهم فيبتاعون من المآكل مقادير تكفي
 لكل ايام العيد وهي ستة . ولو دخلت المنازل لرأيت النساء قد اوقدن النيران لاعداد الاطعمة
 والحلوى واحمين الحمامات للاغتسال ورأيت الجواري يشتغلن بتحميم الاولاد والطبخ وعجن ارغفة
 العيد — وهي ارغفة كان يصنعها الفرس في ذلك اليوم من حنطة السنة الجديدة يحتفلون في

(١) معجم ياقوت ج ١

صباح العيد بافتسامها ويتفائلون باكلها استبشاراً بنحسب تلك السنة وكانوا يتعاملون في ذلك اليوم بالنقود الجديدة ويتهادون الحبوب الجديدة على اطباق من الفضة ونحوها ويترامون بالبيض او الاثمار. وكانت الاسواق في ذلك الصباح غاصة بالمارة من الرجال والاولاد هذا يحمل قفة وذلك بنقل سلة وذلك يسوق حماراً او فرساً يتسابقون الى المنازل او الى بيت النار يحملون الهدايا لاولادهم او للموبدان كهان الجوس وقد نصاكت مناكبههم ونصاكت اقدمهم ولو سعدت الى القلعة الكبرى (القهندز) القائمة في وسط المدينة واشرفت من سطحها على اطراف فرغانة لرأيتها اشبه بخارطة مرسومة على ورق او صورة ملونة — يحدق بالقلعة بيوت الناس المبنية بالطين اكثرها طبقة واحدة الا ثلاثة ابنية: اولها القلعة في وسط المدينة والثاني بيت النار وهو الهيكل الذي يتعبد فيه الجوس وكانت الجوسية لا تزال متعلبة هناك . وفي فرغانة بيت للنار اسمه « كارشان شاه »^(١) رفيع العماد يناطح السحاب يظهر بارزاً بين ابنية المدينة كالنخلة بين الرياحين وقد نصبوا حول سطحه رايات من الديباج طول الواحدة منها عشرات من الاذرع مرسلّة في الفضاء يلاعها الهواء اكثرها خضراء اللون . والثالث بيت لمرزبان سيأتي ذكره (المرازبة حكاه المقاطعات على ايام الاكسرة) تكتنفه حديقة فيها من كل فاكهة زوجان . ولو اطلقت بصرك الى ما وراء سور المدينة على الارباح وما وراءها رايت الاغراس والاعناب والرياحين تتخللها مجاري الماء وتغنى على افنانها الاطياف

واهل المدينة في ذلك الاحتفال واذا بموكب جليل زاحمهم في الاسواق حتى شغلهم عما هم فيه لفخامته وغرابته . وهو عبارة عن مركبة كبيرة اشبه بالغرفة منها بالعربة فوقها قبة من الفضة الموهبة بالذهب قائمة على اعمدة من الخشب الملون بينها ستائر من الديباج الازرق يجرها فرسان مجللان باثواب الحرير المزركش وسائق العربة راكب على احد الفرسين وفي يده سوط يسوقها به وعود كبير يصوبها به اذا عاجا عن القصد . ويكتنف المركبة بضعة من الخصيان يركضون الى جانبيها وقد ارخيت الستائر على الراكبين فلا يراهم احد . لكن ليس في فرغانة رجل او امرأة لا يعرف صاحب هذه المركبة اذ ليس هناك مركبة سواها . فهم يعلمون انها مركبة المرزبان جاءته هدية من بعض اهل امراته في بلاد القوقاس . لان الرجل فارسي الاصل وامراته جركسية من بلاد القوقاس واهل تلك البلاد يستخدمون هذه المركبات لحمل الخواتين في خروجهن او اسفارهن^(٢)

(١) المسعودي ١٦١ ج ١ (٢) ابن بطوطة

والمركبة عبارة عن غرفة كبيرة فيها كل ما تحتاج اليه الخاتون من الادوات حتى الطعام والشراب . فكان اهل فرغانة لا تمرُّ بهم هذه المركبة الا تشوفوا لرؤية من فيها العلمهم انها نقل فتاة هي بنت المرزبان كلهم يحبونها ويجلون قدرها ويعجبون بجمالها وتعقلها . وكثيراً ما رأوها تمرُّ بهم في مركبتها وقد ازاحت ستائرهما فلا تمنجب عن احد . واذا وقع بصرها على احدهم ابتسمت له ابتساماً يزيدته تهنئاً منها

اما في ذلك اليوم فكانت قد ارخت ستائر المركبة واركض السائق الفرسين وظهر من تعجله انه يطلب الخروج من المدينة . وراوا وراء المركبة جوادين مسرجين لا يقودهما سائق ولا يركبهما راكب احدهما ادهم على سرجه جعبة مملوءة بالنبال فلم يخف على العارفين ان الجواد لصاحبة المركبة وقد تعودوا ان يروها خارجة عليه بالبسة الرجال للصيد او السباق . ووراء الجوادين خدمة الصيد وفيهم اصحاب الكلاب والفهود . ولم يعجب اهل فرغانة لمعدات الصيد لانهم يعلمون مهارة بنت المرزبان به ولكنهم عجبوا لخروجها في ذلك اليوم

وكان بين المارة رجلان احدهما تاجر من اهل فرغانة والآخر قريب له من اهل خوفند اتى لقضاء ايام النيروز عنده ولم يكن راى شيئاً من ذلك قبلاً فسأل رفيقه عن صاحب هذا الموك فقال « هو موكب الخاتون جهان بنت المرزبان طهماز الا تعرفها »

قال « سمعت المرة الماضية عن مرزبان يقيم في هذه المدينة معتزلاً عن العمل وانه ذو ثروة طائلة واپس له الا ابنة سمعت الناس يتحدثون بجمالها فهل هي وحيدة له ؟ » قال « لها اخ اجرد قبيح الخلق والخلق كأنه ليس اخاها »

قال « العل المرزبان من اهل هذه المدينة »

قال « كلاً انه غريب ولكنه جاءها وهو شاب منذ ثلاثين او اربعين سنة واتخذها وطناً له فراراً من المسلمين العرب وتعصبهم على المجوس . وكان حاكماً في بعض مقاطعات فارس فقاسى اضطهاداً ولم يشأ ان يبدل دينه بذلك الدين الجديد فاتى بامواله واقام هنا . » فقطع كلامه قائلاً « وهل هو غني يا صاحبي ؟ »

قال « له ثروة طائلة واكثر المغارس خارج فرغانة على ضفة نهر الشاش ملكه فضلاً المنازل والنقود والجواهر - ولكن مالنا وله دعنا من ذلك وامض بنا الى سوق اللحم نبتاع خروفاً نذبحه لاولادنا يعيدون به »

وكان رفيقه من محبي الاطلاع على اخبار الناس والاعتراض على اعمالهم فلم يصغر لرأي صاحبه بل قال « قل لي كيف تخرج هذه الخاتون من البيت في مثل هذا اليوم ؟ »

فضحك رفيقه وقال « كانك تريدها ان تبقى في البيت لتعجن العجين وتخبزه او لتطبخ
الطبخ كما تفعل نساؤنا . . . انها يا صاحبي سيده بيت ابوها لان والدتها توفيت منذ اعوام
ولم يتزوج المرزبان بعدها اكراماً لجهان هذه فانه يحبها الى درجة العشق ويعاملها معاملة
العاشق لمعشوقته وليس الوالد لولده . . . »

قال « لست اعني ان نقيم في البيت للعجن او للطبخ بل تبقى فيه لاستقبال الزائرين
الذين يتوافدون على بيت ابوها بالهدايا والتحف في يوم العيد »
فقطع الاخر كلامه قائلاً « دعنا من ذلك يا صديقي وسر بنا الى السوق نفتش لنا
عن خروف نشتره »

الفصل الثالث

عروس فرغانة

وكان الموكب قد تجاوزها حتى خرج من المدينة الى الارباض ومنها الى البساتين فوقف
عند مضرب لبعض اتباع المرزبان تعودوا استقبال هذا الموكب فحنوا المرافقه فلما
وقفت المركبة ترجل السائق ووقف بجانب الفرسين ليمنعهما من جر العربة في اثناء نزول
الخاتون . وتقدم احد الخصيان لمساعدتها بالنزول وكانت قد قرّبت له لطفه وخفة حركته واسمه
مرجان فوقف بجانب المركبة ينتظر الامر ولم يتجرأ على ازاحة الستارة . فطال وقوفه ولم تفتح
ولا اطلت الخاتون ولكنه كان يسمع حديثاً جارياً فقال يجب الاستطلاع الى معرفته وردّه
التهيب عن الاصغاء لسماعه . وكان سائر رجال الموكب والاكرة في تلك المزرعة وقوفاً
ينتظرون ترجل جهان فلما ابطأت اشتغلت خواطرم . وكان اكثرهم قلقاً جوادها الادم
فانه كان واقفاً وهو يخصص الارض بقوائمه وسائسه لا يقوى على زجره . ثم صهل كانه
ينادي صاحبه او يسئعجلها فاذا بستارة المركبة قد ازيحت ونزلت منها امرأة كهلة في الخمسين
من عمرها عليها سمات التعقل وقد زادها الانقباض رزانه . عليها ثوب واسع يغطي كل
جسمها وقد تحمرت بخمار احمر يشمل راسها وعنقها فلا يظهر غير وجهها فعرف الواقفون انها
القهرمانه خيزران مربية جهان ورفيقتها ومستودع اسرارها
ولما صارت القهرمانه في الخارج مدت يدها لاستقبال سيدتها فترجلت جهان وهي

لا تستعين باحد حتى وقفت بجانب المركبة والابصار شاخصة اليها للتمتع بذلك الجمال الجاذب الذي لم يسمع بمثله . وكانت قد لبست في ذلك اليوم ثوب الركوب للصيد وهو عبارة عن السر اويل والقباء او الدراعة وتزملت بشبه العباءة من الحرير المزركش ولفت رأسها بعمامة اشبه بالمصاوبة تغطي الحيين الى الحاجبين وارسلت منها ذؤابتين على قفا العنق تقيها حر الشمس . وادارت العباءة حول العنق حتى لا يبدو منها غير بعض وجوها



جهان - عروس فرغانة بثياب المنزل

وكانت طويلة القامة جميلة الطلعة في وجهها هيبية وصحة وجمال عيناها كبيرتان وفيهما نور وذكاء وجاذبية لا يعبر عنها بغير السحر يشعر من يبادلها النظر او الحديث بساطة لها على قلبه وعقله فلا يقوى على محادثتها في موضوع ولا تناوعه نفسه على مدافعتها في أمر كانها ملكة ارادته بالتويم المغنطيسي فيصبح آلة بيدها . فكان الاس ينتظرون خروجها من منزلها للصيد او الزهرة فيقفون في الطرق ليشاهدوا حياها ولم تكن تحتجب ترفماً عن الحين او الذل بل كانت تبسم للناظرين فيزدادون تعلقاً بها

اما في ذلك اليوم فخاب انتظارهم لانهم رأوا في وجهها قلقاً وفي عينيها دمعان تحاول
اخفاءهما بالابتسام والتلطف

ولو نظرت الى جهان عروس هذه الرواية في بيتها وقد ازاحت اللثام حتى ظهر عنقها
وارخت شعرها كما تراها في هذا الرسم لرأيت قوة الجنان ورباطة الجأش ظاهرين
حول فمها وفي ذقنها • وتجلت لك القوة في شكل عنقها المنديج • وقد تعجب لاول وهالة
من اختلاف ملاحظها عن ملاحظ الفارسيين ووالدها منهم فاذا علمت ان والدتها جركسية
زال تعجبك وعلمت انها ورثت تلك الملامح من والدتها وورثت معها كثيراً من سجايا
الجراكسة كالقوة والشجاعة والافنة وتموت ركوب الخيل والنزول في حلبة السباق
والخروج للصيد • واخذت من ابها ذكاء الفرس وتعقلهم ودقة احساسهم فانت آية
من آيات ازمان وشغف بها اهل فرغانة وسموها عروسهم فكان يقال لها عروس
فرغانة وان كان اسمها جهان بنت المرزبان

فلما نزلت من المركبة ورأت الناس وقوفاً لا تنظرونها وهم شاخصون بابصارهم نحوها
حيثهم على عجل خوفاً من ظهور اضطرابها وهي حريصة على كتمان ما بها فالتفتت الى
القهرمانة وقالت بصوت يقع في الأذن وقوع النغم المطرب « اين الجواد يا امه » وكانت
تناديه بالاموتة تلعظاً وتحيياً لانها ربتها من صغرها وكانت ضئيلة بها شفقة عليها • وكانت
جهان تستودعها اسرارها وتكشف لها عن مكنونات قلبها • ولم تبط في الخروج من
المركبة الا لاستغاثها بمجادتها في شأن يهملها

فاشارت القهرمانة الى السائس فاتي بالجواد وهو يختل في مشيته تهاً حتى كاد يرقص
فلما دنا من جهان نظرت اليه وابتسمت ثم حكمت جبينه باناملها وكان عليها بقعة بيضاء
من شعره تمثل اسداً رابضاً ولذلك سمته « شير » وهو الاسد بالفارسية • ولما احس
الجواد باناملها استأنس واخذ يضرب الارض بيمينه والناس وقوف فالتفتت القهرمانة اليهم
وقالت « ان مولاتنا ذاهبة للصيد فامكثوا مع المركبة هنا لاعداد الطعام واما يتبعنا
منكم رجلان يحسنان الركض حتى اذا وقع لنا صيد أتيا به » ونادت « فيروز »
فتقدم السائس بالجواد الادهم فوثبت جهان اليه باسرع من البرق ثم قدم الفرس الآخر
للقهرمانة خيزران واعانها على الركوب فركبت وشارت الى السائس ان يتقهقر ويمشي مع
الرجلين الآخرين • وكان احدهما مرجان وساق جوادها بجانب جواد سيدتها وسارنا
متزاملتين وقد تكبت جهان القوس وكانت جعبة النبال معلقة بالقربوس والتمست عرض

البر والفرسان يمشيان زميلاً والارض سهلة واكثرها مزدوع ويتراءى لهما عن بعد جبل
كثير الشعب

تعودت جهان الذهب في الشعاب والاوذية مع الفهادين واصحاب الكلاب لا صطباد
الغزلان او حمر الوحش او الوعول . واما يومئذ فلم تصطحب احداً من اولئك لرغبتها
في الانفراد وانما اتخذت الصيد حيلة للخروج

فلما امعننا في الخلاء التفتت القهرمانة الى جهان لفتة حنو وانعطاف وقالت
« والآن ياسيدي الا تكشفين لي عن سبب انقباضك وانت تعلمين اني مستودع اسرارك
واسرار والدتك من قبلك ؟ »

فتهدت جهان وقالت « دعيني ياماه من هذا الحديث وانما جئت لاورح النفس
بالصيد »

فضحكت القهرمانة وقالت « وهل تريد ان اصدق انا ايضاً انك خرجت للصيد
وانا اخترعت هذه الحيلة للخروج معاً أم تحسبين سرّك خافياً عني يا ولدي ؟ »

فارادت مغالطتها فظهرت عدم المبالاة وقالت « اتستغربين انقباضي وانت ترين
والدي مريضاً بالقرس منذ اعوام وقد سمعت طبيبه يقول ماتلمينه من ضعف الامل
بالشفاء . ولا يخفى عليك ان المرزبان اذ أصيب بسوء اصبحت منقطعة اذ لا اهل لي هنا
ولا اعرف اهل والدي في بلاد فارس ولا اهل والدتي في بلاد القوقاس ولا ادري مع
ذلك كيف . . . » وغصت بريقها

قالت القهرمانة « ان مرض سيدي المرزبان يا جهان لم يحدث بفتة وقد كنت تخافين
علي حياته من قبل ولم يبد عليك مثل هذا الانقباض . . . وانما سبب الانقباض سرّ انت
شديدة الحرص على كتمانك ولكنني اعرفه . . . »

الفصل الرابع

ضرغام

فالتفتت اليها جهان لفتة الاستغراب وتفرست في عينها ووجهها كأنها تقرأ ضميرها
وكانت جهان شديدة الافتداع على ذلك فتأثرت القهرمانة من نظرها وبما بتلا في عينها
من الماء وهي تغالب عواطفها وقالت « نعم ان سرّك غير خاف علي وان كنت تحاولين

اخفاءه ليس لضعف ثقتك بي ولكن حياءً مني . وارى هذا الحياء يبدو على وجهك الآن
لجرد الإشارة الى الموضوع . . . »

وكانت جهان لما سمعت تعريض القهرمانه صعد الدم الى وجنتيها فتوردتا واشرق وجهها
وأبرفت عينها بريقاً ينم عما يجيش في قلبها من لواعج الحب — واعتراف العينين حجة وإذا
انكر صاحبها وبالغ في التنصل فهو كاذب وهما صادقتان . اذا قالت العين قولاً وقال
اللسان آخر فالصادق هي لا هو وخصوصاً من يكون مثل عروس روايتنا من حيث دقة
الاحساس وقوة العاطفة . فقد كانت كبيرة القلب وكبيرة العقل معاً لكن الضعف
النسائي غلب عليها في تلك اللحظة فاطرقت فابتدرتها خبزران قائلة « لا تعجبي يا سيدتي
لاطلاعي على ذلك السر وليس انا وحدي المطلعة عليه فانه متداول بين اهل القصر
لا يجمله احد غير والدك . ولولا تهيب اهل القصر منه لابلغوه اليه ولكنهم لا يستطيعون
تبليغه ذلك الا على يدي وانا لم افعل »

فبغتت جهان وقالت وهي لتشاغل باصلاح شعر جوادها عند قاعدة عنقه « واخي
سامان ؟ هل هو عالم بهذا السر ؟ »

فابتسمت ابتسامة تشف عن تألمها من ذكر ذلك الاسم وقالت « سامان ؟ ان
سامان لا تخفي عليه خافية يا سيدتي وقد قلت لك مراراً . . . »

فاحست جهان انها تريد الطعن باخلاص اخيها فأبت نفسها سماع الطعن فيه
فقطعت كلامها قائلة « اني اتوسم في اخي سامان شيئاً لا يرتاح اليه قلبي لا ادري ما هو
ولكنني لا اسمع الطعن عليه وهو اخي الوحيد كما تعلمين وارى منه انعطافاً نحوي وان كنت
اشعر من خلال ذلك بشيء لا يعجبني . . . ولا يعجبني منه اشتغاله بالاسرار حتى يجنيل لي
انه جبهة خفايا وغوامض . . . يغيب عن البيت يوماً فتبحث عنه في فرغانة بحثاً دقيقاً فلا تنقف
على خبره ثم ياتي ونساله عن سبب غيابه فلا يجيب او يجيب جواباً مبهماً . واخبرنا بعضهم انه
كثير الخلوة بالموبند كاهن كارشان شاه بيت النار في هذه المدينة ولا يخفي عليك حال هذا
الكاهن من الدهاء والحيلة . . . »

فقال خبزران « اظن هذا الموبند متحدًا مع طائفة الخرمية الجمعية السرية التي
يرأسها اليوم ويقود رجالها بابك الخرمي صاحب الصول والطول الذي اصبح خليفة المسلمين
يخافه ولا يبعد ان يكون اخوك سامان عضواً من اعضاء هذه الجمعية ولا باس من
ذلك لان غرض الخرمية اعادة السلطة للفرس ومحاربة المسلمين »

قالت « لا انكر ما في اخي سامان من اماكن الضعف ولكنه اخي . . ما لنا وله
الآن »

فاطرت القهرمانه وهي تستغرب حسن ظن الفتاة باخيها رغم ما يظهر من فيبح
اعماله وما تعتقده هي من سوء قصده ولكنها عرضت عن ذكره ورجعت الى الموضوع
فقالت « والآن ألا تبوحين لي او تأذنين بان ابوح انا لك »

فاعظمت جهان ان يغلب عليها الصعف النسائي الى هذا الحد بين يدي قهرمانتها
او مريبتها فتحركت فيها الانفة وقالت « لا تستضعفيني يا اماء وربما توهمت في غير الواقع
فاذكري لي سبب انقباضي ان كنت تعلمين »

فقالت « ان موضوعه « ضرغام » هل اصبحت المرمي ؟ »

فلما سمعت ذلك الاسم خفق قلبها وكان الدم قد تحول عن وجنتيها فعاد اليها وابرت
عينها فابتدرتها خيزران قائلة « لا سبيل الى الانكار يا حبيبتي وعيناك تشهدان على صحة
قولي انك تحبين ضرغام . . »

فلبثت جهان تنظر الى ما يبدو من استخسانها ذلك الحب او استهجانها فقالت القهرمانه
« ان ضرغاماً شاب جميل وشجاع باسل »

فقالت جهان « لم تقولي رايبك فيه »

قالت « قلت لك انه شجاع وجميل لا مثيل له في فرغانة ولا غيرها من بلاد الهياطلة
ولا بلاد فارس »

فقالت « فهمت انه شجاع وجميل ثم ماذا . . ؟ »

فهمت خيزران ان تصرح بفكرها فتهيبت وخافت على جهان فاطرت وسكتت فقالت
لها جهان بصوت هاديء وجاش رابط « قولي يا ماما بصراحة ولا تخافي من شيء »

فقالت « ليس في العالم احسن من ضرغام لولا نسبه . . . اذ ليس في فرغانة من يعرف
اصله او نسبه حتى هو فانه لا يعرف من هو ابوه »

فتجلدت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح وضع القوس على كتفيها « وماذا يقول
الناس عنه ؟ »

قالت « لا يقولون شيئاً عن شخصه فانه مثال الشجاعة وكرم الخلق فضلاً عن جماله
وعلو همته وكبر نفسه لكنهم يتحدثون بغموض نسبه . . . انا اعرف والدته منذ جاءت
الى فرغانة وهي في ابان شبابه تحمل طفلها ضرغاماً وكانت جميلة الطلعة . ومع فقرها

وعوزها خطبها غير واحد من اهل فرغانة فابت ان تزوج رغبة في تربية ابنها لانها كانت شديدة العناية به . وسمع سيدي المرزبان بحبرها فاستقدمها اليه وسالها عن حديثها فتكتمت في بادىء الرأي ثم قالت انها احدث طفلة من حضن والدتها من بادية الترك وريت في منزل بعض النخاسين بالعراق حتى انتهت الى رجل من اهل تلك البلاد فاعتمها وتزوجها ثم توفي قبل ان تضع حملها فلما وضعته احببت الانقطاع الى تربيته . فلم يصدق سيدي المرزبان قولها واحب ان يجربها فعرض عليها ان يزوجها ببعض رجاله فابت واعذرت فازداد شكاً في حديثها فانزلها بجانب قصره وامر لها بما تحتاج اليه من لوازم الحياة وكانت تحسن الخياطة وتشتغل في جملة خدم القصر حتى اصيبت بالرمد وكف بصرها فكفت عن العمل وظلت في بيت ابيك كما تعلمين . وماشبَّ ضرغام تعلم ركوب الخيل والرمي بالنشاب وظهرت فيه سجايا نبيلة فجعله مولاي المرزبان في جملة اعوانه وكان يحبه ويحل مناقبه حتى بعث الخليفة المعتصم الى هذه البلاد لتجنيد الرجال من الاترك والفرانجة والاشروسنية منذ بضعة اعوام فتطوع ضرغام في خدمته وكنت قد لحظت ما بينكما من الحب المتبادل الذي تحاولين الآن اخفائه . ولكنني عجبت لذهابه وغيابه كأنه راي نفسه اقصر باعاً من ان ينالك للتباعد بينكما في المقام والنسب «

وكانت القهرمانة تنكلم وجهان مصغية تسمع كلامها بشوق ولهفة حتى اذا بلغت الى هنا اجابتها قائلة « انه تطوع في جند المعتصم لعله ان الرجال تظهر مواهبهم في مثل هذا التجنيد . وكان قد تغلب عليه الوهم الذي اراه متغلباً عليك فزعم انه لا يستحقني وانا اراه يفضاني بدرجات كثيرة . لان الانسان لا يقدر بمزارعه ومنازله وثيابه وانما يقدر بمواهبه ومناقبه . وانت تقولين والناس كلهم يقولون انه فريد بهذه المناقب . ومن جملة مناقبه الشريفة ايضاً انه راي نفسه احط من ان ينالني فتطوع في الجندية عند المسلمين في بغداد التماساً للعلو بجدو لئلا يقال اني افضل في شيء ولا ريب عندي انه سيبلغ ارقى مراتب الجند لاننا نسمع باناس من رقيق هذه البلاد ابتاعهم الخليفة بالمال ورباهم وجندهم فنبغ بعضهم الى مراتب القواد فكيف بضرغام كما تعرفينه واعرفه ؟ . . . » وكانت تقول ذلك ويكاد لسانها يتلعثم خلفان قابها وثورة عواطفها

فرات القهرمانة تصريحها واسلوب كلامها بدلان على تعلقها بضرغام وهي تعرف ثباتها في رايها فلم تستطع معارضتها رأساً لكنها قالت « لاشك عندي ان ضرغاما سينال رتبة عليا في جند المعتصم ولكن عروس فرغانة طبقة اخرى من البشر . . . ان جهان يا سيدي

ارقي من ان ينالها القواد فان الملوك يخطبون رضاها . . . « قالت ذلك وفي صوتها نغمة تدل على انها تعني ما نقول حقيقة وليس على سبيل الاطراء او المجاملة . ولكيلا تترك لجهان وقتاً للتفكير والجواب اظهرت انها تعبت من الركوب والتفتت الى ما حولها فوجدت انها على مقربة من تل يشرف على اودية كانت تأتيتها جهان للصيد فقالت « الا ترين ان نترجل للاستراحة هنا قليلاً ثم نعود الى الركوب اذا شئت لاني لا اصبر صبرك على هذه المشقة » فاجابت جهان بهز راسها . وترجلتا فاسرع السائس الى الفرسين وتناولهما واقترش لبادتيهما على صخرة منبسطة فوق التل فعدتا عليها واشتغل هو بعلف الفرسين . و اشارت جهان الى الخادمين ان يتوغلا في تلك الاودية يستطلعان حال الصيد هناك ويرجعوا اليها

الفصل الخامس

الكتاب

فلما خلنا كانت القهرمانه قد ملكت روعها فقالت « كيف رأيت قولي يا سيدتي ؟ »
 قالت « لا استغرب اطراءك اياي واعجابك بي فاني بمنزلة ابنتك والوالدة ترى ابنتها لا مثيل لها حتى تظن الملوك يقنثلون عليها . . . »
 فقالت « اني لم اقل ما قلته من قبيل الاطراء او المبالغة بل انا واثقة بما اقول . . .
 انا على يقين ان اعظم ملوك الفرس يطلب رضاك ويتمنى الحصول عليك . . . »
 فهزت جهان كنفها هزاً الانكار والاستبعاد وقالت « ملوك الفرس ؟ وهل للفرس ملوك اليوم » فاستبشرت القهرمانه بقرب اقناعها بعلو مرتبتها لانها على ثقة مما نقوله فقالت « لا تهزي كنفك يا سيدتي . . ان للفرس ملوكاً عظاماً لا يلبثون ان يعيدوا سلطار الاكسرة . الا تعرفين مازيار صاحب طبرستان . . الا تعرفين بابك الخرمي صاحب اردبيل ؟ ان كل واحد من هذين ملك عظيم تخضع له الالوف من الابطال ولكنه يتمنى الحصول على عروس فرغانة . . . »
 فاظهرت جهان الاستخفاف وقالت وهي تنظر الى فرسها الادهم سارحاً يرعى العشب « دعينا من الملوك . . لا ارب لنا في غير خزرغام . وما لنا وبابك وما زيار واين نحن من اردبيل وطبرستان ؟ »

قالت « اذا كنت لا تصدقيني اسالي اخاك سامان عن بابك الخرمي »
قالت وقد انتبهت لنفسها « اظنني سمعته بذكر هذا الاسم بالاطراء ولكنني لا اثق
باقواله كلها كما تعلمين ولا هممني هذا الامر لان ضرغاماً ليس مثله احد على قلبي ولا رغبة لي
في الملوك ولا الامراء »

فقالت « اذا كنت تستبعدين تلك البلاد فهذا الافشين صاحب مملكة اشروسنة
على مقربة منا وهو الآن قائد جند المسلمين كافة في بغداد وعماً قليل يأتي لزيارة ابيك
لان سيدي كتب اليه منذ اشهر اذا جاء في عيد النيروز الى اشروسنة ان يزوره في
فرغانة . . . »

وكانت جهان تظهر قلة المبالاة كما رأيت فلما سمعت اسم الافشين اجفلت وتغير وجهها
وانقبضت نفسها وصدت خيرزان عن الكلام بكفها كأنها تقول « كفي لا تذكري هذا
الاسم . . . »

فأرادت ان تستأنف الحديث فصاحت جهان « دعيني من ذكر هذا الرجل اني لا
احتمل سماع اسمه . . . وهو هو سبب انقباض نفسي الذي زعمت انك عرفتة . فان نفسي
انقبضت منذ سمعت بقرب قدومه الى فرغانة وانه سيقضي بعض عيد النيروز عندنا ولو
استطعت ان اقضي هذا العيد بعيدة عن البيت لفعلت »

فاستغربت كرها للافشين وقالت « وهل اساءك الافشين في شيء ؟ »
قالت « كلاً لم يسؤني بشيء ولا كلني كلمة ولكنني لا ازال منذ كنت اراه في قصرنا
يأتي لزيارة والدي ونفسي تعافه وتكره النظر اليه . . . ولا اذكر ان شعوري خانني في
حكمه على الناس . . . »

فقالت القهرمانه « يا للعجب ألا تعلمين ان الافشين رئيس ضرغام وان غاية ما يباغ
اليه ضرغام من الرقي في جند المسلمين ان يصير قائداً من قواد الافشين وتحت رايته »
فقالت « بترفع وهدوء وكلاً يا اماء انه ليس تحت رايته بل هو رئيس حرس الخليفة »
قالت وقد ظهر الاستعراب في محياها « وهل انتِ على يقين من ذلك ؟ »

فنظرت اليها وقالت وهي تبسم « اني على يقين اصح من يقينك برغبة الملوك
في طلبي » ومدت يدها الى جيبتها وهي تقول « وقد جاءني كتابه منذ بضعة اشهر يخبرني
بنلك وينبئني بقرب قدومه الى فرغانة ولكنه الى الآن لم يأت » واستخرجت
المكتاب ودفعته اليها لتقرأه وهو مكتوب بالبهلوية وهذا مناده :

« من ضرغام في سامراً الى حبيبة قلبه جهان في فرغانة
 « ياسيديتي • ولا ازال ادعوك سيدتي لانك سيدة العالمين وانت أيضاً حبيبتني لانك
 ملكتي قلبي وكل جوارحي • تركت فرغانة منذ بضع سنوات ولم اكتب اليك حتى الآن
 لاني لم اكن اهلاً لمخاطبتك وكيف تجاسر ضرغام الفقير اليتيم ان يخاطب جهان بنت
 المرزبان صاحبة السيادة المملوكة للاموال والرقاب • وقد وعدتكم يوم الوداع ان ابذل
 جهدي في طلب العلي فاذا بلغت درجة تقربني من مقامك اتيت اليك والتست رضاك
 والا فاني اموت في سبيل طلبك • وقد انتظمت في الجندية وخضت المعامع باسمك
 واستقبلت النبال بصدري وانت فيه فوقاني من الأذى • وقضى الله ان ابقى حياً لعل لي
 مارباً بجهان • ارتقيت في مراتب الجند حتى صرت رئيس الحرس في قصر الخليفة فبادرت
 الى تبشيرك وكأنتك تسأليني عن عاقبة ذلك الترقى • فاذا لم يكن هذا الارتقاء لاكتسب
 به رضاك فلا مارب لي به لاني لا أرى للحياة قيمة ان لم تكن لك ومعك • وقد أخذت
 اسعى في الشخوص الى فرغانة لاقبل يدي سيدي المرزبان واحظى بمشاهدة حبيبتني جهان
 ولو لا بعض المشاكل التي تخاف عواقبها على الخلافة لجئت اليك منذ أشهر على اني ظفرت
 بطريقة تساعدني على الشخوص • وذلك ان امير المؤمنين بنى مدينة سامراً بالقرب من
 بغداد كما تعلمين ليجعلها مدينته الخاصة ويقوم فيها جنده الاتراك الذين جندهم وانا
 واحد منهم • واراد ان ينتصر بهم على الاحزاب المختلفة التي نشأت في المملكة الاسلامية
 من الفرس وغيرهم ولكنه خاف على هؤلاء الجنود اذا احتلطوا بسكان المدن المجاورة
 ان تذهب شدتهم ونخوتهم فارتأى ان يزوجهم بجوارح تركيات يستجلبهن من وراء النهر^(١)
 وعين انساناً يرسل بهم الى ما وراء فرغانة يتعاون الجوارح والأماء ويعودون بهن • وقد
 شكوت اليه رغبتني في زيارة وطني ورتبا كان لي نفع اذا صحبت ذلك الوفد فوعدني بذلك
 فعسى ان آتيك قريباً • وقد عهدت بكتباتي هذا الى رجل من خاصتي ارجو ان يوفق
 الى ايصاله • • والدي المسكين تهديك السلام »

فلما فرغت القهرمانه من تلاوة الكتاب همت بجهان وضممتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول
 بورك فيك وفيه انه اهل لك • صدقت ان الرجل باعماله لا بماله واذا كان قد اصبح
 رئيس الحرس بجده وبسالته فكيف بعد اعوام والدولة الاسلامية لا تزال حر وبها قائمة

ومثل ضرغام لا يعدم وسيلة للارتقاء»
فسرّت جهان لموافقة القهرمانة على ما في خاطرها لكنها ما لبثت ان عادت الى هواجسها
وقالت « ان هذا الكتاب جاء في منذ عدة اشهر ولم يات ضرغام ولا عرفت شيئاً عنه »
قالت « لا تجزعي انه آتٍ . ولكن . . » واطرقت كأنها تفكر في أمر طراً عليها
فقلت « ولكن ماذا . . قولي يا امه »
قالت « ولكن والدك . . هل خاطبته بشأن هذا الامر وهل تحسبينه برضى بضرغام »
قالت « لم افاتحه بشأنه بعد ولكنني اعلم انه يجبه ويحل خصاله ولم يمغني امراً اردته
ومتى جاء ضرغام خاطب والدي بهذا الشأن »
قالت « اعلم ان سيدي المرزبان يجب ضرغاماً ويجهل . . . ولكن هناك امراً آخر
هل فكرت به ؟ » قالت « ما هو ؟ »
قالت « ان ضرغاماً مسلمٌ على ما اعلم فكيف يصح زواجه بك الا اذا اعتنقت الاسلام »
فقلت « وما الذي يمنغني من ذلك ؟ ان الاسلام ديانة الدولة »
فقلت « وتتركين ديانة ابيك وعشيرتك ؟ »
قالت « اذا كانت هذه الديانة تحول بيني وبين ضرغام اتركها لاني احب ان اكون
حيث يكون هو في هذه الدنيا وفي الدنيا الآتية » قالت ذلك ودمعت عينها وهي تبتمسم
واحست القهرمانة ان الحديث طال وقد وصلت منه الى نقطة حرجة فأجبت مشاغلة
جهان عنه فنهمضت وقالت « مضى قسم من النهار ولم تباشري الصيد . . . فاركي فرسك
وانا اتبعك وهو بما اشاهده من مهارتك في مطاردة الغزلان »

الفصل السادس

الوعل

وكانت جهان قد ملت الحديث ايضاً فاعجبها الرأي فاشارت الى السائس ان يأتي
بالجواد والقوس والنبال ونظرت الى الجبال بين يديها لتختار جهة تركب اليها فبصرت بوعل
يركض على صخر قريب منها ولم تعهد مثله في تلك الجهة من قبل فبغتت وصاحت بالسائس
« فيروز . . هات القوس »

فأسرع اليها بالقوس فاوترتها وسددت السهم واضمرت في باطن سرها انها اذا اصابت
 طرف يديها كان ذلك فالاً على نيلها ضرغام وقرب مجيئه والا فلا . ونظرت الى الوعل فرأته
 وقف على تلك الصخرة والتفت نحوهم فرمته بأسرع من لمح البصر وسمعت طنين النبل في
 الهواء وخيزرانة تنظر الى الوعل وتخاف ان يفرّ قبل اطلاق السهم فما لبثت ان رآته سقط
 ثم انقلب الى شق بين صخرين فصاحت جهان « وقع وقع . . اليّ به يا مرجان » فركض
 ورفيقه والسائس يركضان في اثره وظلت جهان واقفة وقلبا يكاد يطير من الفرح ثم تقدمت
 خيزرانة اليها وهي تضحك وتقول « لقد سرّني ربي هذا الوعل ليس لانك اصبتَه فقط
 ولكنني قبل ان ترميه اضمرت ان يكون فوزك في صيدك هذا رمزاً عن فوزك بضرغام »
 فابتسمت جهان وقالت « وهذا ضميري ايضاً . . اتقولين بعد ذلك ان ضرغاماً
 لا يناسبني ؟ »

قالت « بسطت لك رأيي وانا بصراحة الآن اكثر منك رغبة فيه » وضحكت وهي تمازحها
 فانبسطت نفس جهان لهذه الممازحة وانفجرت كربتها بمكاشفة خيزران . ثم سمعت صياحاً
 فالتفتت فرأت الرجال يجرون الوعل جراً لثقله فأسرعت اليهم فرأت الوعل ميتاً لا يتخبط .
 فتعجبت من سرعة مصرعه بسهم واحد . فلما وصلت اليه رأت سهمها لا يزال مغروساً في
 خاضرتِه ولاحت منها التفاتة فرأت سهماً آخر في لبتِه فصاحت « انه مصاب بسهمين
 وانا لم اطلق الاّ سهماً واحداً . . . هوذا السهم في صدره »

وامرت مرجان ان يستخرجه فاستخرجه بعد عنف شديد وهو يقول « يظهر ان الوعل
 مات من هذا السهم » ودفعه الي جهان فتناولته وقلبتِه بين اناملها فرأت على ريشه كتابة
 بالعربية وكانت تحسن قراءتها ولم تكذب تبين احرفها حتى صاحت « ضرغام . . ضرغام !
 اني اقرا اسم ضرغام على هذا السهم . . » فتقدم مرجان وكان يقرأ العربية ايضاً فقال
 « هو اسم ضرغام حقيقة »

فبهتت جهان واجفلت والتفتت الى خيزرانة وهي تتجلد خوفاً من ظهور بفتتها امام
 الرجلين ثم امرتها ان يذهبا بالوعل الى مكان يذبحانه ويفعلان به ماشاءا واختلت بخيزران
 وقالت لها « ما قولك بهذه الصدفة ؟ اني توسمت منها خيراً »

قالت « يظهر ان ضرغاماً قريب من هذا المكان وهذا سهمه وقد رمي الوعل به فحمل
 الوعل جرحه مسافة طويلة لان هذه الوعول لا تسرح الاّ عند ضفاف نهر الشاش على مسافة
 بعيدة من هذا المكان »

فاطرت جهان وهي تحسب نفسها في حلم ثم قالت « انها صدفة غريبة ا . . . على
اني اخاف ان تكون قد اخطأنا الظن . . . ولكن لا . . . ان قلبي يحدني بصدق ظني . . .
فاذا كنت مصيبة اين نظنين ضرغماً الآن ؟ »

قالت « اظنه معسكراً على ماء للاستراحة قبل دخول فرغانة ولا اعرف ماء في هذه
الجهة الا نهر الشاش قلعله معسكراً على ضفته الشرقية »

قالت « وهل هذه الضفة بعيدة عنا ؟ »

قالت « انها على فرسخ وبض الفرسخ من هنا على ما اظن . . . وما مرادك من
هذا السؤال ؟ »

فخجلت جهان من التصريح بما يخالج ضميرها مخافة ان تستخف مريتها بها فظلت
ساكنة واطرقت وهي تتشاغل باصلاح وترالقوس بيدها . فادركت خيزران ما في نفسها
فابتدتها قائلة « اظنك تريدن الذهاب لملاقاة هناك »

فابتسمت والخبيل يعارض ابتسامها وتفرست في عيني خيزران لتستطلع حقيقة
غرضها من ذلك السؤال فرأتها تنظر اليها باهتمام فعلمت انها مشعرة معها فقالت « وهل
نظنين في ذهابي اليه بأساً او محظوراً »

فأشفقت خيزران على عواطفها واحبت مسيرتها فقالت « لو علم القوم انك ذاهبة
اليه عمداً ربما تحدثوا بذهابك ولكننا اذا لقيناه جعلنا لقاءنا على سبيل الصدفة . . . أما
المكان فبعيد لا يخلو الذهاب اليه من المشقة . . . هل تصبرين على ذلك ؟ »

قالت « لامشقة علينا ونحن راكبتان . . . فبادري الى الذهاب » قالت ذلك والتفتت
الي الرجلين فرأتها مشتغلتين بذيخ الوعل بهيماً

فادركت خيزران انها تريد استقدامها فسبقتها الى ذلك وقالت « اري ان نسبقك
خادمك فيروز يسير في ركابك وان تأمري الآخر بالذهاب الى بقية الموكب بباب المدينة
ينظرونا مع سائر الخدم هناك »

فاستحسننت جهان وأيها فشت خيزران بنحو الرجلين ثم نادتهما واومأت الي فيروز
ان يأتي فاسرع مهرولاً فامرته بما ذكرته جهان عن رفيقه وان يأتي بالفرسين ففعل
وأتى بهما فراكبتا ومشي هو في ركابهما لا يدري الى اين تسيران

اما جهان فادارت رأس جوادها نحو النهر وعيناها شائعتان في الافق لعلها ترى
حييتها قادماً . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ونسيت جهان انها لم تذوق طعاماً في ذلك

اليوم وليكنها أغضت عن كل شيء في سبيل ملاقاتها ضرغماً — وقد يغلب الحب على
خاطر صاحبه حتى ينسيه وجوده

الفصل السابع

الضيافة

ساو الفارسان في ارض بعضها مزدرع وفيه الاكرة والمارة وكلهم يعرفون غروس
فرغاة وان فاتهم النظر الى وجهها فانهم يعرفونها من فرسها او من خادمها • فكانوا اذا
رأوها وقفوا احتراماً وابتسموا اعجاباً وهي قلما تبسم لاشتغال خاطرها • وبينما هي
غارقة في بلباها سهل فرسها وفرس خيزران فانتبهت ونظرت الى امامها فرأت على مقربة
منها مزرعة فيها خيام كروية السقف على شكل خيام التركان — وهم يبنونها مستديرة
وسقفها قبة • ورات بين يدي الخيام بضعة افراس وغلامين يجلبان فرسين منهما واهل
بادية تركستان يفتدون بالبان الخليل كما يفتدي بدو العرب بالبان الابل



التركان يجلبون الخليل

فلما رأت جهان اولئك الاكرت ارادت ان تجعل طريقها بعيداً عنهم حرصاً على الوقت
فرأت خيزران تحول شكيمة جوادها نحوهم وشارت الى سيدتها ان تتبعها وقالت « الا

ترى مولاتي ان نسال هولاء القوم عن ضرغام لهمم رأوه ماراً فيغيبنا ذلك عن تكبد
المشقة في الوصول الى النهر

فاستحسنن جهان رأبها وتحوات معها حتى دننا من القوم ومعها فيروز فرآهم احد
الغلامين فنهض وقد علم من قيافة جهان انها اميرة كبيرة وامرع الى والده في احدى الخيم
يدعوه لاستقبال الاضياف واذا بأكار (فلاح) شيخ خرج من الخيمة وهو يتوكأ على عكازه
وحلما وقع بصره على الفارسين عرف جهان فامر اولاده ان يساعدهما في الترجل فابت جهان
النزول واثنت على الرجل والتفتت الى خيزران كأنها تحرضها على السؤال فقالت « انزلي يا
سيدتي للاستراحة هنيئة ثم نركب فاطاعتها مرغمة واسلم فيروز الفرسين وابتد بها عن
المكن لئلا يشوشا الموف بالصهيل بين يدي الافراس الاخرى

ولما ترجلت اندرش لها اولاد الشيخ حصيراً جلستا عليه وخاطبهما الشيخ بلطف
وسداجة قائلاً « الا تشرفنا بنت المرزبان بجلوسها لحظة في هذا البيت الحقيقير » فخرجت من
هذا اللطف وجلست على جلد افترشوه لها ولرفيقتها وقبل ان تبدأ خيزران بالسؤال جاء
الغلام يحمل قدحاً من الخشب فيه سائل عرفت انه من لبن الافراس الذي احتملوه في تلك
الساعة . فأشارت اليه ان يقدمه الى سيدتها فاعتذرت انها لا تشعر بالجوع فقال الشيخ
يخاطب غلامه « قدم لها قدحاً من القومز » (وهو لبن الخليل يخمرونه ويقدمونه شراباً
للزائرين كما يقدم العرب السويقي وكما يقدم اهل هذا الزمان الليمونادة او الشاي) ونظر
الى جهان وقال « وهذا القومز لا يستدعي جوعاً فانه يشرب كالماء ويزيل التعب »
فلم تستطع جهان ردّة فتناولته فاعتذرت خيزران تلك الفترة وخاطبت الشيخ قائلة
« الم يربكم اضياف غيرنا في هذا اليوم »

قال « كلا يا سيدتي . ولذلك فاني سررت بقدمكم . . . وقد تشرفت بمرور مولاتنا
جهان واذا فاتنا مرور الضيفان فهي خير من الف ضيف »
فقالت « وهل العادة ان يربكم المسافرين دائماً ؟ »

قال « نعم يا سيدتي لان القادم من اشروسنة او خوكند او بخارا يربد المشرق اذا قطع
النهر مرربنا . ثم يذهب الى فرغانة او الى غيرها . وكثيراً ما تمر بنا قواقل التجار قادمة من
الهند او التبت او الصين نقصد بلاد الروم او راجعة منها الى بلادها »

فنظرت الى جهان وخاطبتها بالفارسية — واكرة تلك البلاد يتكلمون الشاغطائية
(التوكية القديمة) وقالت لها الا ترين ان نمك هنا ريثما يمر ضرغام اذا كان لا بد من

مروره ؟ اليس ذلك افضل من ان نطلبه هناك وقد لسير اليه من طريق ويأتي هو من طريق آخر فنختلف في المرور ولا نلتقي »

فلم تجب ولكن ظهر على ملاح وجهها انها رضيت فقالت خيزران عند ذلك « إذني الرجل في ان يقدم لنا شيئاً نأكله »

فقالت « وكيف نطلب الطعام بعد ان رفضناه ؟ »

قالت « انا اطلبه باسلوب معقول » والتفتت الى الرجل وقالت بلنته « الا تبعون

خيلاً للذبح ؟ »

قال « كلاً ياسيدي لانتا زربي الافراس للبن ولا ندبجها الا متى عجزت وقل لبنا »

قالت « واذا اردتم ابتباع مهر للذبح كيف تفعلون »

قال « نترصد قطعاً من الخيل ماراً من هنا فنشتري منه ما شئنا . . . وقد مضت عليّ

برهة وانا انظر الى هذه الجملة (واشار بيده نحو الشرق والتفتت خيزران فرات في الافق

البعيد غباراً كثيفاً محلقاً في الجو) - فقال انظر الى هذا الغبار واتوقع دنوه فلعله غبار

قطيع من الخيل قادم الينا فابتاع منه فرساً او فرسين للذبح - واذا شاءت مولاتنا

المكوث هنيهة اخرى وتنازلت ان تتناول الطعام عندنا ذبحت لها فرساً سميناً »

فاستحسنت جهان اريحية الرجل وخفة روحه فابتسمت له ففهم انها رضيت فامر

احد ابنايه بملاقة القطيع وتمجيئه فاسرع الغلام يعدو واشتغل الشيخ باعداد المائدة ثم اتى

ببطيخة وضعها بين يدي جهان وقال « هذه بطيخة من بطيخ بخارا المشهور بحلاوته

سندبجها لمولاتنا في جملة الذبائح . . . »

فاستغربت جهان وجود هذا البطيخ عنده وهو مما يتفاخر باقتنائه الكبراء . ولم

يفت الرجل مجال في خاطرهما فاستدرك قائلاً ان هذه البطيخة اهداني اياها شاب معرم

جاء يخطب اليّ احدي بناتي فاتي بهنده البطيخة في جملة الهدايا »

فلما سمعت جهان ذكر الغرام تذكرت لوعتها فتهدت خنيفة واومأت الى الشيخ ان

يحفظ بالهدية وقالت « احفظ الهدية لصاحبها »

الفصل الثامن

الراية

واراد الشيخ ان يجيبها فسمع صوتاً يناديه فالتفت فرأى ابنه راجعاً يمدو وهو يلهث من التعب ويقول : « ان رعاة القطيع لا يبيعون من قطيعهم شيئاً »
ونظرت جهان الى جهة الصوت فدلها الغبار على ذلك القطيع من الخيل وفي مقدمته رجل راكب على فرس مسرج ووراءه عشرات من الخيول عارية تتزاحم وتتزاكض وعلى بعضها رعاة من بدو الكرج وهم يعيشون في براري تركستان على رعاة الخيل والماشية .
ورأت الفارس الاول لابساً لباس الجند ويده راية على رمح لم تنتبه للاسم الذي طرز عليها ولو قرانه لارتعدت فرائصها

اما الشيخ فاسرع الى الفارس واستوقفه وقال « الا تبيعوننا فرساً من هذه الافراس؟ »
فاجاب الفارس بانفة وعجرفة « كلا »

قال « انا في حاجة الى ذبيحة فنعطيكم الثمن الذي نريدونه »

فاشار برأسه نحو الراء ولم يجب

فقال الشيخ « ولماذا لا تبيعون؟ »

فقال « لان هذا القطيع مشترى لاناس لا يبيعونه »

فقال « ومن هؤلاء ؟ اليسو تجاراً »

اجاب « كلا » ثم اوما الى الراية وهو يقول « اظنك لا تعرف القراءة ولو

عرفتها لكفيتنا مؤونة السؤال والجواب »

فلما سمعت جهان قوله نظرت الى الراية فقرأت فيها « الافشين حيدر بن كاوس »

باحرف عربية وحالما قرأتها تغير لونها ونظرت الى خيزران قرأتها في مثل بفتها فتجلدتا . اما

الشيخ فاجاب الفارس قائلاً « صدقت اني لا اعرف القراءة . . لمن هذه الراية ؟ »

قال « هي للافشين حيدر بن كاوس قائد جنود الخليفة المعتصم وصاحب مملكة

اشروسنة »

ولم يكن احد في تركستان لا يعرف هذا الاسم لان الافشين كان ملكاً على اشروسنة

قبل دخوله في خدمة المعتصم فبغت الشيخ وتهيب وقال « ان مولانا الافشين مقيم في

بغداد على ما نعلم»

قال « كان في بغداد ولكنه جاء الى اشروسنة منذ ايام وبعثنا نبتاع الماشية لرجالنا »

فقال « وانتم ذاهبون بهذا القطيع الى اشروسنة الان ؟ »

قال « كان مولانا الافشين في اشروسنة ولكنه قادم الى فرغانة بقضي عيد النيروز فيها ورجالنا معسكرون خارجها على ضفاف الشاش وهذه الخيول لهم ٠٠٠ فهل تحتاج

الى زيادة ايضاح ؟ » قال ذلك وساق جواده وتبعه الرعاة بالخيول

فلم يعد الشيخ يتجاسر على السؤال وغلب عليه الخجل من جهان لانه عجز عن القيام بضيافتها واخذ يهيس عبارة يعتذر بها اليها فاذا هو يراها قد وقفت و اشارت الى خادمها ان يأتي بالجوادين وامرعت الى الشيخ وهي تتجاهل ما علمته من فضله « اني شاكرة حسن صنعك باعمامه وقد ظراً علي امرٌ يدعو الى سرعة رجوعي وعسى ان اتمكن من زيارتك يوماً آخر »

فاكبر الشيخ ذلك التلطف وهم بتقبيل يد ابنة المرزبان شكراً على لطفها وتنازها فاجتذبت يدها منه و اشارت الى القهرمانه فدفعت اليه بضعة دنانير وقالت له « اعط هذه الدوانق الى الغلام يشترى بها قوساً ونشاباً يلهو بهما » فشكر الشيخ لها فودعتهما وركبنا وتحولنا عن المكان وقد جاش في ذهن جهان خواطر زادتها قلقاً ولما خلت بخيزران الفت اليها وقالت بعد تنهد يدل على غيظ نكتمه « والان ماذا تقولين ؟ » هذا الافشين قد اتى فرغانة ولا بد انه نازل عندنا او هو بزورنا غالباً . . . »

قالت وما الذي يهيك من زيارته ؟ و . . . »

فقطعت كلامها فائلة « لا يهمني شيء من امره ولا هو نفسه يهمني ولا جنده يخيفني ولا انا اخشاه على شيء في . . . ولكنني اكره مجالسته و . . . » وبلغت ربهقها تشاغلاً عن اتمام الحديث ولطت باصلاح عصابتها على راسها وسكتت

فهمت خيزران موضوع تخوفها ولكنها تجاهلت وقالت « ان جهان العاقلة الحكيمة لا يخشى عليها من احد . . . وهل انت لا تزالين عازمة على المسير الى النهر . . . »

فنظرت خيزران اليها شزراً وابتسمت كأنها تستغرب سؤالها ولسان حالها يقول « كيف اذن ؟ »

وساقتنا الجوادين وهما ننظران الى قطع الخيل حتى تواري وطريقه غير طريقهما وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل واثر الجوع في خيزران واما جهان فتلطفها للقيام

حبيبها شغلها عن كل عاطفة وقضت معظم الطريق ساكتة وهو اجسها تنعاضم وتتلاطم
وكما تصورت لقاءها ضرغماً يخنلج قلبها وترى مع ذلك انها ارتكبت شططاً ما كانت
لتأنيه لولا غلبة الحب على ارادتها - وكثيراً ما تتغالب الارادة والحب ويكون الفوز له
لا لها . وقد تفوز الارادة ولكن الى اجل قريب واذا طالت غلبتها كان الحب ضعيفاً
صريع الزوال وقد يكون المحب كبير العقل مدبراً حكيماً ويرتكب في سبيل الحب اموراً
لا يأتونها غير اهل الطيش وليس استغراب الناس عمله اكثر من استغرابه عمل نفسه لانه
يأني تلك الامور وعقله مشرف على عمله ينتقده ويقبحه وهو لا يرى له سلطاناً على رده
والسبب في ذلك ان لذلك العاقل الحكيم قلباً فطر على الحب الشديد فاذا خالف هوى
قلبه تألم الماء لاطافة له باحتماله وقد يجن او يصعق . وكم من عاشق ذهب ضحية النزاع بين
العقل والقلب . فالعاقل اذا احب انتشبت بين ارادته وعواطفه حرب ولا حرب البسوس
فاذا كان كبير النفس قوي الجنان جارى عواطفه اعتماداً على عزة نفسه وقوة جنانه فلا
يخاف ان يغلب على امره - وكانت جهان كبيرة العقل قوية الارادة ولكنها كانت
كبيرة القلب شديدة العواطف وكانت مع ذلك الوفة شديدة التعلق بما تألفه وان تكن
لانحبه على حد قول الشاعر:

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شبيبي مومج القلب باكيا
فكيف اذا كانت تحبه وقد عاشته اعواماً عديدة حتى تمكن حبه من قلبها . وكانت
ربة الجنان ثابتة الرأي في حبه وزادها تعلقاً به تخوفها من الافشين ونفورها من رؤيته فلم
رأساً من السعي في ملافاة حبيبها وخصوصاً انها ذاهبة بحجة الصيد

الفصل التاسع

ضفاف الشماش

سارتا برهة وهما تنظران الى الافق والجوادان يدلانها على الطريق المؤدي الى
ضفة النهر حتى اطلتا على الماء عن بعد ورأتا الشاطيء فلم تجدا عليه خياماً ولا رأتا
جنداً ماشياً ولا راكباً . فلو قفت فرسها والتفتت الى القمر مائة وقالت « هل ترين
احداً هناك ؟ »

قالت « كلا يا سيدني ولكننا على مقربة من الشاطي . فهل بنا اليه لعلنا نرى فيه
اثراً بفيدنا »

فعادنا الى المسيروحي بلغنا الشاطي بقرب كوخ تحت شجرة فرأنا آثار اناس كانوا
هناك وانصرفوا من برهة وجيزة رانا ببقية نار لا تزال موقدة وبقايا طعام وفاكهة
وعظام واذا بصاحب الكوخ قد خرج للقائهما ورحب بهما بحسب انهما نازلان عنده
وكانت خيزران قد استعدت فيروز وامرته ان يسال اهل الكوخ عن القوم الذين كانوا
هناك فتقدم وحيا الرجل وساله فقال « هم جنود من المسلمين عبروا النهر عند الفجر
واقاموا هنا الى الظهر فتغدوا وانصرفوا »

قال « وهل عرفت جهة مسيرهم ؟ »

قال « اظنهم يقصدون فرغانة ولعلمهم يريدون قضاء النيروز فيها »

فلما سمعت جهان قوله ترجح عندها ان القوم ضرغام ورجاله وندمت على مجيئها الى
هناك لاعتقادها ان ضرغاماً اذا أتى فرغانة يذهب توالى الى بيت والدها فلو عادت راساً
فيها ربما لقينه هناك ومع ذلك اشارت الى خيزران بالرجوع العاجل قبل ان يدركهما
الظلام وهم على ميلين من المدينة فحولنا الاعنة واستحثنا الخيل نحو المكان الذي تركوا
الركب فيه بباب المدينة

وصلت جهان ذلك الباب واهل الموكب في قلق عظيم لغيابها وكان بعضهم قد خرج
للبحث عنها في الجهة التي كانت تصطاد فيها ولولم يأتهم الخادم بالوعل المذبوح ويطهئهم
لزادوا قلقاً فلما راوها مقبلة عرفوها عن بعد من قيافتها ولون فرسها فلما وصلت
رحبوا بها واخبروها ان الطعام مهياً فاشارت عليها خيزران ان تتناول شيئاً منه فاطاعتها
وجلست الى المائدة وتناولت شيئاً من اللحم والقومز والفاكهة على عجل لشدة بلبالها
ولحظت وهي تأكل ان بعض الخدم يخاطب القهرمانه همساً وتوسمت في وجهها تغيراً
فادركت انه يسارها في امر ذي بال فنادت بالفتى ونظرت في عينيها نظراً الاستههام فقالت
خيزران « انه يخبرني عن مولاي سامان »

فقالت « وهل جاء سامان الى هنا واين هو ؟ »

قالت « يقولون انه جاء وسأل عنك ورحع »

فقالت « لا بد لسرعة رجوعه من سبب وماذا قال ؟ . . . »

قالت « لم يقل شيئاً . . . » وتشاغلت بازدراد لقمة كانت تمضغها وكادت تفص بها

فتفرست جهان في وجه الخادم الذي كان يخاطب خيزران وقالت « اظه جاء بشأن والدي ٥٠٠ هل به بأس ؟ »

فلم تستغرب خيزران سرعة انتباهها لانها كثيراً ما كانت تقرأ انكار المتكلمين من مجرد النفوس في عيونهم ولم يسعها الا الاقرار ولكنها اظهرت نلة الاكثرات وقالت « لا بأس تلى سيدي المزربان بنصل اورمزد (اله الخير عند الجوس) ولكنه قال انه مشتاق الى رر بيتك وقد استبطأك ونحن في يوم النبرز كما تعلمين »

فنهضت جهان للعمل واشارت الى خدم المركبة ان يعدها للذهاب ونالت « لم يبعث والدي الي الا وهو يشكو من اشتداد المرض عليه ٥٠٠ هيا بنا »

وكانوا قد اعدوا المركبة فركبت فيها مع خيزران وسار الموكب نوا الى القصر وهي تتوقع ان تجد ضرغاماً هناك

الفصل العاشر

المزربان

اطلت على النصر نحو العشاء فرأت الحديقة نثلاً بما اوقد فيها من المشاعل والمصابيح وقد غصت ببجهاير الناس وما يحملونه من الهدايا والتحف الى المزربان على عادتهم في مثل ذلك المهرجان . وكانوا اذا جاؤوا في الاعياد السابقة رايت وجوههم تفتح مروراً وبهجة يضحكون ويقرعون طبولهم ويضربون طبايرهم اما اليوم فقد أتوا بالآلات الطرب لكمهم لم يضربوا عليها تهيئاً لما علموه من اشتداد المرض على المزربان . فرأتهم جهان متفرقين زرافات ووحيداتا في طرفات الحديقة وعلى السلم وعليهم البسة العيد من الخبز والديباج وكلهم وقوف يتهامسون ويتلفنون بعضهم الى بعض وعلامات الاسف بادية على وجوههم . ويباب الحديقة الدواب تحمل التحف من الثياب والاطياب والفاكهة والخدم يشتغلون بانزالها وحملها الى المطابخ

ولما وصلت مركبة جهان الى باب القصر تفرق الناس الى الجانبين واشتغلوا عن احمامهم وسائر احوالهم بشاهدة بنت المزربان وكانوا يحبونها ويتبركون بطلعها ويتوسمون برويتها خيراً . فلما نزلت من المركبة هتفوا بالسلام عليها وحالما اطلت عليهم وراوا وجهها سري

عنهم ونسوا ما كانوا فيه من القلق كأنهم يحسبون دخولها على ابينا يذهب مرضه وبعاثيه
 اما هي فحنت راسها للسلام نلطفاً ولم تبتم كعادتها ولكنهم توهوا انها ابتسمت لهم
 لفرط ما في محياها من الوداعة والالطف وكانت خيزران قد سبقتها للنزول ومشت الى
 جانبا والناس يوسعون الطريق ويقفون وقفة الاحترام حتى دخلت الحديقة ماشية بجلال
 ورشانة وصعدت السلم وهي تضع درجات تؤدي الى ابوان القصر وهي تنفوس بالوجوه
 خلة لعلها تجد ضرغماً وتخاف ان ترى الاثين هناك فلم تجد احدهما وكان اهل القصر في
 انتظارها على احر من الجمر فجاؤا لاستقبالها . ولم تجد اخاها سامان بينهم فظنته عند ابينا في
 غرفته فحالما اقيت قيمة القصر سالتها عن ابينا فقالت « انه في خير فشكراً لرحمة اورمزد »

فاطمان قليلاً ولكنها ظلت سائرة الى غرفة ابينا بين صفوف الجوارى والخصيان
 والكل وقوف اجلالاً لها . فمشت في دهليز مفروش بالسجاد حتى انت غرفة ابينا وقد اشتدت
 لهفتها لرؤيته وقلبا يخفق خوفاً عليه . وكان بباب الغرفة حاجب من المماليك الخصيان قد
 اخنص بباب المرزبان فلما رأى جهان اسرع الى سيده وبشره بقدمها ثم عاد ورفع الستر
 ووسع لها فدخلت وهي لا تزال باللباس الذي خرجت به للصيد والعصابة على راسها ولكنها
 حسرت عن وجهها وعنقها فبان اشراقها وقد زادها القلق والنعب هيبية وجمالاً فاقلت نحو
 سرير والدها وقلبا بطيح رونقاً وبهاء وعيناها تيرقان ذكاً واهتماماً

وكان المرزبان كهلاً لم يتجاوز الستين من عمره ولكن المرض والضعف جعلاه شيخاً هرماً
 وكانت لحيته ملء صدره وقد ابيض شعرها وعيناها كبيرتان زادها الضعف غوراً وبان
 الهزال في وجهه ولم يمتل شيئاً من هيبته ليربق عينيه واشتد يريقها لما علم بمجيء ابنته في
 ابان الحاجة اليها وكان سريره من خشب الابنوس قائماً على اربع قوائم نزل فيها المايج وكان
 مستلقياً وعلى راسه عمامة صغيرة كالطافية وفوقه غطاء من الديباج المزركش بالقصب على
 نصفه الاعلى الذي يغطي الصدر مطرف من فرو السمور الثمين ويداه مرسلتان فوق
 المطرف وقد حسرت عنهما كم القميص فبان هزالها

فلما دخلت جهان من الباب تحولت اولاً الى صنم مذهب قد نصب على عصابة بارزة
 من الحائط بجانب سرير والدها وبين يدي الصنم شمعة مضيئة غير المصباح المعلق بالسقف
 فانحنت للصنم تحسماً على عادة الجرس وامرعت الى والدها حالاً وجئت بجانب السرير
 واكبت على يده ثقبها وقد اثر فيها ضعفه ولكنها تجللت تشجيعاً له على جاري عادتها .
 فابتسمت وعيناها لا تبسمان ولكنها تنطقان باجلى بيان عن عظيم احترامها لابيها وشدة حبها

له . اما هو فالحال ما رأها ابتمس والدمع يتردد في ماقيه وفتح ذراعيه فعملت انه يريد تقبيلها
فالقت نفسها على صدره فقبلها واستنشق رائحة عنقها فاحست بجرارة نفسه وخشونة شعره
فاستأنست بتلك الخشونة لاطمئنتها على صحته لانها كانت تخاف ان لاتدركه حياً
وبعد التقبيل تجلد المزربان وتساعد على الجلوس حتى انكأ على الوسادة و اشار اليها ان
تقعد على الفراش بجانبه فقعدت وسالته « كيف ترى نفسك يا سيدي ؟ »
قال « اني بفضل اورمزد الحنون في خير و كنت اخشى ان يتغلب اهريمان (و اهريمان
اله الشر عندهم) فلا اراك لشدة ما قاسيناه من الالم وما كنت به من الضعف ولكنني شعرت
الراحة منذ علمت برجوعك الى القصر وانت تعلمين انك تزييني الوحيدة في هذا العالم فلا
تبارقي القصر لاني ارتاح لرؤيتك »

فلم تتمالك جهان عن ارسال دعوتك دلنا على حنوها وخفتنا لوعة الوالد المريض
واثرنا في نفسه . وكأنه تصور حال ابنته بعد موته فغلب عليه الحنو فبكي وهو يحاول اخفاء
عواطفه رفقا بمواظفها فابتسمت هي وتجلدت ولم ينتها ماخالج خاطره فقالت « اشكر لاورمزد
الشفوق فاني اراك في صحة وساحلي له واتوسل اليه (وشارت الى التمثال) ان يعايدك
ويدفع عنك المرض ولا ريب انه يسمع صلاتي »

فقال « قد ارسات اخاك سامان في طلب الموبد (الكاهن) فاذا جاء صلينا معاً »
فاحست جهان براحة عند سماعها انكل ايها تلى الصلاة . و ليس للانسان تعزية في
مثل هذه الساعة غير الايمان — ان الايمان هو وحده تعزية بني الانسان في شدائدهم
بعد ان تعجز العقول وتغل الايدي عن درئها . ولولا الايمان لكان حظ الناس من دنياهم
التعاسة والشقاء بذلك على ذلك ان الارض لم تخل من دين . وما من امة الا وهي تدب
بشيء ترجع اليه في رد القوي عن الضعيف وتعزي به في المصائب التي يضيع فيها الاجتهاد
وتعجز عنها العقول ولا ينجع في دفعها مال ولا سلطان ولا يفيد فيها جند ولا اعوان وتقتصر
عن معالجتها مهارة الاطباء وحكمة الفلاسفة وتلوم العلماء واقلام الكتباء — تلك الحال في
الناس لا ينجع فيها غير الايمان والاستسلام عن اعتقاد صحيح في الدين . فالألمون ينلقون
المصائب بالشكر ويسقبل الموت ضاحكاً مسروراً . وليس اضر للبشرية ممن يضع الشكوك
في اذهان العامة لانها تقتلهم وتذهب بسعادتهم . وهو نفسه مها بلغ من شكوكه او انكاره اذا
اصيب بضعف او خاف تلى حبيب نفدت حيلته في اصغافه لا يرى مندوحة عن الاتجاء الى
غير الوسائل المعروفة فيستغيث بقوة لا يعرفها ويتوسل الى شخص لا يراه ولا يعتقد بوجوده .

وقد اختلف الناس في تفاضل الايمان لكنهم اجمعوا على التدين بواحد منها
فلما سمعت جهان انكالم والدها على الصلاة سكن خاطرها واطمان بالها فقالت « وهل
يأتي الموبذ الليلة ؟ »

فنهده عن سر بضمه وقال « قد بعثت اخاك في طلبه ولا اظنه يأتي به لانه عودني
ان لا يطابق عمله ما في نفسي » وكانه ندم على هذا التعريض فاستدرك وقال « ولا باس
من تاجهبل ذلك الى الغد . . »

وشعرت جهان عند تعريض ابها باخيها انه غير راض عنه وكانت تلحظ مثل ذلك
من قبل وهي لا تعلم سبباً لهذا الفتور وكان المرزبان يبلغ في كتمان ذلك لعله بذلك جهان
وسرعة انتباهها وانها اذا اطلمت على ما في خاطره من امر اخيها يتكدر عيشها . فسكنت
وسكت والدها حيناً وكلاهما مطرق واخيراً اتبه هو فقال « اذهبي يا جهان يا حبيبتي الى
غرفك وبدلي ثيابك وتناولتي عشاءك فاني اشعر براحة وميل الى الرقاد »

فنهضت وهي تقول « الا تحتاج الى شيء اقضيه لك يا اتي قبل ذاهبي ؟ »
قال لا احتاج الى شيء الآن واذا اصبح الصبح وجاء الموبذ علمت شيئاً جديداً . . .
اذهبي محفوظة محررة »

الفصل الحادي عشر

سامان

اشتأقت نفسها للاطلاع على ما في خاطر والدها والى ما ستعلمه في الغد . . .
ولم تستحسن الاحاح عليه في كشفه مراعاة لضعفه وقد سرها انه لم يذكر الانشين ولكنها
ودت لو سئحت لها فرصة تذكر فيها ضرراً ما امله بذكره بخير وتطرق الى اطلاعه على رغبتها
فيه ولم تكن تتهيب من ذلك التصريح وان خالف العادة المألوفة من سكوت البنات عن
مثله لانها كانت لكبر عقلمها قد تعودت التكلم بين يدي والدها كما يتكلم الرجال . لكنها اجلت
ذلك حتى يأتي ضرغام ويدخل عليه فتتخذ دخوله حجة للكلام

وقبل ان تتحول للخروج دخل الخادم واخبر المرزبان « ان سامان بالباب » فلما سمع
المرزبان انقبضت نفسه ولكنه تجاهل وقال « بدخل »

فدخل سامان ولا يصدق الناظر اليه والى جهان انها اخوان على انه كان اخاهما من ابها فقط لان والدته كانت جارية سنديّة ماتت عنه وهو في الثامنة من عمره وسافر والده على اثر ذلك الى بلاد القوقاس فلقي هناك فناء جركسية اعجبه جمالها فتزوجها وجاء بها الى فرغانة فولدت له ثومتين هما جهان وطفلة اخرى . وماتت الولدة والطفلتان صغيرتان فعهد بامرهما الى خبزرات ولم يعد يتزوج بعد امهما لانه كان يحبها حباً شديداً لفرط جمالها وتعقلها واحب ابنتيهما لشدة مشابهنهما لها . ولكنهما لم تبلغا الثالثة من العمر حتى فقدت احدهما وبقيت جهان وحدها تحموت كل محبته اليها . والمشهور عن فقدان تلك الشقيقة ان فرساً اختطفها لان في تركستان جماعة من اللصوص يدربون الخيل على اللصوصية فتختطف الاطفال او الاحمال باسنانهم او تمسدهم بها . واصبح اهل فرغانة من ذلك العهد يحاذرون التفاؤل عن اطفالهم خوفاً من اختطافهم . اما المرزبان فنظر في سبب ضياع ابنه نظراً آخر وتولد اليه في قلبه اسامان من ذلك الحين لانه كتم السبب عن كل انسان فكان سامان بعيداً عن جهان خلفاً وخلقة . كان قصيراً اجرد ليس في وجهه الا شعرات متفرقة في ذقنه . وكان منبسطة الخدين يخامر بياض عينيه حمرة كأنه مستيقظ من رقاد وهو مع ذلك مضطرب البصر لشدة الحول اذا نظر اليك حسبه ينظر الى السقف او الى الباب ولا يستقر نظره في نقطة . يخاطبك وهو مطرق او يحول بصره عنك واجفانه ترتجف . واذا تكلم اسرع بكلامه وشفته ترعشان كأنه في موقف يخاف فيه القضاء عليه بالموت ولكنه كان كثير الدهاء واسع الحيلة شديد الحب لذاته والكراهة لسواه فلا يحب من الدنيا غير نفسه ويغلب هذا الطبع في الاجرد والخصي

فلما اذن له في الدخول هرب الى سريره والده وعلى رأسه قلنسوة من الخبز بلا عمامة وقد ارتدى جبة طويلة تغطي ثيابه واصبح اذا مشى يتمثر باردانها في اثناء مشيه فوقف بين يدي والده وقال « ذهبت الى بيت كرشان شاه (وهو هيكل الجوس بفرغانة) فلم اجد الموبد هناك وقيل لي انه يعود في الصباح فهل ابحت عنه في منزله ؟ »

فهرز المرزبان رأسه متضجراً وقال « قد كان في امكانك ان تبحث عنه قبل رجوعك ولكن لا بأس . . غدا نرسل اليه احد الخدم فانهم كثيرون عندنا . . اذهب الآن »
فراّت جهان في خطاب والدها جفاء زادها شكاً في بنته على اخيها ولم تكن سمعته يخاطبه بهذه اللفظة من قبل . اما سامان فبجاهل مراد ابيه واظهر الاستغراب وقال « لم اكن احسبك تطلب حضوره الليلة من كل بد والا لما رجعت الابه . . هل اذهب للبحث عنه ؟ »

وكان المرزبان يسمع كلام ابنه وهو ينفرس في وجهه فلما فرغ من قوله حول وجهه
عنه وقال « اذهب . . . ولكن لا تبحث عنه فاني احتاج الى الراحة . . . »

فاكب سامان على يدي والده يقبلهما فلم يكثر ابوه به ثم خرج وظلت جهان
واقفة ونظرت الى ابوها وتفرست في عيذه فرأت فيهما دمعتين تكادان تتحدران وهو
ينظر الى الشمعة المضيئة بين يدي التمثال وفرات حول شفقيه معنى دلها على سر في خاطره
يجب انشاءه فعدت على السرير وتناولت يده فشعرت بهرق بارد ورعدة خفيفة فقالت
« هل تريد مني شيئاً يا ابتاه ام اذهب ؟ »

فقال وهو يصلح متكاء « اذهبي يا حبيبتى . . . لا . . . لا تذهبي . . . لا بل اذهبي
واستريحى . . . »

فقالت « ما بالك . . . هل اغضبك افعال اخي سامان . . . سامحه . . . انه لم يكن
يولم مرادك . . . »

فهز رأسه وقال « انه لم يفهم مرادي ولكنني فهمت مراده . . . وقد دنا وقت
الحاسبة . . . » قال ذلك واستلقى على الفراش وهو يرفع الغطاء الى كتفيه التماساً
للرقاد فعلمت انه لا يريد الخوض في الموضوع فساعدته على التغطية وخرجت الى غرفتها
وهي في شغل جديد على اخيها فرأت خبزران في انظارها فرحبت بها وسألتهما عن ابوها
فطمأنتهما انه مرتاح فقالت بدلي ثيابك واذهي الى فراشك »

فظلت واقفة ولم تجبها فادركت انها لا تزال عالقة بالذهن بضرغام ومجيئه فابتدرتها
قائلة « ان الناس قد انصرفوا واطفئت الانوار في الحديقة والابوان ولم يأت ضرغام
فالظاهر انه يأتي في الغد . . . »

فاقننت واخذت في تبديل ثيابها فساعدتها خبزران على ذلك ثم ودعتها وخرجت
وارادت جهان ان تذهب الى فراشها واذا بخادمة دخلت وهي تقول « ان مولاي
سامان يريد مشاهدة مولاتي . . . »

فسررت جهان لقدمه لانها كانت مشتغلة بالخطر به بعد خروجه من حضرة والده
على تلك الصورة فدخل وعليه ملامح الاكتئاب والانكسار فيما راته اشفت قلبه
فرحبت به وابتسمت له وقالت « لا يسوك ما سمعته من ايننا نانه قلبه عن غضب من
ضعفه وضيق صدره . . . »

فعدت على وسادة في ارض الغرفة وهو يظهر الاسف والانكسار واطرق ولم يجب

فجلست الى جانبه وتفرست فيه فرات دموعه تتساقط بلا بكاء فائر منظره في خاطرها
وغاب حنوها وطيب عنصرها على فراستها وتعقلها وقالت « ما بالك تبكي يا سامان يا اخي »
فرفع بصره اليها وقال وصوته مختنق « تساليني عن امري وقد شاهدت بعينيك
وسمعت باذنيك . . . »

قالت « قلت لك ان ابانا فعل ذلك عن مرض لا غرض فانه يجيبك وليس له ابن
سواك فانت وريث اسمه وانت . . . » فقطع كلامها قائلاً « ربما كان يجيني ولكنني اراني
سيء الطالع . . . لاني ابذل جهدي في طاعته ولم يكن هو كائني استدعاء الموبذ ولكنني
رايته يسال عن خادم يرسله في طلبه فقدمت نفسي لهذه الخدمة . . . ولا ارى منه غير
الاعراض وانا يهمني ان يكون راضياً عني . . . »

قالت « انه راض عنك والا فانه سيرضى . . . كن مطمئناً »

قال « انا اعلم انك تحبيني وتسعين في استرضاء والدي ولكن يظهر ان آخرين
يكيدون لي عنده . . . وهو لسلامة نيتي يتخدع باقوالهم » قال ذلك ووقف واطهر انه
يريد الخروج لئلا يسوءها تمام حديثه فارقفته وقالت « من تعني باولئك الكائدين ؟ »
قال « اعني جماعة تعرفينهم وقد قبضوا على عقولنا وقلوبنا واموالنا باسم الدين »
فعلت انه يعني الموبذان (الكهان) فقالت « فهمت مرادك واطنك تعمدت الرجوع
وحدك الليلة ولم تأت منك بالموبذ ؟ »

فتحنجح وبلغ ريقه ثم قال « لم اتعهد ذلك ولكنني لم اجده في بيت النار فلم ابحث
عنه في مكان آخر لان دخول الموبذان الى بيتنا يفسده . . . »

فقطعت كلامه قائلة « اني لا اوانقك على ذلك لان اولئك الموبذان يصلون لاجلنا
وهم يركتنا وليس لنا تعزية بدونهم واري والدنا يمتد ذلك فلا يجب ان نخالنه »

فقال « لا أنكر ان بينهم اناساً صالحين ولكن بعضهم من اهل المطامع يريدون كل
شيء لانفسهم . . . مالنا ولهم الآن وانما يهمني ان لا يكون والدي نقيماً علي »

فقالت اما هذا فاننا ادبره فاذهب الى فراشك مطمئناً »

فخرج وهو مطاطي رأسه يظهر الانكسار وحالما خرج ذهبت هي الى فراشها ولما خلت
بنفسها عادت اليها و اجسها ولم تنم تلك الليلة الا قليلاً



الفصل الثاني عشر

ضرغام

واصبحت باكرًا فالتفت بمطرفها وذهبت الى غرفة والدها بشوب البيت فراته جالساً في سريره وهو احسن حالاً من الامر ففرحت بصحته وسألته عن حاله فقال « قد نمت براحة شكرياً لاورمزد واشعر اليوم بنشاط . . . الم ييلفك قدوم الاثين الى فرغانة . فقد كنت على موعد من مجيئه في هذا العيد »

فلما سمعت اسمه اجفلت وقالت « لم اعلم ياسيدي ولعله جاء ولم يات الينا بعد . . . » فقال « من لي بمن يبحث عنه »

فقلت « اذا امرت ان نبعث من يطلبه فعلنا ولكننا لو اتى فرغانة لجاءنا بلا دعوة » قال « صدقت . . . وهل ذهب اخوك ليستدعي لنا المويد اليوم »

قلت « انه خرج في الفجر باكرًا للبحث عنه لانه تأسف البارحة لتغييرك . . » فقال « ننتظر رجوعه . . . اسقني شربة ماء من يدك »

فسرها انه يرتاح الى ذلك فامرعت بنفسها فائه بكاس فيه ماء وقدمته اليه فشر به وانتمش ودفن الكاس اليها فدفعته الى الخادم وعادت واذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان ضيفاً فادماً من العراق يريد مقابلة المزربان »

فصاح المزربان « هذا هو الاثين » وظهر الارتياب في جبينه ولم يسأل عن من هو قبل ادخاله على جاري العادة نقل « ايدخل » واسفت جهان لوجودها هناك ولو استطاعت ان تشق الحائط وتخرج منه لعمت ولكنها تجلدت مراعاة لخاطر ابيها فوقفت وقد انقبضت نفسها فتماسكت ثقلاً يبدو ذلك عليها

اما الحاجب فوسع الستر فدخل القادم فلما اطل اجفلت جهان وبدت الدهشة على وجهها وانقلب انقباضها الى انبساط وتحول امتقاع لونها الى نور لان القادم لم يكن الاثين وانما هو ضرغام . فلما رآه المزربان ابتسم له ورحب به وصاح « ضرغام ! اهلا بولدنا ضرغام ظننك صديقنا الاثين . . هل انت قادم من العراق ؟ »

قال « نعم يا مولاي . . »

قال « وهل اتى الافشين معك »

قال « لم بات معي ولكنني علمت يوم خروجي من العراق انه عازم على الحجى الى اشروسنة وأظنه أتى »

وكان ضرغام شاباً في نحو الثلاثين من العمر قد كمله الله خلقاً وخلقاً • فكان ربيع القامة ممتليء الجسم عريض المنكبين واسع الجبهة كبير العارضين كث اللحية تلوح البسالة وعلو الهمة في عينيه وتتجلى المروأة وصدق اللهجة حول شفثيه • على رأسه قلنسوة قرمزية حولها عمامة سوداء وقد لبس قباء سماوي اللون تمتطى حوله بمنطقة علق بها سيفاً قبضته مذهبة وتحت القباء سراويل من الخز الارجواني • وفوق القباء جبة سوداء وقامته قامة الابطال اذا وقف حسبته جبلاً راسخاً

دخل على المرزبان في ذلك الصباح وهو لا يعلم ان جهان هناك فلم تكن دهشته اقل من دهشتها

اما هي فلما وقع بصرها عليه لم تعد تعلم كيف تخفي بغتها واذا استطاعت اخفاء خفقان قلبها وارتعاش اعضائها فكيف تستطيع اخفاء ما ظهر من التورد في وجنتها او الاشراق في عينها - وقد نسيت حال والدها من المرض واصبح همها ان تلاحظ ما يبدو منه نحو حبيبها من ترحاب او انعطاف • فلما رآته يرحب به فرحت وكانت بجانب الصنم فاستندت على العضادة وتشاغات بمسح ما على الصنم من الغبار مخافة ان يبدو ارتعاشها • ولم تغط وجهها لان نساء تلك البلاد لا يعرفن الحجاب يومئذ ولا سيما جهان فقد كانت تستكف من تغطية وجهها وتعد الحجاب جيناً وضعفاً

اما ضرغام فلا تسل عن سروره بتلك الصدفة • وساعده في اخفاء عواطفه السلام على المرزبان فاكب على يديه يقبلهما • فامر له بوسادة جلس عليها وجلست جهان على وسادة اخرى واخذ المرزبان يسأله عن حاله فقال ضرغام « قد أسرعت في الزيارة باكرأ لاكون اول من يهنئك بهذا المهرجان المبارك ولم اكن اعلم أنك منحرف المزاج فارجو ان تكون احسن حالا »

فقال المرزبان « اصبحت مرتاحاً اليوم وقد زاد سروري برؤيتك وانت تعلم حبي لك »

فانحنى ضرغام شاكرأ وقد سره هذا الانعطاف ولكن سروره لم يكن شيئاً يذكر بالنظر الى سرور جهان فكانت تسمع كلمات ابها وقلها يرقص فرحا فاجابه ضرغام « اني

اشكر لسيدي المرزبان التفاته الي ضيفه وقد تأكدت فضله علي من قبل وانا غرس نعمته «
 فتغافل المرزبان علي سماع ذلك الاطراء قائلاً « هل انت قادم توّاً من العراق ؟ »
 قال « نعم يا سيدي وقد وصلت الي فرغانة مساء الامس »
 قال « وكيف فارقت القوم هناك ؟ »
 قال « فارقتهم في شاغل من المشاكل وكل واحد يخاف صاحبه ويحذره • ويستعين
 عليه بجند من غير جنسه •••• وانما الغلبة اليوم للجند التركي »
 فقال « قد علمت ان الخليفة الجديد المعتمم بالله ••• لما افضت الخلافة اليه استعان
 في تأييدها باخواله الاتراك فاعانوه وفي جملتهم الافشين ملك اشروسنة وانت »
 فاعجبه إقران اسمه باسم الافشين ولكنه اراد التواضع فقال « ان الافشين عون
 كبير للخلافة واما انا فلا استحق الذكر »
 فقطع المرزبان كلامه قائلاً « ان لك مستقبلاً مجيداً لما اعلمه من بسالتك وعلو
 همتك ••• انك لنعم القائد البطل ولا بد انك ارتقيت في جند الخليفة »
 قال « نعم قد اصبحت بفضل مولاي رئيساً للحرس »
 قال « رئيساً لحرس الخليفة ؟ »
 قال « نعم يا سيدي »

فبان السرور بوجه المرزبان والتفت الي جهان وهو يظهر الاعجاب بذلك التقدم
 السريع علي عادة المعجب بامرٍ يسمعه ان يطلب مشاركة الحضور في اعجابه فرأي جهان
 شاخصة الي ضرغام تسمع حديثه وتكاد تلتقفه بصرها • ولو ادنى المرزبان اذنيه من
 صدرها لسمع خفقان قلبها • اما هي فاتبعت لفتته فحولت بصرها اليه وسأيرته بابتسامة
 اظهرت بها انها مشاركة له بمجاملته وسكمت وعينها تكلمان كلاماً لم يفهمه والدها وانما
 فهمه ضرغام وكان يجيبها بنظرات يوجهها نحوها في اثناء الحديث
 اما المرزبان فعاد للكلام عن الجند فقال « اظن في العراق الآن جمعاً كبيراً من
 الاتراك المجندين »

قال « اتهم يزيدون علي عشرين الفاً من هذه البلاد وفي جملتهم ابناء ملوك فرغانة
 الاخشيد وغيرهم » (١)

فقال « اظنه رغب في تجنيدهم لعصبية والدته فيهم »
 قال « لا يخلو ان يكون ذلك بعض السبب ولكن السبب الالهم ان دولة المسلمين
 هذه عربية الاصل كما تعلم ولما نهض المسلمون لفتح كان الجند كلهم عرباً ففتحوا الامصار
 وأسسوا الدولة وظلت الجنود معظمها عربية كل ايام بني امية . ثم قام الفرس بنصرة
 العباسيين وشاركوهم في تاسيس دولتهم فاشتد ساعد الفرس وضعف امر العرب . وما زال
 الفرس يتقوون الى ايام المأمون الخليفة السابق فاصبحوا هم اهل الدولة وفي ايديهم الحل
 والعقد . ولا يخفى عليك انهم ما زالوا من اول الاسلام وهم ينوون رد السلطة الى الملوك
 الاكاسرة »

الفصل الثالث عشر

سامراً

فلما وصل الى هنا تنهد المرزبان تنهداً عميقاً فادرك ضرغام انه ياسف لضياح دولة
 الفرس فتجاهل وسار في حديثه فقال « فلما افضت الخلافة الى المعتصم منذ بضع سنين
 اصبح خائفاً من الفرس وخصوصاً لانهم قتلوا اخاه الامين وسلموا الدولة الى اخيه وابن
 اختهم المامون على نية ردها الى الفرس بعد موته . فلم ير المعتصم خيراً من ان يستعين
 عليهم بقوم اشداء لم تذلم الحضارة فعمد الى تجنيدهم الاثراك كما علمت . . . »
 فقال « وهل هم يقيمون في بغداد ؟ »

قال « كانوا يقيمون هناك الى عهد غير بعيد فتضايق البغداديون من جوارهم لانهم
 كانوا يؤذون العوام في الشوارع . وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في الاسواق ^(١)
 فابتنى لهم المعتصم مدينة سماها « سر من راي » او سامراً واختط فيها الخطط واقطع
 القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم . وافرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك
 التجار فبنى الناس وارفع البيتان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه
 وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع
 الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثرت العيش واتسع الرزق »

فاجب المرزبان لهذا التدبير فقال « فمهي اذا مدينة كبيرة . . . وهل بقي الاتراك على دينهم ام غيروه »

قال « لا يخفى على مولاي ان معظمهم يدبنون الزرادشتية ولكنهم اصبحوا الان مسلمين . ومن اغرب التدابير التي دبرها هذا الخليفة لاستبقاء هذا الجند قوياً كما هو الان انه ابعد عن اهل البلاد ومنع رجاله ان يتزوجوا منهم . ورأى ان يزوجهم بنات تركيات يستجلبهن بالشراء من تركستان وقد ارسل وفداً لا يتبع هؤلاء الجواري فاغتمت هذه الفرصة واستأذنت في مرافقة هذا الوفد فاتيت الى فرغانة بهذا السبب . »

فقال المرزبان « قد سرني قدومك يا ولداه وفرحت برويتك وكان اورمزد قد دبر ذلك حتى اراك قبل . . . » قال ذلك وتغيرت سمته وبان الانتباض في وجهه لكنه تشاغل بالسعال ومسح شاربيه وعينيه حتى لا يظهر اجهاشه للبكاء . فاختمت جهان في اثناء ذلك ابتسامة تبادلتها مع ضرغام وقد سرها تودد والدها اليه ولكنها تأثرت من بأس ابينا . وهي ارغب في بقائه بعد ما عاينته من رضاه على حبيبها وتأكد عندها انه لا يمانع باقترانها به وعزمت على مخاطبته بذلك في اول فرصة

اما المرزبان فاراد ان يشغل ضرغام عما بدا منه فقال « وكيف والدتك المسكينة ؟ » قال « هي في خير الحمد لله لا تفتر لحظة عن ذكر مولاي وافضاله علينا وتذكر علي الخصوص مولاتنا جهان لانها شديدة التعلق بها . . . »

فأت جهان سبيلاً لمخاطبته فقالت « مسكينة آفتاب . . . اني احبها محبة الابنة لوالدتها ولم ألق امرأة اطيب قلباً منها وقد كنت كثيرة الاستئناس بها »

وهب المرزبان بغتة كان شيئاً نبيه فقال « اين سامان ؟ . . هل اتى الموبذ . . . ؟ ادعوه لي حالاً . . ان سامان لا يعول عليه » قال ذلك وهز رأسه هزة كلها معان فنهض ضرغام وقال « انا اذهب لاستدعائه فاني اعرفه واعرف مكانه »

فقال المرزبان « لا تكلف نفسك الذهاب وفي قصرنا عشرات من الخدم والخصيان . . . ولو لم يتصد سامان للذهاب بنفسه لكان لنا غني بواحد منهم »

فقال « قد احسن سامان بتصديده اجلالاً لامرأته واذا اذن مولاي ان اتولى ذلك انا فعلت »

فقطع المرزبان حديثه قائلاً « كلاً لا نذهب انت » فقال « تأذن لي ان ابعث خادمي بل رفيقي وردان فاني لم اكل اليه امراً الا انفذه »

ولوركب اليه على رؤوس الاسنة» قال ذلك وخرج وصاح «وردان»
فاتاه رجل في نحو الاربعين من العمر خفيف العضل خفيف الحمة يظهر من بروز انفه
وسائر ملامحه انه ارمي . وكان قد دخل في خدمة ضرغام بسامراً من عهد قريب ولكنه
اكتسب ثقته سريعاً لما آتته ضرغام من علوهمته وشاطهه وشدة حبه له فكان يعامله
معاملة الرفيق وابن ان يسميه خادماً لانه آتس فيه من عزة النفس والانفة ما لا يعده
بالخدم فاتخذة رفيقاً له واصبح بصطحبه باسفاره — فلما جاء وردان وقف بين يديه وعليه
عمامة مستديرة وسراويل قصيرة وفروة من جلد الغنم فقال له «هل عرفت بيت النار
الذي مررنا به مساءً الامس وعليه الانوار والرايات ؟»

قال « نعم »

قال « اذهب الى هناك واسأل عن الموبذ وقل له ان المرزبان يطلب حضورك
في هذه الساعة ولا ترجع الا وهو معك »
فأشار مطيعاً وخرج

اما جهان فأصبحت شديدة الرغبة بخلوة تمادث فيها ضرغاماً وتشاكيه الغرام وكانت
تسهر ان رأسها مملوء بالاخبار التي بلذ لها كشفها له على عادة المحب اذا فارق حبيبته فانه
لا يرى شيئاً او يسمع خبراً او يخطر له خاطر الا ويشعر بميل للملافة حبيبته ليشاركه في ما
راه او سمعه او خطر له وقد يكون ذلك سبباً في زيادة الشوق فيسرع في اللقاء واذا
التقيا وفرغاً من التشاكي والتعاتب عمدا الى مبادلة الاحاديث وقصص الاخبار وبث
الاسرار كأن الحب امتزاج الارواح فيستلزم امتزاج الشعائر والافكار

فلا عجب اذا اشتاقت جهان لمجالسة ضرغام بعد ذلك الفراق الطويل ولا حاجة الى القول
انه في مثل شوقها وهفتها . وكانا في حيرة كيف يتسنى لهما ذلك . فاذا بالمرزبان ينادي
جهان قائلاً « مري المهتر - وهو قيم الدار - ان ينزل حبيبنا ضرغاماً في القصر ويهيء له
ما يحتاج اليه ومتى فرغ من ذلك مر به بالجيء الي فاني احتاج الى الاختلاء به حيناً بينما
يأتي الموبذ »

فسرّها هذا الطلب وخرجت لاجراء ما امر به والدها وقد سبقها ضرغام الى قاعة
خصوصية تعود ان يراها جالسة فيها

الفصل الرابع عشر

بيت النار

اما وردان فانه خرج باسرع من لمح البصر ولم يكن فيه شيء من طابع الخدم الا الطاعة العمياء لضرغام واما ما خلا ذلك فقد كان فيه مناقب كبار الرجال وشعر ضرغام بذلك فعامله معاملة الصديق



بيت النار — كاران شاه

وما خرج وردان من قصر المرزبان حتى رأى الناس يتزاحمون ببابه بافراسهم وهداياهم وعليهم اثواب العيد وهم ينتظرون الاذن بالدخول فلما راوه خارجاً بلهفة وعجلة جعلوا يتساءلون عن سبب عجلته وتجاسر بعضهم فسأله عن حال المرزبان فلم يجبه وظل سائراً حتى تجاوز القصر الى الشوارع وقد تراجمت فيها الاقدام وتصادمت المناكب والناس في شغل من امر العيد بين راكب وماش زرافات ووحداً يحملون الفاكهة والحلوى ويتبادلون عبارات المعايدة فلم يهجمه شيء من ذلك وظل سائراً حتى اطل على كاران شاه (بيت النار) والاعلام تحفق على سورته وحوله مقاصير تعد بالعثرات نقيم بها السدنة والخدم والقوام

وقد نزاحم الناس ببابه وهو مزين بالريحان . فتظاهر وردان انه واحد من عبدة النار
وقد جاء لاداء فريضة الزيارة فدخل الى صحن ذلك المعبد فرآه مفروشاً بالديباج والحرير
يحيط به اروقة مستديرة قد علقت فيها السنائر المطرزة وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة
واتصل من ذلك الصحن الى باحة المعبد حيث يقيمون الصلاة فاذا هي بقعة مربعة في
وسطها بناء معقود شكله مربع مستطيل في وسطه شبه الباب يصعد اليه بخمس درجات
(انظر الشكل) . وحول الباحة احواض ملتصقة بالجدران قد اوقدوا فيها النيران واحرقوا
البخور فتصاعد دخانها في الفضاء وعلى زوايا القبة اجران تصاعد دخانها كما تصاعد
عن مئات من امثالها على اعلى السور . وفي بعض جوانب الباحة نحو اليسار وعاء مستدير
مملوء بالنفط قد اشعلوه من فوهة فيه فتصاعد اللهب كالمزراق واصطف الناس حوله
بين جلوس ووقوف وهم يتشعرون او يصلون . ورأى رجلاً واقفاً على الدرج ظنه الموبد
فهمم بالذهاب اليه فاعترضه رجل على رأسه قلنسوة مستطيلة هرمية الشكل عرف من
منظره انه احد السدنة فلما رآه السادن اعترض سبيله فوقف وردان فقال السادن « ماذا
تريد ياسيدي ؟ »

قال « اريد مولانا الموبد . . اليس هذا هو ؟ »

قال « كلا . ان الموبد في شاغل الآن »

قال « واين هو ؟ »

قال « مالك وله ؟ . اذا شئت الصلاة او البركة فهذه النار في الاجران »

قال « بل انا اريد الموبد »

فحول الرجل وجهه عنه وهو يقول « انك لن تظفر برؤيته الا بعد الصلاة »

فاستمهله قائلاً « لا تغضب ياسيدي فاني غريب وقد أتيت من خوكدند بالامس

وعهدي بكم تكرمون الغرباء »

فخنجل السادن ووقف له وقال « الم تأت للصلاة او الاقتباس ؟ فهذه النار المقدسة

فاقتبس ما شئت »

قال « بل انا اريد الموبد »

فتقدم السادن وهو يدني فاه من اذنه ويقول همساً « ان الموبد في خلوة مع بعض الكبراء

في هذه الحجرة (وأشار الى حجرة نحو اليمين) فانتظر خروجه او افعل ما شئت »

قد وردان يده الى جيبه واخرج دنابير دفعها اليه وهو يتشم ويقول « الا

تأذن لي ان ادنو من الحجرة اصلي بجانبها استثناساً بمولانا الموبد
فتناول السادن الدانير وقال « افعل ولكن احذر ان يشعر بك احد »
فقال « طبعاً » وهول نحو الحجرة على نية ان يدخل على الموبد بحيلة و يبلغه امر المرزبان
فلما وصل الى بابها وقع نظره على الموبد ومعه رجلان بلباس فاخر عرف احدهما وهو الافشين
اما الاخر فحالما وقع بصره عليه احتاج قلبه في صدره لانه يشبه رجلاً في نفسه منه امر
عظيم فتفرس فيه فاذا هو الرجل بعينه فاستغرب وجوده هناك وهو اصهبند (نائب) بابك
الخرمي وعنده انه في اردبيل بارمينيا فما الذي جاء به الى فرغانة وبين البلدين سفر طويل .
فبعد ان كان وردان مسرعاً لمقابلة الموبد تراجع ثم وقف وهو يتظاهر بالصلاة والدعاء واعمل
فكرته في سبب هذه اخلوه في بيت نار الجوس بين الافشين قائد جند المسلمين ونائب
بابك الخرمي الجوسي الذي اعداء المسلمين . فحدثه نفسه ان يستطلع ذلك السبب بالحيلة فتجول
الى فرجة توّدي الى مستور وراء الحجرة فيه نافذة تشرف على داخلها بحيث يرى الجلوس
فيها وهم لا يرونه . فتربص واخذ يتفرس في الجماعة فرآهم جالسين على بساط من الديباج —
الموبد بقلنسوته وقبائه الارجواني وبين يديه الافشين بعمامته حول القلنسة والاصهبند
بالقلنسوة بلا عمامة . وكان يعهد الافشين بلبس الجبة السوداء شعار العباسيين فاذا هو بقباء
ارجواني يلبسه كبار الجوس في ذلك العيد ويعرف الافشين مسلماً رآه يصلي بالمسجد في
سامراً غير مرة فما الذي جعله يصلي في بيت النار ولم يستغرب مجوسية الاصهبند لعلمه انه
لم يعتنق الاسلام . فبعد واظهر انه يتلو دعاء او صلاة واصاح بسمعه الى ما يقولون فسمع
الموبد يقول « لا بد لنا من الفوز بعون اورمزد وانما يجب علينا ان نصبر »
فقال الاصهبند « اننا صابرون ولا اظن اصطبارنا يطول على شرط » وقطع كلامه
وهو يبلع ريقه

فقال الافشين « لا بأس من الصبر وان طال ولكن لا ينبغي لصاحبك بابك ان لا يغير
اعتقاده في »

فقال الاصهبند « انه لم يغير اعتقاده فيك ولكنه رآك اطلت التقرب من اولئك
اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين^(١) او عرباً وقد ارسلني اليك للاجتماع بك في هذا المهرجان
على جاري العادة لاذكرك بعهدك بين يدي حضرة الموبد »
فضحك الافشين وقال « ربما ظن صاحبك اني غافل عن العهد الذي عقدناه هنا

(١) ان الجوس المعادين للمسلمين كانوا يسمونهم يهوداً (ابن الاثير)

منذ بضع سنين^(١) ومعنا المازيار صاحب طبرستان اما انا فاسأل حضرة الموبذ هل اقمتم
بعهدي ؟ »

فاشار الموبذ براسه ان « نعم »

فاستطرد الافشين كلامه قائلًا « ان هذه النار تشهد على عهدنا . . قل لآخي بابك
اني لا ادخر وسيلة في جمع المال وارساله ولا اخطو خطوة في حرب او سلم لدى
المعتصم الا اقتضيت عليها مالا ارسله الى خزينتنا في اشروسنة . واما المازيار فانه
مقيم على العهد ولم يحضر معنا هذا العام لاسباب خصوصية لكنه كتب اليّ يستحثني على
الثبات وانه اذا تحركنا كان هو وطبرستان كلها معنا فانه اشد غيرة منا على التخلص
من هذه الدولة الظالمة والرجوع الى دولة الفرس المجيدة »

فقال الاصبهذ « ذلك هو عهد مولاي فيك ولكنه راك اطلت الرضوخ لحكم
اولئك اليهود كانك اصبحت واحدا منهم حتى تصديت ل حربنا غير مرة »

فقهره الافشين وهز رأسه قائلًا « المثلي يقال ذلك ؟ وهل يخفي قصدي على آخي
بابك ؟ ألا يعلم اني اذا خرجت لحربه انما افعل ذلك اخفاء لغرضي ولكنني اترقب الفرص
فاذا سنحت فرصة مناسبة انبأته بها وقتنا جميعاً قومة رجل واحد فننال امنية قصر عن نيلها
ابومسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل بن سهل وغيرهم من دعاة الفرس . . الا تعلم
ان هؤلاء انما افسدوا تدبيرهم بالعجلة ؟ ومثل هذا الامر يتطلب التؤدة والصبر واغتنام
الفرص »

فالتفت الموبذ الى الاصبهذ وقال « صدق الملك بما يقول انه رجل محنك فقل
لولدنا بابك ان يتربص معنا واورمزد يساعدنا فقد نبئت بحلم رأبته بالامس ان وقت الفوز
قد دنا فلا ينبغي ان تتغير نياتكم فيضيع سعينا سدى »

وكان وردان يسمع ذلك الحديث وهو يرتعد من الدهشة لما شاهده وسمعه فقد
رأى قائد جند اخليفة يكتم الجوسية ويماليء عدو المسلمين على الايقاع بالدولة عند سنوح
الفرصة . واحسّ مع دهشته انه اكتسب سلاحاً قوياً بمجرد الحاجة . ثم رأى الموبذ
يتحفز للنهوض ونهض الافشين ورفيقه وتلثا اخفاء حقيقة حالهما فحول وردان بأسرع من
لمح البصر حتى وقف في مكان من صحن الهيكل يلتقي فيه بالمرزبان عند خروجه

بالموبذ

(١) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار

وكان الناس مشتغلين بالاعتباس والدعاء فانباهم السادن بخروج المؤبد فتهيأوا للتبرك
بطلعتهم ووقف وردان بحملتهم بقلدهم بحركاتهم فاذا بالمؤبد يخطر بثوب يبهز البصر بالوانه
وتطريزه وفي عنقه عقد من الجوهر ويده صولجان قبضته مذهبة وهو قابض عليها يضرب
الارض بعصاه ويمشي مشية الخيلاء والناس بظأطئون له رؤوسهم
فلما رآه وردان يقترب منه تقدم نحوه واكب على يده بقبلها وهو يقول « ان مولانا
المرزبان يدعوك اليه الساعة لامر ضروري »

فعلم انه يعني والد جهان لانه وحيد هناك فقال « هل اشدت المرض عليه ؟ »
قال « لا ادري ولكنه الخ علي ان تفضل بزيارته حالاً وامرني ان لا اعود الا
وانت معي »
قال « اني ذاهب انتظري خارجاً »

فخرج وردان وهو يحاذر ان يراه الافشين لئلا يدرك انه اطلع على شيء من سره ولما
صار بالباب رأى مركبة قد شدد اليها فرسان عليها العدة المذهبة فعلم انها معدة للافشين
والناس قد وقفوا ينظرون اليها وهم يتساءلون عن الضيفين اللذين احتفل بهما المؤبد
هذا الاحتفال

وبعد هنيهة خرج المؤبد فركب في العربة وركب الافشين الى جانبه وهو ملثم و اشار
الى وردان فركب على احد الفرسين وساروا يطلبون قصر المرزبان

الفصل الخامس عشر

التشاكى

تركنا ضرغاماً في انتظار جهان بغرفتها واهل القصر لا يرون باساً من اجتماعهما نظراً
لما يعلمونه من منزلة ضرغام عند مولاهم ولأن جهان لا تحتجب عن الرجال . جلس ضرغام
على كرسي في بعض جوانب الغرفة ولبث في انتظار حبيبته وهو على مثل الحجر وقد هممه
ما شاهده من مرض ابها وتشاءم من ذلك لكن اشتغاله بالشوق لجهان وشدة رغبته في
مقابلتها انسياء كل شاغل

وما عثم ان سمع صوتها بجانب باب الغرفة تكلم المهتر وتوصيه بما امر به ابوها فحقق قلبه

ثم دخلت فلما اقبلت عليه خف للقائها وكلاهما بتسم وقلبه يخفق وقد نسي الدنيا ومصائبها
كانها انتقلا من عالم الشقاء الى عالم الحب مقر السعادة والهناء - واذا اعجز الفلاسفة
تمثيل الفردوس بما يدينه من ادراك البشر فلا يمثل حال المقيمين فيه مثل سعادة حبيبين
تصافيا وصفا لها الزمان وخلا لها الجو فاجتمعا وطفقا يتشاكيان لا يزعمهما رقيب ولا يخامر
قلبيها شك او غيره - تلك هي الجنة لو لا ما ينتابها من القصر او يعرض لاصحابها من
طوارق الحدثنان

فلما رأت جهان حبيبتها واقفاً لاستقبالها هشت له ومدت يدها لمصاحته فمد يده وقبض
على كفها وقلبه يضحك وعيناه تبرقان . واذا كان وهو الشجاع الباسل الذي لا يهاب مواقف
القتال لم يتالك عن الرعدة فكيف هي مها بلغ من رباطة جاشها وتعقلها فانها لا تخرج عن
طبيعة المرأة الحساسة . وفي مثل هذا الموقف عذرة للمحب على ما يتولاه من لوايح الغرام عند
ذلك اللقاء بما يجري في عروقه من المجاري الكهر بائية - وابتداً ضرغام بالكلام قائلاً
« لقد اطلت الغيبة عليك يا سيدتي »

فاجتذبت يدها من يده ونظرت في عينيه نظرة المحب العائب وقالت « لا نقل سيدتي
بل . . . » وتشاغلت عن اتمام الكلام بالقعود وهي تدعوه اليه فقعد كل منهما على كرسي
وادرك هو مرادها فقال « كيف لا ادعوك سيدتي وانت جهان عروس فرغانة و بنت
المرزبان وانا ضرغام اليتيم ابن آفتاب الارملة المسكينة »

فقطعت كلامه قائلة « بل انت سيدي ومولاي . . . ليس لانك رئيس حرس الملك
او قائد جند الخليفة . . . ولكنك سيدي لانك شهم باسل . . . لا . . . ولا هذا ايضاً
يزيدك رفعة في عيني . . . اني اشعر بشيء آخر يعجزني التعبير عنه . اشعر بسلطة لك
علي . . . اذا لم تسعفني بالتعبير عنها كنت حزينة بانسة » قالت ذلك وتوردت وجنتها
وغلب عليها الحياء فعلم انها تعني الحب وان الحياء يمنعها من التصريح فقال « ان العامل
الذي تحسبين ضرغماً المسكين اصبح به سيداً فلا عجب اذا جعل الاميرة جهان الهماً . . .
فانا اذا عبدك يا جهان . . . »

فقالت « قلت لك اني عاجزة عن اداء ما في خاطري او بيان اسبابه وانما اعلم ان
منزلتك عندي لا تعلوها منزلة احد على وجه هذه البسيطة . . . وبهمني الآن ان لا نضيع
الوقت سدّي اذ اخشى ان ياتي الموبد فيدعوني ابي اليه . . . » ولما ذكرت والدها تذكرت
حاله فتهدت ثم استدركت فقالت « ان وقتنا ثمين يا حبيبي . . . يا حبيبي . . . ساعني

إذا دعوتك بهذا اللقب قبل ان تدعوني انت به . . . آه من سلطان الحب »
 فقال وقد هاجت اشجاناه « لا يحق لاحد ان يبدأ بهذا التصريح سواك وقد فعلت
 حتى يكون لك الفضل في كل حال . . . وهل اجسر انا ان ادعوك به قبل ان اسمعه من
 فيك ؟ . . . فاحمد الله على ذلك . . . حق لي الآن ان اسميك حبيبي . . . آه ما اشهى
 هذا اللفظ في فمي وما اسوغه على قلبي . . . ولم كررت في خلواتي ولم تمنيت ان اسمعه من
 فيك . . . وقد سمعته . . . فهل في العالم رجل اسعد مني ؟ . . . »

فتشاغلت باصلاح شعرها واطرقت وهو لا يحول نظره عنها وكأنه بهم ان يضمها
 بجفنيه تهيئاً من ان يقبض عليها بذراعيه فلما رآها مطرقة وقد بدا الاهتمام في محياها اختلج
 قلبه في صدره وتوهم انها ستخطف من بين يديه فقال « ما بالك مطرقة يا حبيبي . . .
 جهان ما بالك ؟ »

فرفعت بصرها اليه وابتسمت وقد فهمت ما خالج خاطره وقالت « لا تذهب بك
 المخاوف الى مكان بعيد . . . اني لم اسمك بذلك الاسم وانا اخاف احداً او اخشى باساً
 ولا سيما بعد ان آنت من والدي ما آنته من الارتياح لك والتعلق بك . . . ولولا
 مرضه . . . آه لولا مرضه . . . » وسكتت

فقال « ارجو ان يشفي قريباً » ومكث وعيناه تتفرسان في عينيها وكل منهما يقرأ
 فكر صاحبه ولعلها قرأت اكثر مما قرأ هو فقالت « ضرغام . . . لا ينبغي ان يغلب
 الضعف على جهان حتى تخفي احساسها عن حبيبها وتحمله على الشك في شيء من امرها .
 قد تعاشرنا اعواماً وعرف كل منا صاحبه حتى امتزجت روحانا فما في الارض قوة تستطيع
 التفريق بيننا واراني غير قادرة على الاستقلال بفكري او حياتي عنك . فانا اشعر انك
 مني وانا منك . فاذا فكرت في شيء رأيت فكري يمر قبل بروزه على تذكارات انت
 قوامها واذا تخيلت حادثة كان خيالك نصب عيني يحول بيني وبينها ولا ترسم في عقلي
 صورة الا وفيها شيء من صورتك . فهل بعد ذلك يستطيع البشر ان يفصلوا بيننا واذا
 استطاعوا التفريق بين هذين الثوبين الباليين فهم عاجزون عن الفصل بين روحينا
 وفكرينا ولكننا متبولون على امر عظيم . . . فاذا تجاوزناه . . . » وسكتت
 وحولت وجهها عنه خشية ان يبدو له ما يتردد في ما قيميا

اما هو فاسكره تعبيرها واعجزه ما رآها فيه على انه لم يفهم مرادها فقال « وما الذي
 يخيفك ؟ . . . لا اعهدك تخافين ولك من تعقلك وثبات جأشك حصن حصين . وهذه

روحي بين يديك ارمي بها من تشائين »

قالت وهي تبدي الاهتمام « سلمت روحك يا ضرغام .. اني لا أخاف شيئاً اذ ليس في الارض قوة تستطيع ان تبعدني عنك ... وكنت أحاذر ان أوانس من والدي تغيراً او فتوراً فذهب حذري اليوم ولكنه مريض . فعساه ان يشفى قريباً »
قال « يشفى باذن الله .. وهل تخافين شيئاً آخر .. »

قالت « اتوقع اموراً كثيرة تخيف غيري ولكنني لا أخافها لاني اعدتها اعراضاً وانت الجوهر فاذا كنت لي فقد ملكت الدنيا وما فيها ... اعذرني على هذا التصريح وخطبني بمثله فاني لا احب التكتّم والتردد .. »

فقال بلهفة وعزم ثابت « تريدن ان اصرح بانني احبك او اني اترك الدنيا لاجلك فهذا لا حاجة بي الى ذكره والظمان لا يُطلب منه الاعتراف بحاجته الى الماء والتمس لا يسأل هل يتمني السعادة . وانا بدونك ظمان بلا ماء وحي بلا سعادة وانت سعادتني وحياتي وانت كل شيء .. »

فبرقت عينها وسرّي عنها وقالت « اذا كان هذا عزمك فهو كل ما ابغيه ... اني اسمع صوت سامان في الدار ... وربما دخل علينا فيقطع حديثنا .. فنحن على هذا العهد وسأغنم ابلال والدي فاخطبه بهذا الشأن ثم اخبرك بما يكون » قالت ذلك وتحفزت للوقوف واذا بخيزران قد دخلت وفي وجهها انقباض ولهفة فنهضت جهان لملاقاتها فابتدرتها خيزران قائلة « ان سامان داخل على مولاي المرزبان »
قالت « وهل انى الموبد معه ؟ »

قالت « كلاً .. »

فهزت رأسها وحرقت اسنانها ثم قالت لها وهي تشير الى ضرغام « هل رأيت ضرغاماً »
قالت وقد علاها الحجل « لم اره يا سيدي .. اعذرني لدخولي بهذه اللفظة فقد شغلت بامر سامان لعلمي ان والدك يستاء من دخوله عليه وقد اوصى ان لا يدخل عليه احد ... » وتحولت الى ضرغام فحيتها باحترام واكبت كأنها تمّ بتقبيل يده «
فردّ التحية وابتسم لها وكأن يستانس بها لعلمه بمحبها لجهان وقال « مالي اراكم تخافون دخول سامان على والده »

قالت جهان « لان والدي تغير عليه امس لاهاله امر الموبد بعد ان انقذه في استقدامه

غير مرة فلم يستقدمه « قالت ذلك وخرجت وهي تقول « استأذنيك في الذهاب الى
والدي لحظة ثم اعود »

الفصل السادس عشر

الخلوة

فلبث ضرغام في مكانه وسارت جهان حتى اتت غرفة والدها فرأت سامان واقفاً
بالباب والحاجب يمنعه من الدخول وهو يحاجه بغضب فحالت بينهما وقالت « ما بالك
يا اخي ؟ »

قال « ان هذا الرجل يمنعني من الدخول على والدي »

قالت « لا تغضب فان والدنا في فراشه وقد امرني بالخروج وادخل المهتر يخاطبه
ببعض الشؤون .. هل رايت الموبد ؟ »

قال « لا .. لم اجده »

قالت « الا تعلم ان رجوعك بدونك يغضب والدنا »

وبينما هما يتحاجان سمعا المرزبان يقول من الداخل « لا تدخلوا علي سامان ..
ادخلي يا جهان »

فالتفتت الى اخيها وابتسمت وقالت له بصوت خافت « اذهب يا اخي الى الايوان ولا
تكدر والدنا وسأعود اليك حالاً فلم يسمعه الا الطاعة فتحول ودخلت هي فوجدت القيم
جائياً بين يدي والدها وامامه اوراق ودفاتر وقلم ودواة ورأت والدها جالسا في السرير
وقد تغير وجهه وبدا الاهتمام في عينيه فلما دخلت رفع بصره اليها وابتسم لها رغم ما يملوه
من الغضب فبشت له ودنت منه فقبلت يده وقالت « كيف تشعر الآن يا ابتاه ؟ ارجو
ان تكون مرتاحاً »

فضمها اليه وقبلها وشمها واطال معانقتها حتى احست بدمعة حارة سقطت على عنقها
فاقشمت بدنهما وما صدقت انه اطلقها من بين يديه حتى نظرت في وجهه فرأت الدمع في
عينيه فأثر منظره فيها وكأنه خاف على عواطفها فقال وهو يتكافئ الالبسام « انني في
خير .. لا تخافي .. ساعمل كل شيء في سبيل راحتك .. اجلسي » وأشار الى القيم

فخرج واغلق الباب فاعادت نظرها الى ما بين يدي والدها من الاوراق والدفاتر ولم تستحسن ان تساله عنها

اما هو فتعاب و اشار اليها ان تساعده على التوسد فاعانته فاستلقى وانكأ على الوسادة وقال « قد علمت ان اخاك سامان عاد هذه المرة ايضاً وحده . . . فانه لا يري له مصلحة باستقدام الموبند . . . لا باس من ذلك . »

فقالت « ان ضرغماً انفذ خادمه في استقدامه ولا يلبث ان ياتي كن مطمئنا . »
وقد ذكرت ضرغماً عمداً لترى ما يبدو من والدها
قال « ان ضرغماً رجل كريم النفس وقد سررت بلقياه وهو جدير ان يكون اخاً لك وليس سامان الشرير »

فسرها اطناب والده بحبيبتها وهمت ان تفتاحه بشانه واذا بالحاجب قد دخل وهو يقول « ان الموبند بالباب ومعه الافشين »

فلما سمع اسم الافشين اشرق وجهه وبغت وقال « والافشين ايضاً ؟ »
قال « نعم يا سيدي »

اما جهان فلما سمعت اسم الافشين انقلب فرحها الى انقباض ووقفت عن غير عمد منها كأنها تحاول الفرار من رؤية ذلك الرجل ولكنها تجلجت ووقفت تمتظر امر والدها فاذا هو يقول لها « لا باس من بقائك هنا اذا شئت والا فلك الخيار »
قالت « اذن لي في الخروج »

قال « امرجي وكوفي مطمئنة » فخرجت من باب سري في تلك الغرفة ثم التفت المرزبان الى الحاجب وقال « يدخل الموبند والافشين »
فدخل الموبند والافشين وراءه وتحول الموبند أولاً الى الضم فوقف بازائه وتمتم وانحنى وفعل الافشين نحو ذلك

فاشار المرزبان اليهما بالجلوس فجلسا والمرزبان يرحب بهما ووجه كلامه الى الافشين قائلاً « لقد ابطت عليّ حتى اشتد شوقي اليك »

فقال وهو يحك ذقنه وقد شاب معظمها لانه كان في نحو سن المرزبان « وقد كنت في شاغل خصوصي ولم اصل الى فرغانة الا اليوم وفي حال وصولي اتيت اليك . كيف انت . . »

قال « اني كما ترى . وقد جيئت في ابان الحاجة اليك » ثم التفت الى الموبند وقال

مع الاحترام « ارسلت في طلبك غير مرة فلم تأت »

قال « لم يأتي احد قبل الآن »

قال « ارسلت اليك ابني سامان امس واليوم فقال انه لم يجده في كاران تشاه »
فاستغرب الموبد كلامه وقال « اني لم افارق المعبد منذ ثلاثة ايام بسبب المهرجان
وتقاطر الناس الى فرغانة للاقتباس وايفاء الندور . . . وكيف تدعوني اليك ولا احضر؟
بل كيف يسأل عني في المعبد ولا يجبروني . . . لا شك ان ولدنا سامان لم يسأل عني او
لعله سال غير العارفين »

فحرق المرزبان اسنانه غيظاً وقال « بل هو لم يسأل عنك . . . ولا ادري غرضه
من ذلك او لعلي ادري ولا اقول . . . وفي كل حال فقد آن وقت المكافأة . . . وهذا
اخى الافشين شاهد » ثم صفق فدخل الحاجب فقال له « لا تأذن لاحد من الناس اياً
كان ان يدخل علينا واذا سألك احد الاستئذان . . . فلا تستاذن اغلق الباب وراءك »
فاشار الحاجب مطيحاً وخرج واغلق عليهم الباب

الفصل السابع عشر

الوداع

اما جهان فغادرت الغرفة ورجلاها تصطكان انفعالا من رؤية الافشين بعد ان
رأت اهتمام والدها باعداد الورق والدواة والقلم وسارت تورا الى ضرغام فرأته واقفاً بالايوان
وحده فخالما وقع بصرها عليه سري عنها ونسيت هواجسها وكانت تفكر باخيها وتنوي الاستفهام
عنه فانساها ضرغام كل شيء

اما هو فخالما رآها مقبلة تحوّل نحوها وسألها عن حال ابيها
فقلت « انه احسن حالا من الصباح وقد ذكرك ذكراً حسناً وقال انه كان يفتني
ان تكون انت في مكان اخي سامان . . . ولكنك ستكون فوق مكانه » قالت ذلك
ونظرت اليه نظرة اغنته عن شرح كثير
فقال لها وعيناه تضحكان « اشكرك على حسن ظنك يا جهان . . . وكيف تركت
والدك الآن ؟ »

فتنهدت ثم قالت « ألم تعلم بمجيء الافشين والموبذ ؟ »
قال « هل اتيا ٠٠٠؟ والافشين ايضاً ؟ اني لم اشاهد وردان بعد »
قالت « نعم اتيا معاً ٠٠ هذا الذي كنت اتخوفه ٠٠ ولكن لا بأس الآن . طالما
كان ابي احسن حالاً »
قال « واين هما ؟ »
قالت « هما عند والدي وقد طلب الخلوة بهما وخيرني بين البقاء معهم والخروج
ففضلت الخروج للتخلص من رؤيتهما ولكي اشاهد حبيبي ضرغاماً »
قال « هما اذاً في خلوة معه واظن هذه الخلوة ستطول فهل تأذنين بانصرافي ثم اعود
اليك بعد هنيئة ؟ »
قالت « الى اين تنصرف وتتركني ؟ »
قال « اذا شئت بقيت طوع ارادتك ولكنني اذا ذهبت لا أطيل الغياب »
قالت « اذهب بحراسة اورمزد ولا تبطي »
فلما سمعها تذكر اورمزد قال « لقد اذكرتني شيئاً لا بأس من سؤالك عنه فهل اقول ؟ »
فتفرست في عينيه فقرأت فكره وقالت « اظنك ستسألني عن اورمزد وانت تدين
بسواه اليس كذلك ؟ »
فدهش لفراستها وقال « نعم ٠٠ هذا سؤالي »
قالت « اني اكون طوع ارادتك ادين بما تدين به لاني لا احب فراقك في الدنيا
ولا في الآخرة »
فاجب لتعلقها به فابتسم ثم قال « ولي سؤال آخر »
قالت « قل ما بدالك »
قال « انت تعلمين تعلق والدتي بالاقامة في العراق لسرّ لاعلمه »
فقطعت كلامه وقالت « اني اكون حيث تشاء انت فان الدنيا كلها حيث تقيم ولا
يهمني شيء مما لنا في فرغانة او غيرها »
فقال « قد نلت الآن ما اتناه وقبضت على السعادة بيدي فهل تأذنين بانصرافي
لأرى الوفد الذين صحبتهم فادبر سبيلاً للتخلص من صحبتهم ثم آتي اليك ؟ »
قالت « اذهب بحراسة الله ٠٠ ها اني قد جاريتك منذ الآن ، فضحك وودعها
وخرج بعد ان بعث من يستقدم وردان

الفصل الثامن عشر

الاحتضار

فلما رأته خارجاً تخيلت قلبها يتحفر للذهب في اثره فتماسكت واسترجعت رشدها وفكرت في ما هي فيه من اسباب القلق والاضطراب لمرض ابها واذا مات اصبحت يتيمة ليس لها الا اخوها وهي لا تستخلصه ولا تعول عليه • ولما ذكرت والدها تذكرت خلوته بالموبد والافشين فحفر قلبها خوفاً من تلك الخلوة وقام في ذهنها هواجس كثيرة ومخاوف شتى لما تعلمه من مطامع الموبدان ودسائسهم وقد اصبحوا بعد ذهاب دهشة الدين وتحول الكهانة الى مرتزق لاهم لهم الا جمع الاموال باية وسيلة كانت ويسهل عليهم ذلك بما تعودوه من غسل السيئات بالصلوات • والعقائد اذا تقادم عهدا وتولاها اهل المطامع تطرق اليها الفساد واصبحت شراً على الناس من الكفر حتى يقوم من يقومها وينقيها • ولم تكن جهان شديدة التعلق باذيال الكهنوت لما كانت تكشفه بفراسيتها من نواياهم وخفاياهم وانما كانت تدين بالزردشية • ذهب ابها على غير تفهم او نقد لانها ولدت فيها فشبث عليها كما شبث على سائر عاداتها واخلاقها — شأن السواد الاعظم من العامة فانهم يدينون بما يلقونه من صغرهم واذا كبروا وثقفوا ودلهم العلم على مظنة للتقدم فيه اغتفروها في جانب ما غرس في قلوبهم وعقولهم من مبادئه فاصبح الدين كالجنس يغضب له المرء وينصره غيره وحمية كما ينصر عرضه ويندب على حياضه ولو لم يعتقد صيانتته على انها كانت تنظر الى الموبدان وامثالهم نظر المستخف بما يقولونه ويزعمونه فلم تكن تحذرهم لاعتقادها عجزهم عن غير ما تتوق اليه نفوسهم من الكسب المالي • فلم يكن احتلاء الموبد بابها بهمها لو لم يكن الافشين معه وهي تكرهه عفواً بلاسبب ظاهر • وخافه لانه ملك ذوا عوان وجند • وكان ابوها يحترمه ويعول عليه على انها وهي في تلك الهواجس وقع نظرها على بساط في تلك الغرفة رأت في جملة ما عليه من الرسوم المزركشة صورة اسد رابض عيناه شرارتان فتحمست وتذكرت حبيبها لان اسمه من اسماء الاسد • فلما تذكرته ذهبت مخاوفها وهان عليها كل شيء تحذره او تخشاه اذا كان حبيبها بقرها وهي غارقة في هذه الهواجس سمعت وقع اقدام عرفت انها خطوات خيزران القمر مائة فحفر قلبها توقفاً لخبر تسمعه فلما اقبلت عليها حيتها وقالت • ان سيدي المرزبان

يدعوك اليه . . . لكن تجلدي يا جهان مثل عهدي بك . . . »

فلما سمعت تحذيرها اوجست خيفة ولم تسألها عن سبب ذلك التحذير اعتماداً على قدرتها في تحمل الصدمات . واكبرت ان تبدي لهفتها فمشت مسرعة وقبل وصولها الغرفة تذكرت انها ستري فيها الموبذ والافشين فانتبضت نفسها ولكنها ظلت سائرة حتى وصلت باب الغرفة فوسع لها الحاجب فدخلت وعيناها متجهتان نحو سرير والدها . فرأته مستلقياً وعيناه شاخصتان نحو الباب وقد غشيها الدمع وتكسرت اهدايبها من كثرة البكاء . وحالما وقع بصره عليها ابتسم ابتسامة لا حياة فيها ولولا يريق تينك العينين وما يتجلى فيهما من الحنو والمحبة لظننه ميتاً . فتألمت ودنت من السرير لانتفت الى ما بين يديه كأنها تراه في خلوة . اما هو فلما رآها احسّ بنشاط جديد فبسط ذراعيه وفتح فاه ليخاطبها او يرحب بها فامتنع عليه النطق فاكتفت بحركة شفثيه وترامت على صدره ولولا ثبات جأشها لاغمي عليها لانها تحققت في تلك اللحظة انها لا تلبث ان تصير يتيمة وحيدة ومع ذلك فانها غلبت على تعقلها لانها امسكت بذراعي ذلك المحتضر ونظرت في وجهه نظرة الاستعطاف كأنها تتوسل اليه ان لا يتركها فسبقتها العبرات وبكت وهي تمسك انفاسها لئلا يسمع شهيقها واطرقت لئلا تظهر دموعها

اما هو فلم يفته ما خامر قلبها من الحزن والخوف واراد تعزيتها فعصاه النطق ولم يزد عن ان حرك شفثيه واخرج صوتاً يشبه الهينمة وحوّل نظره وأشار بيده نحو الافشين والموبذ . فالتفتت فرأت الافشين جالساً وفي يده لفافة من الورق فلما رآها تنظر اليه بعد اشارة والدها أراها اللفافة وابتسم لها ابتسامة التعزية وكان الموبذ واقفاً بجانب التمثال يصلي ويتضرع فالتفت اليها وهو يظهر الاسف والحزن على حال المرزبان . ففهمت جهان خلاصة ماتم في تلك الخلوة وهو ما كانت تخوفه وتحذر الوقوع فيه . علي ان اشتغال خاطرها بحال والدها شغلها عن التفكير بسواه . واعادت النظر الى ذلك المريض وصاحت « ابي كيف انت ؟ انك في خير . . . »

فاراد ان يجيبها ويظمنها والحشرجة تمنعه من الكلام فاحست ان استلقاها على صدره يضائقه فجلست بجانبه وقبضت على يده واذا هي مكسوة بعرق بارد فكادت تصيح وتولول لانها تحققت ان والدها في آخر ساعات الدنيا وتجلدت لكنها لم تستطع امسك دموعها فاطرقت والدمع يتساقط على خديها وقد زادها احتباس العواطف تورداً وزاد عينيها بريقاً . واما والدها فان سرعة تنفسه وخرير صدره ودنوا اجله لم تفقده شيئاً من

رشده ولا انسته ابنته الحبيبة وودّ لو يطلق لسانه ليقول كلمة او كلمات تطمئنّها وتعزّيها
ولكنه غلب على امره مع ما ظهر من مجاهدته في محاولة الكلام والضعف يمنعه . فلما تحقق
عجزه عن تعزّيها اشار اليها ان تخرج ونظّاه انه يريد الرقاد فوقفت وهي ترتعد وركبتاها
تصطبان لان تدري اتطيع والدها ام تبقى بين يديه نتودع من رؤيته
ثم راته يزداد حشرجة وملاّلاً وبدير راسه ويتلفت كأنه يحاول النهوض ولا بقوى
عليه واخيراً وجه نظره الى جهن وشخص بصره فيها فتفرست في عينيه فرات ماءها
جف وزهب منها بصيص الحياة وكأنه بهم ان يبسط يديه نحوها فلم ترتفعا الا قليلاً ثم
شبهق شهقة اجفل لها الحضور وهي آخر انفاسه وارخي يديه وقد سكن صدره وهمد جسمه
واظلمت عيناه وتراخت اجفانه وبرز انفه ووجنتاه واصفرّت اصفرار الموت وقد تنبش شعر
لحيته وراسه حتى اصبح منظره مرعباً . فلم تعد جهن تجاذر شيئاً فصاحت « ووالداه »
وحلت شعرها ولطمت وجهها وتسامع اهل القصر صوتها وبلغ الخبر الى القهرمانه فركضت
واخذت بيد جهن وجعلت تحنّف عنها وهي قبكي وتندب لا يعزّيها كلام ولا يخفي عليها
ما يقال في مثل هذه الحال من عبارات التعزية وهي لا تشفي غليلاً

الفصل التاسع عشر

المآثم

ولما قضى الامر اخذ اهل القصر في اعداد المآثم على جاري العادة عند المجوس ففسلوا
الجثة والبسوها ثوباً ابيض ووضعوها على دكة في غرفة كبيرة افرغوها من الاثاث وجلس
الاخصاء يندبون والموبد يصلي ويدعو وهم يؤمّنون ويستغفرون . وبعد هنيهة جاء
سامان وكان غائباً عن البيت واخذ بندب والده وبعده فضائله والناس يخفّفون عنه . واما
جهن فبعد ان اطاعت قلبها ساعة الوفاة رجعت الى تعقلها فغلب عليها السكوت واعمال
الفكرة - وما الذي كانت تفكر فيه ساعتئذ ؟ انها كانت تفكر في مصدر تعزّيها الوحيد وهو
ضرغام اذ لا تزجو تعزية من غير طريق القلب . فكانت وهي في تلك الحال تسترق اللحظ
لعلها تجد ضرغاماً قادماً فتنعزّي بروؤيته اذا لم يؤذن لها بمجديته
واذا هي بالموبد يشير اليها بالخروج الى غرفة اخرى ومشى فتمعنته وهي مطأطئة

الرأس من الحزن وتبعها سامان فلما خلا الموبذ بها قال « لا ينبغي لكما ان تبالغا بالحزن على اخينا الراحل فان اورمزد معه لانه كان رجلاً تقياً محسناً وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة ايام ونجعل وقودها الند والصندل . ولا يخفى عليكما ان روح والدكما لم تفارق هذا المكان بعد ولا تفارقه الا بعد ثلاثة ايام فلا تحزناها بالبكاء والنوح . وقد اوصى والدكما بتفريق الحسنات والمبرات وهو لا ريب عندي من اهل النعيم . ولذلك فان روحه بعد ان تقضي ثلاث ليالٍ حول الجثة تصعد الى الاماكن المباركة فتلاقي ضميره بشكل حورية تقص عليه اعماله الحسنة وتقوده الى النور الابدي . ومع ذلك فاننا سنوالي الصلاة عن نفسه طول السنة فلا تجزعا . . . ولكن لا بد لي من ابلاغكما وصيته عن دفته »

وكانت جهن تسمع وهي مطرقة لتلقى دموعها بمنديلها فلما قال ذلك رفعت بصرها اليه وفي عينيها ملامح الاستفهام فقال « قد اوصى ان ندفنه في برج السكوت »



برج السكوت

فلما قال ذلك بانث البغثة على وجه الفتاة واخيها وقالت « كيف ذلك ؟ وانما يدفن في برج السكوت عامة الناس والفقراء ومثل والدي يدفن في حجرة خاصة »

قال « نعم ولكنه اوصى بدفنه هناك واسرّ اليّ السبب الذي بعثه على ذلك ولا اقدر ان ابوح به »

فاكتفت بقوله وسكتت اما سامان فلم يسكت فقال « كيف ندفن ابانا المرزبان في

برج السكوت وانت تعلم انه مدفن الادياء توضع فيه الاجساد على احجار تعرض للهواء وتذهب طعاماً للنسور والكواسر لا يبقى منها ولا العظام لولا انهم يشدونها الى الحجر بالحبال او السلاسل . ثم تطرح تلك البقايا في البئر العميقة بوسط البرج فتختلط بعظام الطغام والمجرمين و اننا نريد حفظ آثار والدنا في حجرة خاصة »

فاستغرب الموبذ اعتراضه ولم يعره التفاتاً وانما قال له « هذه وصية الفقيد بحضور مولانا الافشين وقد دونها بوصيته التي سنتلى عليكم بعد بضعة ايام » قال ذلك وتحول الى قيم القصر فاوصاه بما ينبغي اعداده للدفن مما يطول شرحه . اما سامان فغضب لاحتقار الموبذ اعتراضه واصبح في شوق للاطلاع على الوصية التي اشار اليها

قضى القوم بضعة ايام في الماتم وتوابعه من رسوم وتعازير ومحرفات واحسانات وصلوات وجهان فتوقع رجوع ضرغام وهو تعزيتها الوحيدة فشغل بالها ابطاؤه وزادها حزناً مع علمها انه في شاغل قد يعيقه عنها عدة اسابيع . ولكن المحب كثير القلق سريع التخوف . على انها نست من اخيها سامان تقرباً وتلفظاً لم تعهدهما فيه قبلاً . فلم يعد يفارقها لحظة وكما رآها تنتخب خفف عنها . ولم يكن غافلاً عن تعلقها بضرغام وان لم يفاتحها بشأنه من قبل فاكثر من ذكره في تلك الاثناء وبالغ في الثناء عليه مع انه كثيراً ما كان يحسن لها القبول بسواه ولا سيما بابك الخرمي فقد ذكره لها ورأى تمنعها فلامها . اما يومئذ فاخذ يجارمها في هوى نفسها ومع كونه اجروداً لا يعرف الحب ولا يشعر بجواذب المحبين فقد ساعده ذكاؤه ودهاؤه على معرفة تلك النقطة الضعيفة فيهم

واما جهان مع فراستها وسوء ظننها باخيها فانها كانت تلتذ بمجديته ويسرّها انه يجب حبيبها ويعجب بمنافيه وبسالته وخصوصاً لان اخاها اقرب من تستشير به بامرته بعد موت ابها وان كانت لا تهتم برأيه لو خالفها . ولكنها استأنست به واخذت تناسي ما كانت تعهده من نقائصه او تخافه من مطامعه . ذلك هو سلطان الحب فانه يعمي ويصم وصاحبه مها أوتي من الحكمة والتعقل اذا وقع في شراكه قد يبقى حكيماً في كل شيء وقد يعد من كبار اهل الدهاء والسياسة او من كبار العلماء او الشعراء او الفلاسفة ويبقى داهية في كل أمر الا من حيث حبيبه او ما يتعلق به فانه يكون كالطفل يقاد بخيط وقد يغلب عليه الوهم في بعض الاحوال حتى يصدق المستحيل ويعتقد الخرافات اذا كان في ذلك التصديق وهذا الاعتقاد ما يسهل عليه امنية او يطمئن له خاطرًا - كالوالد الحنون مها بلغ من انكاره المعجزات وتكذيبه الخرافات اذا مرض ابنه ونفدت فيه حيل الاطباء قادته رغبته في شفائه

الى تصديق وصفات الدجالين او تعزيم المنجمين . اذا وصفوا له تعويذة يزعمون ان
تعلقها بعنق الغلام او شرب ماءها او غير ذلك يشفيه عمل بتدجيلهم وتناسي علمه وحكمته

الفصل العشرون

الوصية

وكان الموبذ والافشين يترددان على قصر المرزبان في اثناء المأتم للقيام بالواجبات
وسامان في شوق شديد الى الاطلاع على وصية والده فبعد انقضاء المأتم جاء الموبذ وطلب
الاختلاء بجهان واخيها فلما اخنلوا اخرج من جيبه اسطوانة من فضة فتحها واستخرج منها



الموبذ ويده الدرج الملفوف

درجاً ملفوفاً وهو يقول « هذه هي وصية الوالد التي عهد بها الى مولانا الافشين بحضوري »
والتفت الى جهان وهو يقول « والحق يقال ان والدك قد احسن الاختيار بالقاء مقاليد

الوصاية الى صديقه الافشين »

فاصخت جهان بسمها وسامان جامد لا يتحرك . ففتح الموبذ الدرج وقال « وقد اوصاني مولانا الافشين ان ابغلكما الوصية ثم ادفعها اليه فاسمعاها وتفهماها » واخذ يتلو :

« هذا ما عهد به المرزبان طهماز في فرغانة وهو في آخر يوم من ايام الحياة الى الملك الافشين حيدر بن كاووس صاحب اشروسنة وقائد جند المعتصم بحضور الموبذ صاحب بيت كاران شاه وبمعونة اورمزد العظيم . في اليوم العاشر من شهر خرداد ماه من السنة للاسكندر . فلمرزبان طهماز يعهد الى الافشين حيدر بن كاووس ملك اشروسنة وقائد جند المعتصم ان يكون وصياً على اهله من بعده يتصرف بما خلفه من مال وعقار تصرف الوصي المطلق بما يعود على الورثة بالخير بمقتضى نص هذه الوصية . ولم يخلف المرزبان طهماز من الورثة الشرعيين الا ولدين شاباً هو سامان وشابة هي جهان . وقد اوصى بما يملكه جميعه لابنته جهان وحدها فهي الورثة للقصر بما فيه والعقارات واهلها وما معهم من ماشية ودواب وهاكل ما خلفه من جارية ورقيق واثاث ومصاغ وآنية ونقد . يكون ذلك كله ملكها بشرط إشراف صديقنا الافشين عليه وتديره بما يلهمه اورمزد اليه من اسباب النفع لها . اما ولدنا سامان فانه محروم من هذا الميراث كله لا يصير اليه منه مال ولا عقار الا ما يكفي لمعيشته على ما يقدره الوصي . واما سبب حرمانى اياه فيؤلمني تدوينه بهذه الوصية ولكن حتى لا يبقى مجهولاً وينهب معي الى القبر فقد قصصه على الوصي بحضور الموبذ ويبقى مكتوماً عندهما الى حين الحاجة . هذه وصيتي كتبت امامي وقد صدرتها وختمتها بتوقيعي . وشهد فيها الموبذ ومن اخذ بحرف منها كان ملعوناً خمسين لعنة . وقد فعلت كل ذلك باختياري وانا في سلامة العقل وأوصيت ايضاً ان ادفن بعد موتي في برج السكوت في ضاحية فرغانة وتترك جثتي طعاماً للكواسر . واورمزد يتولى القيام بهذه الوصية ويغين صديقي الافشين على العمل بها »

(التوقيع)

وكان الموبذ يقرأ والاثنان صامتان حتى بلغ الى حرمان سامان من الارث فتغير وجه الشاب وامتعق لونه ولكنه تجلد وكظم حتى فرغ الموبذ من تلاوة الوصية فقال له « كيف احرمني والذي من حقني وانا ابنه الوحيد؟ . هذا لا يكون ابداً . انا وارث اسم ابي ولقبه واما العقار فلي ولاختي جهان . . . »

فقال الموبذ « قد قرأت عليكما الوصية ولا سبيل الى غير ما فيها والرأي في كل

حال عائد الى الافشين . . . وقد فرغت من رساتي فأذنا اي بالانصراف وسياتي الافشين
فيتولى العمل بالوصية والدولة تساعده على تنفيذها بالقوة . فانصح لك يا ولدي سامان ان
تصبر على ما نالك من امر والدك » قال ذلك وخرج مسرعاً وخرج سامان لتشييعه الى
سلم الايوان . فلما ودعه ونزل الحديقة وقف سامان ينظر اليه ويحرق اسنانه ويقول في
نفسه « هذا ما كنت اخافه من مجيئك يا موبذ النحس كم ارسلني والذي بطلبك وانا
اماطله واحتمال في تاخير قدمك خوفاً من مثل هذه الوصية لاني كنت شاعراً بما في
نفس والذي علي . . . نعم انا اعرف سبب غضبه وكنت اظنه لا يعلم به ولكن ذلك
لا يجرمني من حقني في الميراث . . . صدقت يا موبذ ان الامر راجع الى الافشين اللعين
وهذا اطمع من فلحس ولعله سعى في الوصاية ليستولي على التركة لنفسه ويجرمنا منها
جميعاً . . . آه لو كانت جهان تطاوعني لكننا نكيد له كيداً عظيماً ولكنها شديدة التمسك
بما يسمونه شرف النفس والاريجية . . . لكنني ساكيد لكم جميعاً » وكان يناجي نفسه
بهذه الخواطر وهو ينظر الى الموبذ وقد خرج من الحديقة وركب فرسه وسار في سبيله
فرجع سامان الى اخته

اما جهان فقد شق عليها اولاً ان يكون الافشين وصياً عليها ولكنها عوتت على استخدام
تعقلها في ذلك . . . ثم شق عليها حرمان اخيها من حصته بالارث واشفقت عليه فلما عاد
من وداع الموبذ ابتسمت له وهي تقول « طب نفساً يا اخي انك لا تلاقى ضيماً وانا في قيد
الحياة . وهب ان والذي حرملك من الاستيلاء على الاموال والعقار فانا اعوض عليك
ذلك وانت اخي الوحيد فلا ادعك الاً راضياً »

وكان يسمع كلامها وهو مطرق وقد لوى عنقه تذلاً ومسكنة فلما فرغت من قولها
رفع بصره والدمع في عينيه وقال « لم يستني حرمانني من الارث بقدر ما ساءني سببه
فاي ذنب ارتكبته حتى اعامل هذه المعاملة ؟ »

قالت « لا اعلم السبب ولا يعلمه احد الا الافشين والموبذ وربما عرفناه في فرصة
اخرى كن مطمئناً ان الافشين لا يلبث ان يسافر الى بغداد ونبتي نحن هنا والمال بين
ايدينا نتصرف به كما نشاء »

فانثني على حبها وكظم ما في نفسه وشق عليه ان يطلع الافشين والموبذ على سبب
حرمانه فسكت وهو يبلع ريقه ويمح ذقنه ولا شعر فيها . وقعد وهو غارق في بحار الوساوس
والهواجس وفكره يشتغل بتدبير المكائد ونصب الحبائل وخاف ان تنتبه اخته لما في خاطره

فشغلها بذكر ضرغام قائلاً « لقد ابطأ علينا البطل ضرغام . ولا بد لتغيبه من سبب قهري »
فانسأها ذكره ما كانت فيه وقالت « يظهر انه بعيد عن فرغانة ولو كان فيها او قريباً
منها لما فاته خبر المصيبة التي اصابتنا ولا يلبث ان يعود »
فقال « لو كان هنا خلفت المصيبة علينا . . اني استأنس بطلمته . . لقد سموه ضرغاماً
وهو كالضرغام وكم فيه من خصال ومناقب تندر في سواه . . »
فوقع ذلك الاطراء في نفس جهان وقوع الماء من الظمان ومع علمها ان اخاها
يقول ذلك مجاملة ومسايرة فقد انشرح صدرها لسماعه واخذت تغالط نفسها وتبرهن في
سرّها ان سامان يجب ضرغاماً وانها كانت مخطئة في زعمها الاول . وافاضت بالحديث
ثم انقلبت منه الى سواه تنزيهاً له عن الابتدال ولنفسها عن مظنة الخفة

الفصل الحادي والعشرون

الوداع

و بينا هما في الحديث انت القهرمانه تنبيء سيدتها مجييء ضرغام تخفق قلبها ونسيت
حزنها لكنها ما لبثت ان وقع بصرها عليه حتى تذكرت اعجاب والدها به وما كانت تنوقه
من السعادة لوبقي حياً فبكت ولم تستطع مع ذلك غير الابتسام لحبيبها فآثر منظرها فيه
فخيماها واخذ في تعزيتها فعادت الى حزنها فبكت . وتحول نحو سامان وعزاه فقال سامان
« ان لنا بيقائك تعزية كبرى وهذا هو حال الدنيا »

وتحولت جهان الى الغرفة فتبعها ضرغام وهو بلباس السفر فدعته الى الجاوس فجلسوا
وهي تقول « لقد كانت مصيبتنا مضاعفة لغيابك يا ضرغام »

قال « كنت في مكان بعيد اضطررت للذهاب اليه تعجلاً للفراغ من المهمة التي
جئت من اجلها لا تفرغ لك ولكن . . . »

قالت « وما ذا جرى ؟ »

قال « لم يجر شيء ولكنني تناولت امرًا من الخليفة يستعجلني بالرجوع »

فاطرفت ثم قالت « ان سفرك يسوءني كثيراً ولكنني . . »

فقطع كلامها قائلاً « ولكنني سأتقي في فرغانة لان فيها قايي وعثلي وكل جوارحي »

بالقهر مائة انت مسرعة وهي تقول « سيدتي .. انت هنا ؟ »

قالت « ما وراءك ؟ »

قالت « جاء .. جاء الافشين يا سيدتي وهو يطلب مقابلتك »

لم تستغرب جهان ذلك الخبر لانها كانت تنظره بل هي فرحت بقدومه لتمتطع غرضه وتدبر وسيلة للنجاة من وصايته . فهضت وهي تقول « اين هو ؟ »

قالت « هو في الايوان ينتظر قدومك »

فمشت مشبة الوقار والجلال كأنها ملك تحف به الاعوان لا تبالي بما تستسمعه او تقوله لاعتمادها على قوة جناحتها وعزة نفسها . حتى انت القصر وصعدت الدرجات المؤدية الى الايوان وهي تتشغل بمخاطبة القهر مائة في شؤون لا اهمية لها مبالغة بعدم المبالاة حتى اطلت على باب الايوان فرأت الافشين جالساً بصدرة . فلما رآها خف لاستقبالها ومشى لملاقاتها وهو يومئذ في نحو الستين من عمره وقد شابت لحيته ولكنه كان يخضها خرساً على مظاهر الشباب . وكان طويل القامة كبير العينين مستطيل الوجه والعنق وقد تجعد جبينه وبرزت وجنتاه وعلى راسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة من الخبز الموشى وقد لبس قباءً بني اللون تظهر السراويل من تحته ترف على قدميه وفوق القباء جبة سوداء وقد بمنطق تحتها بمنطقة مرصعة علق بها سيفاً قبضته مرصعة ومشى لملاقاتها مشية معجب بمنصبه عارف بمقامه يحسب الترحيب بجهان تلفظاً او تنازلاً . فلما دنا منها ابتسم وقال « مرحباً بعروس فرغانة . كيف تجدين نفسك اليوم » ومد يده لمصافحتها فمدت يدها فقبض عليها وتباطأ في الافراج عنها فاقشعر بدننها واحسنت بنفور دلهما عليه قلبها ولكنها اجابته على سؤاله فائلة « اني في خير تفضل اجلس »

فتناقل في الجلوس ريثما جلست هي على كرسي وجلس هو على كرسي امامها وعيناه لا تحو لان عن وجهها وتوسمت في عينيه معاني زادتها نفوراً منه فاطرقت حياءً ونرفعاً فحمل ذلك منها محمل الحزن فقال لها « ان المصيبة التي اصابتك كبيرة يا عزيزتي لان موت والدك رحمه الله خسارة لا تعوض وانت تعلمين ما كان بيننا من صلوات المودة ويؤك ذلك ذلك انه قد وكل الي الاهتمام بشؤونك بعده . . . ولم يفعل ذلك طبعاً الا لعلمه بمنزلتك عندي . . . الم تسمعي ذلك منه في حياته . . . الم يقل لك كم انا معجب بتعملك وذكائك »

فاستغربت دخوله في الحديث على هذه الصورة ولكنها سا برته فقالت « كثيراً ما سمعت والدي يذكرك مودتك ورفعة مقامك . . . والافشين صاحب اشهر سنة مشهور ليس في فرغانة

ولا اشروسنة من لا يعرف باسمه ويسمع باعماله «
فاجبته اطراؤها وجرأه على التقدم خطوة اخرى نحو الغرض الذي طالما كتمته فقال
« لم اسألك هذا السؤال لاسمع اطراءك ومدحك وانما اردت سماع الجواب على سؤالي ..
الم تسمعي من والدك عما لك من المنزلة عندي ؟ »

فلم يفتها ما يعنيه او ما بضمه ولكنها ظلت على تجاهلها فقالت « لا اذكر اني سمعت
شيئاً من ذلك .. ولا اظنك احسنت الظن بي الا لانك تعدني من بعض اولادك كما تعد
والدي اخاك فاشكرك على هذا الاحساس .. واذا كنت حسن الاعتقاد بي اتقدم اليك
بطلب ارجو ان تجيبني اليه .. »
قال « وما هو »

قالت « رأيتك تعنقد تعقلي وذكائي وان كنت لا اسحق هذا الاعتقاد فاذا كنت
تري في تعقلا فما معنى الوصاية علي ؟ »

فضحك وقال « ان الوصاية يا عزيزتي لانسلبك شيئاً من هذه الخلال .. »
فقالت « انك ملك وقائد ولك من المهام والاعمال ما يشغلك عن الاهتمام بمثلي وانت
مقيم في العراق وانا في فرغانة فهل توافقني على القاء اثقال الوصاية عنك ؟ »
فاجاب مسرعاً بلا تردد « كلا .. كلا . اني لا استطيع ان اخالف وصية والدك
ولو مها جرت من المشاغل علي .. ولا ثقلة عندي بخدمتك وهي امنية طالما تمتتها . كوني
مطمئنة من هذا القبيل . واما البعد بين العراق وفرغانة فملا فانه سهلة علي فاما ان تنتقلي الى
العراق او انتقل انا الى فرغانة . ولا بد من ان نكون معاً في كل حال .. »
فتحققت غرضه ولكنها لم تشأ ان تفهم مراده فقالت « لا اري باعثة على هذا الارتباط
يا مولاي »

فقال وهو يستعطفها « لا تقولي مولاي .. »

فقالت « يا ابتي او يا عمه كما تشاء . اني لا اري داعياً لهذا الارتباط »

فاقطن حاجبيه وهو يتسم وقرب كرسيه من كرسيا كانه يداعبها وقال « ان قولك
يا عمه يسوءني اكثر كثيراً من قولك يا مولاي .. لماذا لا تخاطبيني كما اخاطبك » قال
ذلك واخرج من جيبه عقداً من الجوهر يساوي مالا كثيراً ومد يده نحوها والعقد يتلا
في كفه وهو يقول « مالي انا ناديك عزيزتي فتناديني عمي ؟ »

فحوّلت جهان وجهها عنه وهي تنظر اليه شزراً وتباعد كرسيها وقد ارسلت يديها الى وراء ظهرها وقالت « لا يا سيدي .. لا حاجة لي بالجواهر فاني حزينة ولا ارى مع ذلك مسوغاً لهذا الخطاب .. »

فاظهر استغرابه نفورها وقال « اهكذا تعاملين رجلاً اقامه ابوك وصيا عليك؟ هي اني من عامة الناس فاحترمي وصية والدك على الاقل »

فقالت بصوت هاديء كله وقار وترفع « كان الاولى ان تبداً انت باحترام تلك الوصية ايها الملك والقائد .. »

فقال بنعمة الفائز الظافر « اتظنين اباك لم بوصني الا بما في تلك الصحيفة؟ .. انه اوصاني وصية شفاهية لا بد لي من تنفيذها »

فقالت والازدراء باد في شقتها وعينها « ان والدي لو كان حياً ما قبل منك بذلك .. »

فابتسم وابتقت عيناه بريقاً ازعجها وقال بلحن الهائم الوهان « هي انه لم يقل شيئاً من ذلك الا يكفي ان أقوله انا .. يظهر ان ما ظننته من تعقلك وذكائك في غير محله .. مخاطبك ملك اشروسنة بعبارات التقرب والتودد وتجيدينه بالخشونة والفور؟ »

الفصل الثالث والعشرون

ليس الحب للشباب فقط

فظرت فيه نظرة الاستغراب والدهشة وقالت وفي كلامها تهديد وقد أقطبت حاجبها « قف عند هذا الحد من التلميح واحذر ان تنزع الى التصريح ان ملكك وان ضخم لا يساوي عندي شيئاً .. »

قال « يظهر انك لم تفهمي مرادي .. ألم تفهمي بعد؟ اني احبك يا جهان .. نعم اني احبك اني عاشق لك » قال ذلك وقد زادت عيناه بريقاً وبدا فيهما الاحمرار

فلما سمعت تصريجه ورأت منه ذلك « نهضت عن كرسيها ونفرت نفور الطيبي من الاسد او نفور الابي من الوقح وقالت « قلت لك نف عند حد التلميح .. فلم تصغر .. اما وقد تجرأت على التصريح فاعلم اني لا اسمح لك بمثل هذا الخطاب .. وهل يابق بك

وقد كلاك الشيب ان نخطب محبة فتاة اصغر من بعض ابنائك ؟
 فتهد الافشين تهدياً حاراً وقال وهو يتدل ويتلطف « آه يا جهان .. تحسبين
 الحب محرماً على غير الشبان ؟ » اني ارى الكهولة أولى به واقدر عليه من الشباب ..
 ان الناس مخطون بما يتوهمونه لان الحب لا علاقة له بالسن ..
 ثم اعتدل بمجلسه و اشار الى صدره وقال « ان في هذا القلب من لواجع الغرام
 ما لا يتسع له صدور الشبان .. كنت شاباً وانا اليوم كهل واقسم لك بما تعبدن اني
 اشد كلفاً واعرق في الحب من قبل .. يدلك على ذلك اني وانا الملك السيد والقائد
 الباسل ارامي عند قدميك لاخطب مودتك واتمس رضاك متذللاً متصغراً (ورامي
 عند قدميها) فاذا اطعني علمت اني عاشق استهلك في سبيل سعادتك وكنت الملكة
 النافذة الكلمة في العراقين وفارس وخراسان واشروسنة وفرغانة .. وان ابيت
 وظلت على خطاك .. »

فقطعت كلامه وهي تنظر في وجهه نظراً الاستخفاف وقالت « انهض يا حيدر ..
 انهض يا ابن كاووس .. انهض يا ملك اشروسنة وارجع الى رشك ودع ما تقول وانا
 اصفح عنك واغضي عما فرط منك واكتفم جسارتك .. انهض .. لا ينبغي ان تكون
 هذه الفتاة اربط منك جاشاً واكثر تعقلاً .. »

فوقع كلامها وقوع سهم في قلبه فهض وهو يحرق اسنانه وقال « لقد قتلتني شبان
 جنانك وجسارتك .. تحسبيني عاجزاً عن ارغامك ؟ .. ولكن قابي لا يطاوعني على
 اذيتك فارجمي الى صوابك وفكري في ما عرضته عليك من اسباب السعادة ولا تعملي
 عمل اهل الجهالة .. واعلمي انك وما تملكين في قبضة يدي فاذا اطعني كنت انا وما
 املك في قبضة يدك .. »

فهاج غضبها ودبت الحمية في عروقها وحدثتها نفسها ان تزيده توبيخاً ولكنها تماسكت
 لعلمها انها لا تقوى على مناواته وهو ملك عنده الجند والاعوان ويده خط والدها
 بالوصاية المطلقة عليها فلا ينصرها عليه حاكم ولا ينجيها منه سلطان .. الا اذا كانت في دار
 الملك فر بما استعانت عليه بالخليفة فينصفها .. فرات من باب الحكمة ان تستعين عليه
 بالتعقل والتدبير فتمالك بما فطرت عليه من قوة الارادة وقالت بصوت خافت « سمعتك
 تستهاني ريثما افكر في ما عرضته عليّ وانا امهلك لتفكر في ما قلته لك وري بعد ذلك
 ما يكون .. ولكنني كما قلت لك سأكتفم ما بدا منك وابذل جهدي في نسيانه حتى

يكون مكتوماً عني ايضاً لاني اضن بصديق والدي ووصيه ان يقال عنه ما قد يقال عنك
لو اطاع الناس علي اقوالك . . . هل قبلت بما اقوله لك ؟ واذا أبيت الآ الطيش فانا اولي
بالطيش منك ولا تحسبني فتاة ضعيفة .

فاحسّ الافشين بعظمة تلك الفتاة ولم يعد يقوى على التفرس في عينها كأن الغضب
زاد كبرياءتهما فتطايرونها الشرر . ووقع كلامها على رأسه كالصاعقة وقال « ما انت فتاة
ضعيفة ولا انا اقول ما اقوله عن طيش لكك تعتقدين كما يعتقد سائر الناس ان الحب
لا يلبق بغير الشبان وانا اريك راي العين ان الكحول اشدّ هياماً . ان بين جنبي قلباً ايضحي
المللك والحياة في رضى محبوبه . فهل يفعل الشبان ذلك ؟ وهم انما يحبون عن خفة وجهالة
لا يثبتون في الحب ولا يرعون ذمام المحبوب . اما وقد قبلت استمهالي فيها انا صابر لك حتى
ترجمي الى رشدك . وطبعاً اننا لا نزال في ايام الحزن على صديقي والدك لا نقطع امرأ
قبل انقضاء الايام المفروضة ونحن الآن في اوائها . لكنني لم اتمالك عن ان ابك ما في قلبي
وانا احسب ذلك يسرك ويعزبك فارجو ان لا ينجيب ظني بعد انقضاء مدة الحزن ولا سما
بعد ان ترجمي الى رشدك وتحققني صدق نيتي في ما ارجوه لك من الخير في دنياك . . لا
باس يا عزيزني اني صابر فاعلمي فكرك على مهل . . . »

فاغضت عن تطويله في بث جوارحه وتعليق اماله وقالت بصوت هاديء وجاش
رابط « فاقدم قومود الوصي لا خاطبك مخاطبة الفتاة لوصيها الامين » فقعدت وقعدت وهو
يعجب بنبات جاشها لانه قعد وهو يرتعد من شدة التاثروهي لا تنبالي فقالت له « هل قمت
بحق الوصية هل دبرت شؤون القصر واهله ؟ »

قال « قد فعلت كل شيء فالنزارعون عاملون في الحقول والقيم يدير شؤون القصر
واعلمي اني احرص على مالك منك » ومد يده والعقد لا يزال فيها وقال « والعقد
الا تقبلينه مني ؟ » خذيه اذا شئت »

فحولت وجهها واومات ايماء الاشمتزاز وقالت « لا . لا اريد قبول شيء يدكرني
هذا الاجتماع ولو استطعت ان اجرد هذا القاعة من فرشها واثانها لفعلت حتى لا ارى
شيئاً شهد هذا الموقف او سمع هذا الكلام . . والآن اسمح لي ان اشكر لك عنايتك
بشؤون التركة ذلك هو عهدي بالافشين صديق والدي والامين على اهله . . واخي
سامان ؟ لماذا حرمتموه من ارثه ؟ »

فاحسّ الافشين عند سماع اقوالها انه يتصاغر في عيني نفسه وهي تعظم وتعلو حتى كاد

يتلثم لسانه ويغلق عليه .. وانما غلبته على بسالته وسلطانه بالعفة وادب النفس فتجدد الافشين
وقال « أنك تسأليني سؤال القاصر لولي امره وانا مامور بكتمان السبب كما تعلمين فلو
سالتني سؤال الحبيب لمحبه لاطلعتك علي كل شيء »

قالت « اعمل بالوصية ودع الحب والمحبين »

فدهش الافشين لتعقلها ولم يزد الا هياماً بها ولكنه احسن تهيب من الرجوع الى
مداعبتها فسكت ولم ير خيراً من ختم الحديث فنهض واستأذنها بالانصراف وخرج وقد
غاب على امره وعلم انه لن ينال رضاها وانما اطاعها وقبل التأجيل فراراً من
الخروج فشلاً

الفصل الرابع والعشرون

المناجاة

اما هي فظلت واقفة في مكانها وعيناها تتبعان الافشين حتى خرج من الغرفة . ولما
تحققت خروجه من القصر رفعت بصرها الى صورة مطرزة على ستارة بالحائط تمثل
وجه والدها وتهدت تهدأ عميقاً والقت نفسها على الكرسي وقد احست بضعف في مفاصلها
كانها خارجة من عمل شاق . والتفتت حولها فلما تحققت انفرادها اعادت تهادها وناجت
نفسها قائلة « آه يا جهان .. آواه يا عروس فرغانة .. ما الذي دهاني في هذين اليومين .
مات والدي وسافر حبيبي .. والذنب لي في ذهابه .. ولكن .. لا بأس من ذهابه وذلك
اولى من بقاءه فلا يعلم بما يضره ذلك الشيخ الجاهل .. قبحك الله من ملك صعلوك وتباً
لك من قائد مغرور .. اتطمع بجهان وهي ابعد عنك من الثرياً .. مالي لا اقول له
ان قلبي لضرغام ؟ .. لا . لو قلت له ذلك لعرضت حبيبي للخطر .. حبيبي ضرغام .
اين انت ؟ » ولما ذكرت اسمه وتذكرت بعده احست بانقباض نفسها ولم تر فرجاً الا
بالبكاء فاطلقت لدموعها العنان وهي تحاذر ان يسمع صوت بكائها احد . فلما استغرقت في
البكاء نسيت موقفها ولم تعد تحاذر الشهيق ولولا رباطة جأشها وقوة ارادتها لاغمي عليها .
وهي في ذلك نهها وقع خطوات مسرعة بباب الغرفة فالتفت واذا بالقهرمانة دخلت مسرعة
والبغته بادية في عينيها وقد فتحت ذراعها كأنها تهتم ان تضم جهان بينها كما تضم الوالدة
طفلها اذا بكى

اما جهان فلما رأت لهفة خيزران وحنوها على تلك الصورة فاضت شعائرها فتحولت لاستقبالها وهي تبتسم ابتسام التجلد والدمع يغشى عينيها . ولما وصلت خيزران اليها ترامت جهان بين ذراعيها وقد اخذها الخجل لما بدا من ضعفها فابتدرتها خيزران قائلة « ما بالك تبكين يا سيدتي ؟ ماذا اصابك ؟ »

فقالت وهي تبتعد وتمسح دموعها بمنديلها « استغربين بكائي يا اماء وقد فقدت والدي بالامس ؟ آه ان مصيبي بفقدته مضاعفة . . »

ولم تكن خيزران غافلة عما دار بينها وبين الافشين وان لم تسمعه ولكنها ظنت شيئاً ولما رأت وجه الافشين عند خروجه ممتعاً تحققت ظننا فقالت « صدقت ان وفاة سيدي المرزبان تدعو الى البكاء والعيويل وخصوصاً اذا خلفه مثل هذا الوصي . . » وغصت بريقها ولكنها تجلدت وضمت جهان وقبلتها وقالت « لا بأس عليك يا سيدتي لا تخافي احداً » فلما سمعت قولها لم يشق عليها اطلاعها على ذلك السر لانها مستودع اسرارها ولكنها تذكرت قوة جنانها فاسترجعت رشدها وقالت « وهل تعلمين اني اخاف شيئاً ؟ ولكنني . . » قالت « انا اعلم سبب بكائك فلا تهتمي واعلمي اني اضحي حياتي في خدمتك وليس انا فقط . . ان اهل هذا القصر بل اهل فرغانة جميعاً يفقدونك بانفسهم »

فتخلصت جهان من بين ذراعي خيزران بلطف وشارت اليها ان تقعد الى جانبها فجلست وهي ترمق جهان وترعاها بعينيها فرأت سمحتها تغيرت من الحزن والقنوط الى الاهتمام والجد وقد اطرقت وبدا الذكاء واعمال الفكرة في عينيها وجبينها . فعلت خيزران انها ستقول قولاً مفيداً فبالغت في الاصغاء وقلبا يخفق حتى كادت تسمع دقاته . . وطال سكوت جهان وخيزران مصغية تنظر الى ما يبدو في عينيها من علامات الاهتمام واخيراً وقفت جهان فجأة ونظرت الى خيزران نظراً حاداً وقالت وهي تهز رأسها « لا مقام لي في هذه الديار بعد الآن . . »

فوقع قولها من خيزران وقوع النار على رأسها فما تمالكت ان وقفت وصاحت قائلة « ماذا تقولين ؟ »

قالت « ينبغي ان اسافر من هذا القصر . . يجب ان اتركه حالاً »

قالت « والى اين ؟ كيف تتركينه وفيه كل مالك وقد ربيت فيه . . لمن تتركينه ؟ »

قالت « اتركه للطامعين فيه . . اتركه للافشين والموبند . . »

قالت وقد اصفر وجهها وجلاً « كيف تركينه وفيه ثروتك وانت صاحبة الامر
والنهي فيه . . . »

قالت والحزم بادٍ في محيائها « لا تهمني الثروة ولا انا اعيش بالامر والنهي . . . وما
الفائدة من الجدران والاشجار والاحجار . . . ؟ ليست السعادة بامثال هذه الحطام . . . نعم اتركه
واترك الدنيا معه . . . اني ارى السعادة قد غادرته منذ غادره والذي . . . »

فادركت انها تشير الى ما يهددها من مطامع الافشين وهي بعيدة عن خرم غام فقالت
« اذا كان ذلك الرجل قد اساءك فانبيذيه ولا تهمني بشأنه . . . انك ملكة في قصرك
وهل تظننه يجرأ على اخراجك منه »

فظنرت اليها شزراً والاستخفاف حول شفيتها « انه لا يخرجني منه بل هو يريد ان
أبقى هنا . . . واما انا فلا . . . »

قالت « كيف تمضين يا سيدتي والى اين . . . »

فاطرقت ثم قالت « اني ذاهبة نعم ذاهبة . . . لامحالة واما انت فامكثي هنا . . . »
فقطعت خيزران كلامها وقالت وهي تشرق بدموعها « انا ابقى ؟ وماذا افعل هنا انك
تجرحين قلبي بتوبيخك . . . اني بين يديك حيثما تذهبين . . . وانما اردت ان اعلم الجهة التي
تطلبينها . . . »

قالت « اني ذاهبة الى العراق . . . »

فلما سمعت قولها دهشت والتفتت اليها قائلة « انك تقولين قولاً يسهل لفظه ويصعب
فعله . . . اتعلمين المسافة بيننا وبين العراق ؟ »

قالت « وان كنت لا اعلم ؟ »

قالت « انك حكيمة لا تعلمين عملاً الا بعد التبصر . . . تعلمين ان بيننا وبين العراق
بضعة اشهر ينبغي ان تقطع معظمها في البوادي الخطرة التي لا يستطيع سلوكها الا
القوافل او الجماعات من الجند المسلح لكثرة اللصوص وقاطعي الطرق ؟ »

قالت « مهما يكن من الامر اني خارجة الى العراق »

قالت « تبصري يا سيدتي او يا ولدي او يا حبيبتي واشفقي على شبابك ان تعرضي بحياتك
لهذا السفر المخوف بالاحطار . . . ان السائر الى العراق ينبغي له ان يقطع صحاري فاحلة
فيها اللصوص من التركمان وغيرهم وكثيراً ما يعترضون قوافل التجارة الذاهبة الى خراسان
او فارس فيقتلون اصحابها وبقبضون اموالها فكيف تسافرين انت فيها ؟ »

قالت « اسافر كما يسافر سائر الناس . . . في مسافرة وسندبر طريقة السفر »
 فلما لم ترحيلة في ارجاعها عن عزمها بهذا السبيل قالت « اذا كنت تطالبين الذهب
 الى العراق فراراً من الافشين فالعراق مقره وهو صاحب النفوذ فيه »
 قالت « ليكن مهما شاء فانا لا اخافه هناك لان يد الخليفة فوق يده . . . وهناك ضرغام
 ايضاً . . . » قالت ذلك وتراجعت لحظة ثم استأنفت الكلام قائلة « لا اعني ان استعين
 بضرغام عليه ولكنني التي هذا الشيخ الجاهل في بلد يسمع فيه صوت الحق . . . وقد
 يغلبني هناك بنفوذه كما اخاف ان يغلبني هنا بجنوده ولكنني لا اغلب هناك الا بعد ان
 اريه كيف اعمال الرجال . . . في مسافرة لا ترجعيني عن عزمي » وتحولت نحو الباب فتبعتها
 خيزران وقد اخذتها الدهشة من ذلك العزم الفجائي ولم تتالك عن البكاء سرّاً
 اما جهان فمشت مسرعة نحو غرفتها لا تلتفت يمينا ولا شمالاً وقد تمثلت بها الشجاعة
 والحزم وثبات الجنان وخيزران تتبعها ولا تجسر ان تعترضها وحاذرت الدخول في اثرها
 فتباطأت في مشيتها . واذا بجهان تناديا من الداخل فاسرعت اليها فرأتها جالسة على سريرها
 والحيرة تجلي في عينها رغم ما في جبينها من دلائل العزم الصادق فلما دخلت ابتدرتها
 جهان قائلة « لم يعد سامان بعد ؟ »

قالت « كلاً يا سيدتي . . . لم اشاهده في هذا الصباح . . . »
 فهزت رأسها وحرقت اسنانها ثم قالت « يا امه . . . تعالي اجلسي الى جانبي . . . »
 فجلست خيزران وهي نهميب من رؤيتها فقالت جهان « في مسافرة كما قلت لك
 ولكن لا ينبغي ان يعلم احد بسبب سفري فعليك ان توصي المهتر (قيم القصر) ان يتعهد
 اموالنا ومغارسنا كالعادة على اننا خارجون الى بلد قريب . . . »
 قالت « سأفعل ذلك يا مولاتي . . . وهل يكون سفرك قريباً . . . ؟ »
 قالت « في اقرب وقت . . . قبل انقضاء مدة الحداد وهي لا تزال طويلة وسأعين
 الوقت . . . انما ارجو ان تساعدني في اعداد ما ينبغي اخذه من الامتعة فاننا على سفر
 طويل . . . فهمت . . . ؟ »

فاشارت برأسها مطيعة وسكنت تنتظر ما يأتي به الغد وان كانت لا تتوقع رجوع
 جهان عن عزمها لما خبرته من ثباتها وحزمها ثم تركتها في الغرفة وحدها وخرجت
 قضت جهان اقية ذلك اليوم وهي كالضائعة وغلب عليها التفكير في اخيها سامان
 لاحتياجها الى صحبته في ذلك السفر الطويل وهي تعلم انه لا يقل عنها رغبة فيه واصبحت

في اليوم التالي وسامان يقرغ باب غرفتها ولما دخل ابتدرته بالعتاب على غيابه فقال « اذا كان غيابي عنك يوماً واحداً قد اقلقك فكيف اذا غبت عنك اشهرًا ؟ »
 قالت « العلك عازم على السفر ؟ »
 قال « وما الاقامة في بلد حرمت من خيراته فانا غريب بين اهلي اما انت فانك وريثة القصر والمال فامكثي ودعيني اضرب في الارض » قال ذلك واظهر الكآبة فلم يفتها قصده ولكنها رأت سفره يوافقها فقالت « وما قولك اذا سافرنا معاً ؟ »
 قال « وهل انت عازمة على السفر ايضاً ؟ »

قالت « نعم »

قال « لا اري باعثاً لسفرك الا اذا كنت تردين العراق وهناك ضرغام حبيبك »
 قالت « اني عازمة الى العراق . فهل انت عازم الى هناك »
 قال « اسير برفقتك . . ولكن مثل هذا السفر لا يتأتى لنا الا بعد الاستعداد الكافي ولا بد لنا من اصطحاب جندي او قافلة لان الطريق وعرو وطويل »
 قالت « دبر ما تراه اني مسافرة في القريب العاجل »

فابرت امرة سامان وهو انما بدأ بتلك المقدمة اسمع هذه النتيجة لغرض في نفسه طالما سعى فيه ولولا رغبة جهان في السفر للنجاة من الافشين لا نكشف لها غرض اخيها ولكنها تعامت وتجاهلت رغبة في النجاة والانسان كثيراً ما يغطي غرضه على تعمله فعمدت الى سامان بتدبير امر السفر واخذت هي في الاستعداد سرًا بواسطة خيزران

الفصل الخامس والعشرون

المعتصم واتراكه

بني المعتصم سامراً كما ذكرنا في مكان آخر لقيم فيها رجاله الاتراك وغيرهم وهي المدينة الثانية من مدن بني العباس على ٥٠ ميلاً من بغداد شما . اها على شاطيء دجلة الشرقي وقسمها الى قطائع اقطعها لرجالهم وفرق تنسب كل فرقة الى موطنها التي حملت منه فقد حمل بعضهم من سمرقند وهم الاتراك والبعض الآخر من فرغانة وهم الفرغانيون والبعض من اشروسنة ومن غيرها وجبل على كل جماعة قائداً . واشهر قواده الافشين

واصله من ملوك اشروسنة وهو قائد الاشروسنية • واشناس وكان في الاصل مملوكاً لبعض
قواد المعتم م فاتباعه ورقاه وايتاخ كان مملوكاً لقائد آخر وكذلك سيما وغيره
ولما استقر رأيه على بناء سامراً احضر المهندسين والفعلة والبنائين وأصحاب المهن
من النجارين والحدادين وامر بحمل الساج وسائر الخشب والجندوع من البصرة وما
والاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام واستحضر الرخام
من اللاذقية وغيرها

وابتني قصره في اواسط المدينة وبجانبه المسجد الجامع واخطت الاسواق حول
المسجد وجعل كل تجارة منفردة في سوق على نحو ما فعل المنصور في بناء بغداد وافرد
لقواده قطائع ابعدها عن قصره وعن منازل الناس واهل الاسواق فاقام اشناس في محلة
بطرف سامراً في الشمال على بضعة اميال من قصره سماها الكرخ على اسم كرخ بغداد •
واقام الافشين في طرفها الجنوبي في مكان يسمى المطيرة على نحو ذلك البعد من قصره
وانشأ للفراغة قطائع اقرب اليه من سواهم وكذلك الاتراك والحراسانية والمغاربة
وامر قواده ان يبنيوا المساجد والاسواق في قطائعهم لرجلهم • وجعل لسامراً شوارع
موازية لمجرى دجلة تقطعها دروب وازقة اكبرها الشارع الاعظم يمتد من المطيرة شمالاً
على موازاة دجلة الى الكرخ وتمتد قطائع الناس يمنة ويسرة على هذا الشارع وتصل
اليه بدروب وازقة تنفذ الى دجلة • وفي هذا الشارع كان ديوان الخراج وقصر المعتم
والمسجد الجامع وسوق الرقيق • ويلى الشارع الاعظم شارع آخر يعرف بشارع ابي احمد
على موازاة وشوارع اخر لا محل لذكرها

وبنى على دجلة جسراً يوصل الشاطىء الشرقي بالغربي واقام في هذا الجانب العمارات
وغرس البساتين وحفر الآبار واستقدم من كل بلد اصحاب الاعمال اللازمة للعمارة كهندي
الماء وصناع القراطيس استقدمهم من مصر وصناع الزجاج والخزف من البصرة وانزل اهل
كل مهنة وصناعة مع اهلهم وعيالهم وجعل الابنية قصوراً حولها البساتين وبينها الميادين
(١) ولما تسامع الناس ببناء هذه المدينة تقاطروا اليها للبيع والشراء وزاد فيها الوائق والمتوكل
وغيرها ممن خلف المعتم كثيراً من الابنية الفخيمة

وكان في جملة ابنية الفراغة بقرب قصر المعتم بيت متوسط الحجم قائم في حديقة
حولها سور له باب مطلق على دجلة عنده نخلتان • ولم يكن اهل سامراً يعرفون شيئاً عن

اهل ذلك القصر اذ قلما كانوا يرون فيه احداً غير الخدم الذين يخرجون الى السوق في حوائجهم على ان القواد كانوا يعرفون انه منزل النادى ضرغام وكانوا يعجبون برغبته عن زخارف الحياة خلافاً لسائر القواد او الامراء الذين كانوا يستكثرون من الحاشية والموالي والماليك . وكان اكثرهم يظنونه وحيداً فيه وربما زاره بعضهم في اثناء اقامته في سامراً اما بعد سفره الاخير فانهم انقطعوا عنه اذ لم يبق في البيت احد الا امرأة كفيفة البصر هي والدته ومعها جارية عجوز تخدمها اسمها مسعودة

الفصل السادس والعشرون

آفتاب

وكانت والدة ضرغام تسمى آفتاب كفت بصرها وهي في عنفوان الشباب قبل ذهابها الى فرغانة ولم يكن اهل ذلك البلد اكثر معرفة عن سابق حياتها من اهل سامراً حتى المرزبان واهل قصره مع طول اقامتها بينهم . وقد علمت مما تقدم انها كانت تكتم اصلها حتى عن ابنها ضرغام فكان اذا سأها عن ابيه زعمت انه كان من جند المسلمين وقتل في بعض الوقائع وانها ندرت لبس السواد عليه كل حياتها . ولم يصدق ضرغام قولها لما انسه من تسترها واختصارها في ذكره فالح عليها مرة واستحلفها ان تخبره عن الحقيقة فوعده انها ستظلمه عليها في وقت آخر وكان كلما ذكرها بوعدا استمهلت الى فرصة اخرى . وقضى شبابه في فرغانة وهو يطلب الخروج الى العراق للخدمة في الجندية او لمعاونة عمل يرتزق به كما كان امثاله من اهل النشاط والذكاء يعملون وهي لا تطاوعه الا في الاعوام الاخيرة فاذنت له بخدمته المعتصم فاجاء معها واقام في سامراً فظهرت مواهبه وارتنقى في الجندية حتى صار رئيس الحرس وهو في كل فرصة يسألها عن ابيه فتؤجل الجواب

ولما استأذنها في الذهاب الى فرغانة في مهمته الاخيرة اذنت له وألحت عليه ان يسرع في الرجوع وبقيت في ذلك القصر ليس معها غير جاريتها مسعودة وكانت تقضي نهارها قاعدة في البيت لا تخرج الى البستان الا نادراً والجارية تبذل جهدها في تسليتها وقد قضت في خدمتها اعواماً عديدة لم ترها ضاحكة قط فلم تكن اقل استغراباً لحالها من الآخرين على

انها كانت تحترمها وتحبها حباً شديداً لما تَوَّانس من لطفها وطيب غنصرها مع سكوتها لانها لم تكن تُتكلم الاً ما لا بد منه

وكانت آفتاب مع كهولتها وابتلائها بالعمى جميلة الخلقه خفيفة الروح تدل ملامح وجهها على ما كانت عليه في شبابها من الجمال المفرط . وكانت رشيقه القوام ممتلئة البدن . ومع ما مرَّ بها من الضيقات لا يزال جمالها محفوظاً وكانت جاريتها مسعوده منقطعة الى تسليتها بما في امكانها وكان يسوؤها ميلها الى السكوت فتبذل جهودها في جمع الاخبار مما تسمعه من الخدم فتقصه عليها فتلاحظ منها اصغاء لسماع اخبار الخليفة المعتمض ولا سيما بعد ان صار ابنها رئيساً للحرس وخصوصاً بعد سفره فكانت مع رغبتها في سماع اقوالها فلما تسمع منها جواباً غير قولها وهي تنهد « متى يعود ضرغام لقد طال غيابه »

حتى اذا جاء البشير بقدمه كان اول من علم بذلك مسعوده اخبرها به رسول خاص انقذه ضرغام قبل وصوله لعله ان والدته تلهف لرجوعه . فدخلت مسعوده على سيدتها مهرولة ولو تيسر لا فتاب ان ترى وجهها لقرأت فيه دلائل البشر . ولكنها حرمت من نعمة النظر لالذنب او مرض وانما قضت عليها بتلك المصيبة مظالم ذلك العصر وقضت تلك المظالم ايضاً ان تكتم سبب عماها وتخفي حقيقة حالها عن كل انسان — فلما دخلت مسعوده شعرت آفتاب بسرعة حركتها وحدثها قلبها بخبر تحمله اليها فبدت في وجهها ملامح الاهتمام وحركت عينيها المظلمتين حركة متفرس كأنها تنظر في وجه القادم عليها لتستفهمه عما في نفسه . ولم تمهل خادماتها ان تشرع بالكلام فابتدرتها قائلة « ما وراءك يا مسعوده . . هل اتى ضرغام ؟ »

فصاحت « نعم يا سيدتي انه اتى . . من انباك بذلك ؟ »

قالت « انبائي قلبي . اذ ليس له شغل سواه . ابن هو ؟ »

قالت « انه على مقربة منا »

فما تماكنت آفتاب عن النهوض فجأة وبدت في محياها علامات البشر وثقطن بياض عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها فتلقتهما بطرف نقابها الاسود وصاحت وهي تبسم « اتى ضرغام ! الحمد لله . متى يصل الينا ؟ »

قالت « يصل في هذا المساء ان شاء الله . . »

فقالت « اعددي العشاء » ومشت نحو غرفتها مشية البصير لا تعثر بشيء ولا بوقفها

شيء على عادة العميان النبهاء فانهم يستعوضون عن ابصارهم بارنقاء سائر حواسهم وبتنبه

اذهانهم . فدخلت غرفتها غسلت وجهها وبدلت ثيابها وتشاغلت ببعض المهام حتى لا تستطيل الانتظار

وكان من فرط نباهتها ورقة شعورها انها وهي جالسة في ايوان القصر ساكنة تعرف مكان كل واحد من خدمها في الغرف او الحديقة . فبعد ان فرغت من اصلاح شأنها اجاست في الايوان ومسعودة في المطبخ تصالح الطعام وهي تفكر في قدوم مولاه وقلبيها مسرور لعلها ان ذلك يفرح مولاتها واذا هي تسمعها تنادي « مسعودة . . مسعودة »

فهرولت الجارية مسرعة وهي تقول « نعم بامولاتي ماذا تأمرين ؟ »

قالت « ان ضرغاماً اتى . . مري الخدم بالخروج لاستقباله »

فاستغربت مسعودة قولها لانها لم تكن ترى شيئاً يدل على ذلك فخرجت الي الحديقة

فلم تجد احداً فعادت وهي تقول « لم يأت بعد ولكنه آت قريباً »

قالت « اني اسمع وقع حوافر جواده . . . مري الخدم كما قلت لك »

وقد تعودت منها مسعودة كثيراً من ادلة النباهة والشعور البعيد فعادت الى البستان

وامرت الخدم وهي لا ترى احداً قادمًا ولكنها لم تبلغ باب البستان حتى رأت الغبار

وسمعت وقع حوافر الخيل وتحققت قول سيدتها ولم تمض هنيهة حتى رأت ضرغاماً قادمًا

على جواده وهو لا يزال بلباس السفر وليس وراءه الا مولاه وردان على جواد آخر .

فرجعت لتبشر سيدتها فرأتها قد سبقتها الى باب الدار وعيناها شائعتان نحو الجهة التي تسمع

الصوت منها وها تجولان بين الاجفان كأنهما تريان شيئاً — وانما حركهما محرك البصيرة

النقادة ولطفة الوالدة المشتاقة . ولم تمهلها ان تقول شيئاً فسبقتها الى الكلام قائلة « الم اقل لك

انه جاء . . . اني اشعر بحوافر جواده نمتشي في مفاصلي وكأني احس بجراحة انفاسه . .

حرسه الله وابقاه » قالت ذلك وكأنها تنطق بعينها وحاجبها وبيديها وبكل جارحة من

جوارحها فآثر منظرها في مسعودة وخفق قلب الجارية شفقة عليها وودت لو انها تغيرها

عينها لترى بهما ابنا وتفرح بمنظره



الفصل السابع والعشرون

اللقاء

اما ضرغام فماغتم ان وصل الى باب البستان وترجل فاستلم الخدم جواده وتحول هو الى الدار لتقبيل يدي والدته وكانت لا تزال واقفة وعيناها وكل جوارحها متجهة نحوه وهي تراعي اقترابه كأنها تراه رأي العين . فلما صعد درجات الدار واصبح بين يديها ضمته الى صدرها وقبلته فاكب على يديها يقبلها ومشت الى الايوان وهي ترحب به وتكرر تقبيله وتستنشقه وتنفحص كتفيه وذراعيه وصدره وعنقه بيديها وتحس وجهه باصابعها فتمرها على لحيته وشاربيه وعينيه كأنها لتفرس فيه باناملها . . . حتى اذا دخلا الايوان جلست على وسادة واجاسته بجانبها وهي تضمه وتشمه كأنها تخاف ان يختطفه احد من بين يديها وتجيل بصرها فيه والدمع يتساقط منها وهو لا يعترضها بشيء مما تعمله لعله انه يسررها ولما فرغت من التقبيل والشم اخذت تسأله عن صحته فطمأنها وشرح لها شوقه اليها وانها لم تبرح من خاطره في اثناء ذلك السفر الطويل . ثم تذكرت انه يحتاج الى الراحة فأمرت مسعودة ان تهبيء المائدة فاستأذنها ضرغام في تبديل ثيابه قبل الطعام فأذنت له وبعد التبديل قاموا الى المائدة ففرغوا من الطعام نحو العشاء وقد انير البيت بالشموع . وهي اول ليلة انير بها منذ سافر ضرغام لان افتاب في غني عن الضوء ولم يكن يزورها احد فلم تكن تنار الشموع في غياب ضرغام الا نادراً

وبعد الفراغ من العشاء خرجت مسعودة الى غرفتها لتخلو آفتاب بابنها لعلها تريد محادثته في شأن خاص فانكأ ضرغام على وسادة ووالدته قاعدة بجانبه وهي قابضة بيديها على يده كأنها تعترض عن المشاهدة بالملاسة واخذت تسأله عن سفره وهو يقص عليها ماشاهده في طريقه من الغرائب والايثار حتى وصل الى سامراء في ذلك المساء فقالت « وهل اقمتم في فرغانة طويلاً »

فلما سمع ذكر فرغانة تذكرا اشياء كثيرة فاجابها « نعم اقمتم فيها بضعة ايام . . . » وسكت وهو يتردد في هل يخبرها بموت المرزبان فادركت والدته تردده من غنة صوته فقالت « قص علي ما رأيته هناك . . . ماذا جرى ؟ »

قال « ماذا اقص عليك ان القوم يذكرون جيزتك ويتحدثون بك كثيراً »

قالت « وكيف المرزبان واهله »
قال « انهم في خير الا المرزبان فانه مريض مرضاً ثقيلاً عجز الطب والاطباء عن
علاجه . . . »

قالت « اظنه مات . . . اليس كذلك ؟ »
قال « اذا لم يكن مات فانه يموت قريباً لطول مرضه . . . والحق يقال انه رجل
محب ولو تعلمين مقدار احترامه لك »

قالت « اراك تتلطف في ابلاغي خبر موته . . . رحمه الله . كيف فارقت اهله . »
فلم يستغرب ضرغام شعورها بذلك الخبر لما تعودته من امثاله فيها واحب الاستطراق
الى التحدث عن جهنم فقال « ان اهله في خير لانه خلف لهم مالا كثيراً »
قالت « وقد آل هذا الميراث الى جهنم على ما اظن »
فاستغرب نسيانها سامان فقال « وهل نسيت سامان أخاها ؟ »

فادركت انها فرطت بسراً كانت تكتمه وبان الارتباك في وجهها فاطرقت وعيناها
ترقصان في وجهها من الحيرة ثم قالت « لا لم انس سامان ولكنني كنت أحسب والده
يجرمه من الميراث »

فزاد استغرابه وهو يعلم انها لا تلقي الكلام جزافاً فقال « احسبك تقولين ذلك
عن ظن ولا بد من سبب تكتمينه »

فقالت « ربما كان ذلك . . . وهب اني اكنتم سيداً فلو جاز لي ان اقله لك لقلته .
دعنا الآن من سامان واخبرني عن جهنم عروس فرغانة كيف هي اني احبها واعجب
بذكائها ولطفها »

فلما سمع اطراءها جهنم شغل بها عن رغبته في استطلاع خبر سامان وطاب له
التحدث عن حبيبته فقال « ان جهنم اهل لا عجابك وهي موضوع اعجاب الفرغانيين
عن بكرة ابيهم . اني لم أر مثلها بين النساء ولا مثل جمالها وتعقلها . وكم تمنيت ان يمن
الله عليك بالبصر لتشاهدها »

فلما سمعت اعجابه بها توسمت فيه ميلاً شديداً اليها فقالت « اراك كثير الاطراء
لسجايها ولا الومك على ذلك اذ لم يفتني من مشتهيات المبصرين في هذه الدنيا الا رؤيتك
ورؤيتها » وتهدت ثم قالت « ولكن ذلك هو نصيبي من دنياي واحمد الله انه انا بصيرتي
ومن علي ببقائك . واذا فاتني ان اراك بعيني فلم تفتني رؤيتك بقلبي . اما جهنم فلم أحب

فتاة مثل حبي لها وهي أيضاً مرسومة في قلبي . . . » قالت ذلك ومدت يدها الى صدر
ضرغام وهي تظهر انها تحاول ضمه فاحست بحققان قلبه فتحققت حبه جهان ودحو لا يفقه
مرادها ثم قالت « انى احب جهان يا ضرغام فهل انت تحبها ؟ » قالت ذلك وكفها لا تزال
على قلبه

فقال « نعم يا اماء . انى احبها ولا اظنك ترين بأساً من ذلك لانك وضعتها معي في
قلبك كما تقولين »

قالت « لا ارى بأساً . ولكننى لا اعلم اذا كانت هي تحبك ايضاً لانها بنت المرزبان
وقد كنا اضيفاً في قصر ابيها فربما حسبت نفسها ارفع منك مقاماً على عادة
اهل اليسار . . . ولا لوم عليها اذا فعلت ذلك لانها لا تعرف ابك . . . » ولم تكلم تقول
ذلك حتى تصاعد الدم الى وجهها وتشاغت بيلع ريقها كأنها ندمت على ما فرط منها
اما هو فاجابها « كوني مطمئنة يا اماء ان جهان تحبني حباً شديداً لانها ليست من
اهل الكبرياء ويسرني ان اخبرك باننا قد تعاقدنا على الزواج وهي لا تعرف نسي . . .
والآن اذ قد جرتنا الحديث الى ذلك الا ترين انه آن لك ان تبري بوعودك ؟ »

فعلت انه يستنجزها وعدها باطلاعه على حقيقة ابيه فقالت « لم يأت الوقت يا ولداه
وسياأتي قريباً عد بي الى حديث جهان فان خبر تعاقد كما يسرني وطالما كنت اتمنى
ذلك وانا احسبه بعيداً فهل حدث ذلك العهد على يد والدها ؟ »

فقال « اعترف لك اننا تعاقدنا سرّاً قبل خروجي معك الى سامرا ولم اخبرك به
لاننى لم اكن احسب نفسي اهلاً لها وانا يومئذ لا شأن لي فلما وفقني الله الى المنصب الذي
نلته عند امير المؤمنين احتلت في الذهاب الى فرغانة لاخبرها به واتم امر الزواج على يد
والدها فذهبت وقد صدق ظني بشباتها وكنت اكتب الكتاب فنقل المرض على ابيها وتوفي
فاجلت ذلك الى فرصة أخرى »

قالت « وهل تنوي اذا تزوجتها ان تقيم معها في فرغانة أم تأتي بها الى هنا ؟ »

قال « ان ذلك راجع الى رايك وهي لا تخالف لنا رايأً وكنت عازماً على المكوث
هناك حتى تنتضي مدة الحداد واكتب كتابي وآتي بها الى هنا فجاءني امر الخليفة
بسرعة الرجوع فرجعت ولقيتها قبل سفري وهي حرضتني على الاسراع في طاعة الخليفة
ووعدت ان تعمل بما نراه بعد ذلك »

فأبرقت اسرة أفتاب وابتسمت وقالت « احمد الله على هذا النوفيق واطلب اليه ان

يتم فضله بما في خاطري فانت حينئذ اسعد الناس
 فعلم انها تشير الى خبر والده فقال « اني اسعد الناس بوجودك .. ولكن ... »
 تخافت ان يستأنف سؤاها عن والده فقطعت كلامه قائلة « وهل علمت السبب الذي
 استعجلك الخليفة من اجله ؟ »

قال « كلاً . . . ولعله يريد انفاذي في مهمة عسكرية . هل تعرفين شيئاً عن ذلك ؟ »
 قالت « لم اسمع خبراً في غيابك لاني لم اكن اكلم احداً غير مسعودة »
 فقال « هل تراه يعث في طلب الافشين ايضاً »
 قالت « لا ادري . . . اين هو الافشين ؟ اليس في سامرا »
 قال « كلاً اني لقيته في فرغانة . »

فاطرقت وحكت جبينها كأنها تفكر في أمر خطر لها ثم قالت « ان الافشين صديق
 المرزبان كثيراً . . . هل شهد موته »

قال نعم « شهدته وقد عينه المرزبان وصياً على اهله بعده »
 فابتسمت ابتسام مطلع على امور سابقة تؤيد ما سمعه فلحظ ضرغام ابتسامها فقال
 « ما بالك تبسمين هل تعرفين شيئاً عن هذا الامر من سواي »

قالت « كلا ولكنني تذكرت اشياء كنت اسمعها من صديقتي والدة جهان رحمها الله
 فقد كانت تسر الى كل ما يهيمها وانا ايضاً كنت ارتاح لمسارتها . فكانت كثيراً ما تشكو
 الي ثقة زوجها بالافشين وهي لا تثق به لما تعلمه من جشعه وطمعه ولكنها لم تكن
 تجسر على اعتراض المرزبان في اعماله »

فلما سمع ذكر الجشع والطمع شغل خاطره لان الرجل اصبح وصياً على تركة كبيرة ربما
 تلاعب باموالها ولكن سبق الى خاطره حسن الظن بالناس لانه كان سليم القلب طيب
 السريرة فاكبران برتكب ذلك القائد العظيم طمعاً بمال اقيم وصياً عليه فقال « هل
 نظني الافشين يمد يده الى مال التركة ؟ »

قالت « لا أدري . ولكنني ذكرت لك ما كانت تسره الي تلك المسكينة وهي ايضاً
 اسرت الي ما علمته عن سامان وسبب حرمانه من الارث . »

فانتبه ضرغام لشيء لحظه من سامان فقال لها « لاشك ان سامان نفسه كان عالماً
 بعزم والده ولذلك كان يبذل جهده في منع الوصية فكان يبعث به والده لاستقدام الموبد
 فيعود ولا يأتي به وينتحل الاعذار لعدم مجيئه »

قالت « واخيراً هل كتب الوصية على يد الموبذ ؟ »

قال « نعم وانا انفذت وردان في اسنقدمه »

فهزت رأسها وقالت « انعم به من موبذ . . . وهذا ايضاً كانت تلك المسكينة تستنقل روحه وتنفر من رؤيته فاذا زارهم في عيد او نحوه هربت من الابوان حتى لا تلتقي به . . . وقد اذكرتني وردان اين هو ؟ »

قال « هو في هذا المنزل ولعله نام الآن لانه تعب في هذا السفر والحق يقال انه همام غيرور كنت كثير الاعتماد عليه بهماتي . . . وانا الآن لا ادعوه خادماً بل هو اولي ان بدعي صديقاً لانه ارقى كثيراً من طبقة الخدم ولعل له شأنًا يكتسه »

فقالت « احتفظ به قد يكون شهياً خانه الدهر والدهر بالناس قلب » ثم اتبعت انه قد آن الرقاد وخصوصاً لضرغام على اثر مشاق الاسفار فقالت « اذهب يا حبيبي الى فراشك وغداً تخرج بحراسة الله الى المعتصم وارجوان تلقاه وانت في خير وعافية » قالت ذلك ونهضت وامرت مسعودة باعداد ما يلزم للرقاد وضمت ضرغاماً قبل ذهابه الى الفراش وذهبت هي الى فراشها

بات ضرغام تلك الليلة والخواطر لتوارد عليه فتمدكرجهان وكيف تركها وبينهما مسافة بعيدة واحس انه اخطأ بتركها ولام نفسه لانه لم يأت بها معه او بقي حتى يتم اقتارانه وهو لا يعلم بالذي طرأ عليها بعد سفره من حيث الافشين . ولو علم لطار اليها علي اجنحة الانتقام . وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره بالمعتصم والسبب الذي بعث اليه من اجله

الفصل الثامن والعشرون

المعتصم والاسد

وفي الصباح التالي نهض فقبل يد والدته ولبس بعد الفطور ثيابه الرسمية التي يقابل بها الخليفة واهمها القلنسوة وحولها العمامة والسواد وهو الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين وتحتها القبابة والسراويل . وثقلد السيف وركب الجواد وركب وردان في اثره وسارا بلمسان قصر الخليفة

وكان قصر المعتصم في الجانب الشرقي من سامرا ويقال له الجوسق وهو مؤلف من عدة ابنية يغمها سور واحد وقد قلد في بنائه طرز الاكسرة في المدائن فجعل بابه الخارجي مثلث القناطر القنطرة الوسطى كبيرة لمرور الفرسان والى كل من جانبيها قنطرة صغرى يمر تحتها المشاة . ويستطرق الداخل الى حديقة كبيرة فيها عدة ابنية اكبرها البناء الذي بقيم فيه المعتصم . وسائر الابنية للحاشية وفي جملتها بناء للاضياف وآخر للسباع لان المعتصم كان مولعاً باقتنائها وكثيراً ما يركب لاقتناصها

وصل ضرغام الى ذلك القصر في ضحى ذلك اليوم فلما اقبل على الباب وقف له الحرس وحيوه فدخل على جواده وترجل وردان وقاد فرسه في اثره . اما ضرغام فلم يترجل حتى دنا من قصر الخليفة فتناول وردان فرسه وساق الفرسين الى الاسطبل فرحب الحاجب بضرغام فسأله عن المعتصم فقال « انه خرج بالامس للقنص ولم يعد بعد » قال « وهل تظنه يعود الساعة ؟ » قال « لا يلبث ان يأتي »

فادخله الحاجب الى قاعة يستريح بها ووقف بين يديه واخذ يرحب به ويسأله عن صحته وسفره فطمأنه انه عاد سالماً وسأله عن الاحوال الجارية لعله يستطلع سبب استقدمه فلم ير موجباً لذلك فخبير في امره . ومكث وهو يتشاغل بمشاهدة ما حدث في ذلك القصر من الرياش الجديد . ثم رأى ان يخرج للحديقة يتفرج بما فيها من الاشجار والرياحين فرافقه الحاجب الى بعض اطرافها واذا باهل القصر في هرج وضوضاء وقد صاح صائحهم ان الخليفة عائد فتحول القوم نحو الممر المؤدي الى القصر واخذت طلائع الموكب لتقاطر بين فرسان ومشاة ثم اقبل الخليفة على جواده وعليه لباس الصيد فوق الدرع التي يلبسها اذا خرج للصيد خوفاً من وثوب السباع او غيرها من الضواري

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحية ايض اصهب مشرباً حمرة تلوح الشجاعة في وجهه وتنجلى القوة العضلية في بدنه وبلغ من قوته انه كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات^(١) واذا اعتمد باصبعه السبابة والوسطى على ساعد انسان دقته وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقاً ويشد على الدينار باصبعه فيمحو كتابته^(٢) وكان غضوباً شديداً النعمة منصرف الهممة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالة فلما وصل الى باب القصر ترجل وحيماً الوقوف واكثرهم من القواد والفرسان فوقع بصره على ضرغام فهش له وحياء فامرع ضرغام اليه واكب على يده بقبليها فمنعه وقال « انت هنا يا ضرغام ؟ »

(١) تاريخ التمدن ١٠٩ ج ٢ (٢) سير الملوك ١٦٢

قال « جئت يا مولاي طوعاً لامرك »

قال « وددت ان تكون هنا البارحة لتذهب معي في هذا الصيد »

قال « وانا اشتغي ذلك يا امير المؤمنين . . . لازلت ظافراً غانماً »

وبعد ان حوّل الخليفة وجهه نحو القصر تراجع كأنه تذكر شيئاً وأشار الى الوؤوف فانصرفوا واستبقى ضرغاماً ثم قال له « الساعة ادلك على شيء يسرك فقد اصطدت اسداً هائلاً . ولا ارى اسداً الا تذكرتك لانك تسمى ببعض اسمائه » ثم اشار الى الحاجب فوقف بين يديه فقال له « قل لاصحاب الصيد ان باتوا بالاسد الى تلك المصطبة » ومشى الخليفة الى مصطبة في بعض جوانب الحديقة وهو يراعي ضرغاماً ويخاطبه واغتم ساعة الانتظار واخذ يسأله عن سفره فقال « ارجوان تكون قد وفقت في هذه الرحلة الى ما يسرنا »

قال « قد صدعت بامر مولاي فراقفنا توفيقه فابتعنا الجواري . . . »

فقطع كلامه قائلاً « انت ابتعثن ؟ »

قال « كلا يا مولاي . . . لا اقدر ان اكون تاجراً ولكنني ساعدت الجماعة في ابتياع

ما يلزم وهم يكونون هنا قريباً وانما تعجلت في الحجيء طوعاً لامر امير المؤمنين »

فلما قال ذلك بدا الاهتمام في وجه المعتصم واطرق ثم قال « سنتكلم بذلك بعد قليل »

والتفت نحو باب الحديقة بابرقت اسرته وأشار الى ضرغام فالتفت فاذا بجماعة يحملون قفصاً من قضبان الحديد على اعمدة . وفي القفص اسدٌ هائج يكاد الشرر يتطاير من عينيه . فلم يتالك ضرغام عن اقطاب حاجبيه هيبه وكان شيئاً جاش في خاطره اذ تمثلت له الشجاعة في وجه ذلك الحيوان المفترس +

اما المعتصم فكان لا يزال واقفاً فلما اقتربوا بالقفص منه امرهم بوضعه على الارض فوضعه والاسد يزأر زئيراً هائلاً تصطك له المسامع فقال المعتصم « انه يزأر من شدة الالم لاني رميته بنبل اصاب لبتة واخشى ان يموت منه واحب ان يبق حياً لا تمتع بشمر هذا الصيد كلما رأته » قال ذلك ومشى نحو القفص وضرغام الى جانبه والوراء تأدباً حتى اصبحا على بضعة اذرع من الاسد وكان بيد الخليفة نبل ليس معه من الاسلحة سواه لان صاحب لباسه تناول اسلحته ساعة وصوله . واستبقى النبل بيده يتشاكل به فلما دنا من القفص اخذ يداعب الاسد ويشير اليه بالنبل كأنه يهيم بضربه والاسد يزأر ويتململ والدم يقطر من لبتة وقد جمد بعضه على صدره وقائمه واحمرت

عيناه وتفاعسما فتوهم المعتصم انه يموت فرمى النبيل عليه لمداعبته فاصاب عينيه فهب
الاسد غضباً والماء ووثب يطلب الخليفة فلطم رأسه قضبان الحديد فارتد وقد اشتد غضبه
كالجنون والمعتصم وضرغام ينظران اليه ويظهران الاستهزاء بحركاته وقلباها يخفقان لان
للأسد رهبة ولو كان في حال الاحتضار

وهم في ذلك وضرغام يتفرس في الاسد وقد شاركه بمصابه لانه تصور نفسه في مثل
حاله واذا به قد ضرب جانب القفص برأسه ضربة حلت منه قضيبين واقلت فذعر الناس
ولم يبق احد منهم الا هرب وهم يدوسون بعضهم بعضاً الا ضرغاماً والخليفة . ولم تكن الا
لحظة حتى تبين للناس ان الاسد لا يطلب غير الخليفة وقد وثب عليه كبح البصر وقبض بمخالبه
على جانبه وفتح فماً كالمغارة وهم ان يلتقم رأسه فبغت المعتصم واخذ يبحث بعينه ويده
السائبة عن اداة او سلاح واخذته الدهشة فذهبت قوته او نسيها فاصبح لا يجد شيئاً
يدفع به عن نفسه ولا يرى وسيلة للنجاة من براثن الاسد وقد تفرق الناس من بين
يديه خوفاً ودهشة الا ضرغاماً وكان اقربهم اليه فانقض على الاسد وقبض على فمكه
الاسفل بيد وعلى الاعلى باليد الاخرى وهو يقول « لبيك يا مولاي . . انك سالم
باذن الله » وما عم ان سمع الخليفة تمزيق شدقي الاسد . فتخلى الاسد عن فريسته
وتحول الى ضرغام فرمى به ضرغام بعيداً واستل خنجره وأسرع اليه قبل ان يتجمع
للوثوب وقعد على جنبه وطعنه طعنة في لبتة واخرى في خاصرته واخرى تحت ابطه
وقد استفرس وغلبت عليه القوة الغضبية حتى اصبح منظره اعظم هيبة من الاسد
فوقف شارباً واحمرت عيناه وتقطب حاجباه وكاد ينهش ذلك الوحش باسنانه

وحدث جمود في الحضور لحظة ثم رأوا الاسد مضر جأدمه وضرغام فوقه والخليفة
واقف وعيناه شائعتان نحو ضرغام فتقاطروا وعلا صياحهم يهتفون الخليفة وينظرون الى
ضرغام نظر الاعجاب . ولم يتمالك المعتصم ان نظر اليه وابتسم له والاصفرار غالب
على سحنته من اثر البغمة ونسي موقفه فقال « ضرغام بورك فيك من اسد انك والله
ضرغام حقيقة »

فلما سمع اعجاب الخليفة رجع الى رشده فوقف وخنجر في يده يقطر دماً ثم
رمى الخنجر بين يديه وقال « اني عبد امير المؤمنين ولم افضل شيئاً الا ببركته وانا
اعلم انه اولى مني بالانتقام من هذا الوحش ولو ترك لنفسه لم يعجزه قلبه ولكنني غلبت
على وجداني فلم استطع صبراً على ما رأيته من جرأته فقامت بقتله عن مولاي وهي

جسارة اعتذر عنها»

فاجب المعتصم بأسلوبه في الاعتذار وازداد امتناناً له ورأى ان يؤجل ما بقي عنده من الكلام لخلوة وأراد المسير فاحس بالحم في فخذه من اثر مخلب الاسد ولكنه تجلد ومشى وأمر القوم بالانصراف وتحول مع ضرغام الى قصره وامر الحاجب ان يمنع ايأ كان من الدخول عليه في ذلك اليوم الا الطبيب فامر باحضاره ولم تمض لحظة حتى اتى الطبيب فخلوا بالخليفة وكشف عن فخذه فلم يجد اثراً يستحق الاهتمام لان الدرع صانت مواقع الخالب فهناها بالسلامة و اشار عليه ان يمكث في الفراش بقية ذلك اليوم وخرج

الفصل التاسع والعشرون

الخلوة

وتسامع اهل الجوسق بما اصاب الخليفة فتقاطر الوزراء والقواد للسؤال عنه فانباهم الحاجب بما اوصاه به فرجعوا الا ضرغماً فان الخليفة دعاه الى مخدعه فدخل بعد ان غسل يديه واصاح من شأنه • فتحفز المعتصم للوقوف له اظهاراً لا عجاب به فاكب على يده يقبلها ويعتذر عن جسارته فامر له بالجلوس الى جانبه فجلس جاثياً متأدباً فقال له المعتصم « ان حياتي الآن من يدك يا ضرغام »

فاطرق ضرغام استحياءً وقال « النفويامولاي اني لم افعل شيئاً يستحق هذا الاطراء لان الاسد انما مات من نبل امير المؤمنين الذي اصابه في لبتة من قبل وما وثوبه هذا الا من مجاهدة الاحتضار • وهب اني فعلت شيئاً فانا عبد امير المؤمنين افديه بدمي » قال « بورك فيك • • اني طالما اعجبت ببسالتك واخلاصك وانا محاط بالمداحين والممليين لا اثق الا بقليلين منهم وان كنت اظهر وثوقي بهم جميعاً • وان قائداً مثلك يندرفي بلاط الخلفاء في مثل هذا الحيل الفاسد • • ولم اكن اجهد اخلاصك من قبل ولذلك جعلتك رئيس حرسى فانت جدير بهذا المنصب ولا يليق الا بك » ثم بلع ريقه والتفت نحو الباب ثم نحو النافذة كانه يتجسس المكان ليتحقق خلوه من الرقباء واطرق هنيهة وسكت وضرغام مطرق وهو ينظر اليه خلسة ثم رفع المعتصم راسه وقال « اتعلم لماذا اسرعت في استقدامك من فرغانة ؟ »

قال « كلاً يا مولاي »

قال « هل تعلم أنك بين يدي المعتمس ؟ »

قال « نعم يا سيدي اعلم ذلك »

قال « وتعلم ان دولتنا قامت بالمحافظة على الاسرار ؟ »

قال « نعم اعلم ذلك ويتأكد مولاي اني احفظ لسره من صدره »

قال « اعلم اني وثقت بك واعتقدت فيك الاخلاص وصدق الخدمة منذ رايتك

للمرة الاولى وقد شعرت بشيء حبيك الي . . . »

فتحفظ ضرغام للنهوض احتراماً لذلك التصريح وهو يقول « تلك منة لا استحقها

ومن اين جندي مثالي ان ينال هذه الخطوة عند امير المؤمنين واي فضل لي اذا اخلصت

الخدمة لخليفة الرسول اليس ذلك فرضاً على كل مسلم ؟ »

فقال وهو يقعد يده « بلى . ان ذلك فرض على المسلمين ولكن المخلصين قليلون ولو

لا ذلك ما اضطررت الى الخروج من بغداد وانشاء هذه المدينة ولا كان ثمة داع لتجنيد

هذه الاجناد من اقصى تركستان وفرغانة لاستعين بهم على قومي وعشيرتي وعلى اولئك

الفرس الذين اطعمهم اخي المأمون رحمه الله بالدولة . . . اني محاط بالاعداء من كل

ناحية . . . لا يكفيني الاعداء الابعد في اذربيجان وطبرستان فان الاعداء يقيمون في

مدينتي وفي قصري . . . ان هؤلاء الاتراك الذين جعلتهم بطانتي وعهدت اليهم حمايتي

ونصرة هذه الدولة . . . حتى هؤلاء لا ينصروني الا طمعاً بالمال . . . اني اعلم ذلك وانا

صابر لهم اسائرهم واخادعهم وانفق الاموال فيهم وهم يظنون انهم يخذعونني . . . » وسكت

وقد بدا الاهتمام في عينيه فابرقنا بريقاً يوم الناظر اليهما ان الدمع يغشاهما فتهيب ضرغام

من ذلك واطرق ينتظر ما يبدو من الخليفة

ثم رفع الخليفة بصره اليه وقال « ضرغام . . . هل شاهدت الافشين في فرغانة ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « وما الذي ذهب به الى هناك ؟ »

قال « لم يخبرني بسبب ذهابه ولكنني اظنه ذهب يتعهد بلده واهله في عيد النوروز

. . . واطنه قادمًا قريباً »

قال « انه قادم طبعاً لانه لا يجد رزقاً اوسع من هذا ولكن . . . »

فقال « وهل امير المؤمنين في ريب من اخلاصه ؟ »

قال « اني في ريب من ذلك وان كنت لا أجد سبباً صريحاً لارتياحي على اني اغالط نفسي واظهر الثقة به لاننا في حرب لا غنى لنا فيها عن الافشين ورجاله وانتمى ان اكون مخطئاً بظني والذي ابغيه منك الآن ان تكون موضع ثقتي ولا تفارق قصري . . . »
فاجابه على الفور « اني عبد امير المؤمنين وطوع اشارته »

قال « وانت منذ الآن صاحبي ومع ان اسمك اليق الاسماء يسالئك فقد اخترت لك اسم « صاحب » فانت من هذا اليوم تسمى صاحب لانك لا تزال مصاحبني افهمت يا صاحب . . »

فحنى ضرغام رأسه شكراً وامتناناً وقال « لقد تكاثرت علي نعم امير المؤمنين ولا اراني اهلاً لها ولكنه اراد ان يرفع صنيعته و . . . »
فقطع الخليفة كلامه قائلاً « كيف لا تكون اهلاً لذلك وانت انقذت حياتي من بين براثن الاسد ؟ »

فزاد ضرغام استحياءً وخجلاً وقلبه يرقص طرباً لعلمه ان ترقيه في عيني الخليفة وتقريبه اليه يسر حبيبه جهان ويشعر انه صار اهلاً لها — والمحبون انما يطلبون العلى ارضاءً لاجبائهم — ولكنه نظر الى الخليفة مضياً وقال « لم اعد استطيع الشكر على نعم مولاي فاعذرني »

فقال اذا كنت تعد هذه السفاسف نعماً فكيف اذا علمت بما اعدته لك من النعم الحقيقية ؟ »

فظل ضرغام ساكناً واستأنف الخليفة الكلام قائلاً « قد علمت انك لم تتزوج بعد انما تقع مويم والدتك على حدة . . . فاردت ان تقيم في قصر اخصه لكما بجوار هذا القصر وقد ان لك ان تتزوج . . . اليس كذلك ؟ »

فاطرق ضرغام باحترام وقال « الامر لمولاي »

قال « وقد اعدت لك جارية تركية من اجمل النساء عرفت فيها الذكاء والجمال . رأيتها منذ عام وبعض العام وما زلت منذ رأيتها وانا اخبر ان تكون زوجة لك »

فلما سمع ضرغام قوله اسقط يده لان قلبه ليس له . . . وقد احب جهان ولا يريد ان يجب سواها ولكنه لم يستطع مخالفة الخليفة ولا استطاع التأمين على قوله فظل ساكناً وقد حار في امره

فراى المعتصم حيرته فلم يخطر له انه يرد طلبه فقال « لماذا لا تجيب ؟ الم يعجبك

« اقتراحي ؟ »

قال « كيف لا فان جوار امير المؤمنين غاية مرادي » وسكت عن امر الزواج فظنه الخليفة سكت حياء فقال « والزواج . . العلك تختلف عن سائر الناس وليس في جندي واحد لا يتمنى الزواج ولذلك فاننا ابعث في ابنياع الجوارى لهم من تركستان لهذه الغاية كما تعلم لانني لا احب اختلاطهم باولئك السوقة ببغداد وغيرها لئلا يغلب عليهم التخت ام لعلك تفضل ان تختار لنفسك جارية من الجوارى اللواتي ابتمموهن في هذه السفرة . ولكنني واثق انك لا تجد في تركستان كلها فتاة اجمل من التي اخترتها لك . وبكفي ان اختياري وقع عليها وانا اعلم ان قوادي يتنازعون فيها لفرط جمالها وذكائها ولكنني قد اختصتكم بها دونهم . . »

فلم يجد ضرغام سبيلاً للجواب ولا استحسن انصرح بما في خاطره واجل القطع بذلك لفرصة اخرى فقال « ان الزواج لا عجلة فيه الآن ونحن اما في حرب او نتاهب لحرب ومتى فرغنا من ذلك فاني طوع اشارة امير المؤمنين »

فاكتفى المعتصم بما سمعه واعجبه منه تأهبه للحرب واراد طمأنته فقال « وهب اتنا في حرب فلست تاركان تفارق قصري . . وسترى . وانما انقدم اليك ان تنتقل بوالدتك الى هنا كما قلت لك واخبرها ان اسمك من اليوم « الصاحب » وساوصي بطانتي وقوادي وسائر رجال دولتي بذلك » ثم تزحج من مكانه بشكل فهم منه ضرغام انه ياذن بانصرافه فتحفز للنهوض وهو يقول « اياذن امير المؤمنين بانصرافي لاخبر والدتي بما امر ؟ »

قال « انصرف اذا شئت وانا موعز الى القهرمانه ان تهيم لكم المنزل اليوم » فمشى ضرغام ووجهه نحو المعتصم حتى صار بالباب وخرج . فصاح الخليفة بالحاجب فدخل وامره بما تقدم

اما ضرغام فبعث الى وردان فجاءه بالفرس فركبا وسارا يلتمسان البيت وضرغام غارق في بحار الهواجس تتقاذفه الافكار وقد سره اعجاب الخليفة به ودعوته اياه ليقيم بقربه وليسكن ساءه امر الزواج على انه لم يماق عليه كبير اهمية اذ لا دخل له بالسياسة فيسهل التخلص منه

الفصل الثلاثون

رأي آفتاب

فلما وصل الى منزله سبقه وردان فبشر والدته بقدمه فعرفت وردان من صوته وقلظت بالسؤال عن حاله ثم وصل ضرغام فتلقته والدته وقبلته وكانت قد اعدت له الطعام فجاس على المائدة وفكره مشغول بما سمعه من الخليفة فشعرت آفتاب بالتغير الذي طرأ عليه في تلك الغيبة من سكوته فقالت « هل لقيت امير المؤمنين »

قال « نعم يا اماء لقيته »

قالت « كيف هو وهل اخبرك بسبب استقدامك السريع ؟ »

فأبطأ في الجواب لانه خاف اذا قال لها كل شيء ان يكون قد خالف الوعد وابع بالسر ثم قال « قد اخبرني . . . ولكن حدث امر غريب »

قالت « وما هو ؟ »

فقص عليها خبر الاسد وما كان من دفاعه عن الخليفة فانشرح صدرها وبان ذلك في محياها ثم اخبرها ان الخليفة غير اسمه ونهى عن ان ينادى ضرغام وانما ينادى « صاحب » وذكر لها السبب فزاد سرورها بتلك القربي ثم قال « وقد دعاني للاقامة بجواره »

وكانت تقطع لثمة من الرغيف لتتناولها فلما سمعت قوله ظهر الارتباك باناملها وشخصت بعينها البيضاوين اليه وقالت « دعاك للاقامة بجواره ؟ لماذا ؟ »

قال « لا كون ملازماً له . . . وذلك اكرام عظيم »

قالت وقد توقفت عن ازدراد ما في فيها من الطعام « هل يريد ان اكون انا معك ايضاً ؟ »

قال « نعم وقد ذكرك على الخصوص وقال تسكن انت ووالدتك هنا »

فتغير لونها وتشاغلت بالمضغ وبان قلقها من تسرعها فيه وقالت « اذهب انت وحدك . . . ولا حاجة بي الى الاقامة بقصر الخليفة »

قال « ولماذا يا اماء . . . اذا كنت لا تريد من الذهب معي فانا ايضاً لا اذهب »

قالت « اذهب ان القربي من الخليفة شرف بتمناه القواد واما انا فامكت هنا علي ان يتردد الي حيناً بعد آخر لالمسك واقبلتك »

فتعجب ضرغام من استنكافها وابتائها وقال « بل تذهبين معي فنقيم هناك كما نقيم هنا وقد وعدت الخليفة بذلك ولا سبيل الى التغيير »
 فوجت حيناً ثم قالت « ننظر في ذلك بعدئذ »
 قال « ليس لنا وقت للتفكير فاننا منتقلون في الغد . ري مسعودة بالاستعداد وساوصي وردان ان يساعدها . ولا ريب انك ستستأنسين بمن في قصر الخليفة من النساء فنقضين ساعات النهار بالتسلية والاحاديث او سماع الغناء وذلك افضل من بقائك منفردة هنا . وزد على ذلك اني في حاجة الى وجودك هناك لامر مهمني انا »
 فتصاعد الدم الى وجنتيها وتغيرت سمحتها ودارت عينها دورة تكاد تنطق بما اعترض فكرها من الارتباك وقالت « اما الاستئناس فلا ابغيه من سواك فانت تعزيتي الوحيدة لا اطلب سواها . بل انا اشتراط عليك اذ كان لا بد من اقامتي هناك ان تطلق لي الحرية بالبقاء في المنزل لا اخرج الى احد . وقد ذكرت انك تحتاج الي فما هي حاجتك وهل اقدر على شيء وانا كيفية البصر كما ترى ؟ »
 قال « انت ضوئي وان كنت ضريرة وسأوسطك في انقاذي من سعادة قد اعدها الخليفة لي »

قالت « انقاذك من سعادة ؟ ماذا تعني ؟ »

قال « اعني ان الخليفة لفرط اهتمامه بسعادتي قد خطب لي جارية تركية قال انها أجمل نساء هذه المدينة وانه احتفظ بها من اجلي وقواده يتنازعون عليها »
 قالت « وماذا قلت له ؟ »

قال « اجلت الجواب لاني استحييت من الرفض »

قالت « هل انت عازم على رفضها ؟ »

قال « وكيف اذاً . هل اقبل بها ؟ »

فسكثت وتذكرت انه عالق القلب بجهان فقالت « وكيف ترفض امر الخليفة ؟ »

قال « وجهان ؟ اليست هي عروسي ؟ »

قالت « لذلك انت تحب ان اكون معك . . تريد ان احتال لانقاذك من هذه الخطبة . . ان ذلك هين »

فانشرح صدره وقال « اذاً غداً ننتقل جميعاً . . قولي لمسعودة ان تستعد للانتقال . . واحذري من الآن وصاعداً ان تناديني ضرغاماً فان اسمي « صاحب » كما قلت لك واذا

دعيتني بغير هذا الاسم يستاء الخليفة «
 قالت « لك علي ذلك » وكانوا قد فرغوا من الطعام فامرت آفتاب مسعودة
 بالاستعداد وهو امر وردان بمساعدتها
 وفي اليوم التالي انتقل الجميع الى قصر الخليفة واقاموا في منزل يجانبه وليس معهم
 من الخدم الا ووردان ومسعودة . اما حاجياتهم فيقضيها خدم الخليفة

الفصل الحامى والثلاثون

احمد بن ابي دواد

فضى صاحب في جوار الخليفة اباماً وهو يتوقع ان يسمع خبراً عن جهان او يأتيه
 نبأ بقدمها وقد ازداد رغبة في سرعة مجيئها للتخلص من الجارية التي دبرها له الخليفة . ولم يكن
 يرتاب في ان الخليفة اذا رأى جهان زهد في سائر نساء الارض فلا يلومه حينئذ اذا ابي
 التزوج بسواها . وطال غيابها حتى استبطأها وشغل خاطره لتاخرها وانقطاع اخبارها
 وضاق صدره عن كتمان ذلك القلق فاستدعى وردان اليه ذات يوم فلما حضر قال له « ما
 قولك باهل فرغانة »

فهم وردان قصده وقال « اتعني مولاتي جهان ؟ »

قال « طبعاً اعنيها هي وقد كنت على موعد من قدومها الى هنا بعد انقضاء مدة الحزن
 فضت عدة اسابيع ولم تأت ولا سمعنا عنها خبراً فما رأيك ؟ »
 قال « اتريد ان اذهب للتفتيش عنها ؟ »

فاستغرب صاحب تفانيه في سبيل خدمته وابتسم له وقال « بورك فيك ياوردان . .
 لا اكلفك هذه المشقة ولكنني استشيرك في الامر »

فاطرق وردان واعمل فكرته ثم قال « الرأى عندي ان تصبر مدة اخرى لاتكون طويلة
 نصبر حتى يصل مولانا الافشين فانه عائد من فرغانة كما تعلم »
 قال « ومتى يكون هذا ؟ »

قال « جاءت البشائر بقرب وصوله فاذا جاء سألناه او سالنا بعض رجاله لانهم قادمون
 من هناك حديثاً »

فاستحسن ضرغام قوله « بعض رجاله » فقال « ارى ان تتولى انت امر البحث في هذا الشأن من بعض رجال الافشين »

قال « فهمت مرادك . وهذا ما خطرت لي ولم اجسر ان اعارضك »

فضحك الصاحب (او ضرغام) واظهر الاستئناس برأى وردان وقال « لانكتم رايًا ترى فيه مصلحة لي واعلم اني اعدك منذ الآن رفيقًا لي لا خادمًا لاني اراك ارقى من ذلك كثيرًا »

فاطرق وردان احترامًا وقال « اني لا ازال خادمك اتفاني في خدمتك . اتأذن لي ان اذهب لملافاة حملة الافشين قبل وصولها »
قال « افعل ما بدالك »

فودعه وخرج

ومكث ضرغام ساعة في قصره ثم جاءه رسول من المعتصم بدعوه اليه فلبس سواده وذهب الى القصر فقبل له ان المعتصم في خلوة مع قاضي القضاة احمد بن ابي دواد في دار الخاصة وانه امره بادخاله عليه حال وصوله

وكان ضرغام يعرف منزلة ابن ابي دواد عند الخليفة وانه لا يختلي به الا لامر ذي بال فاستاذن ودخل فرأى الخليفة جالسًا على سريره في صدر القاعة واحمد بن ابي دواد على كرسي بين يديه

وكان احمد هذا معروفًا بالمرورة والعصبية ومع انه عربي الاصل ينسب الى بني اباد والمعتصم قد ابعد سائر العرب من مجلسه وقطع اعطياتهم وحط من اقدارهم واختص الاتراك بيطانته فقد كان شديد الثقة به لا يميّز امرًا الا بمشورته ولا يشاور وزراءه

واصل ابن ابي دواد من قرية في قنسرين واتجرا بوه الى الشام واخرجه معه وهو غلام فنشأ في طلب العلم ولا سيما الفقه والكلام حتى فاق معاصريه وكان معنزيًا فصيحًا قوي الحجّة ونال عند المعتصم حظوة ودالة لم يسبقه اليهما احد حتى صار يفتح الكلام في حضرته وكانت العادة عند الخلفاء ان لا يبدأهم احد بالكلام حتى يخاطبوه . ومن أمثلة دالته هذه ان المعتصم غضب مرة على خالد بن يزيد الشيباني واشخصه من ولايته لعجز لحنه في مال طلب منه واسباب غير ذلك . فجلس المعتصم لعقوبته وكان قد طرح نفسه على القاضي احمد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس لعقوبته حضر القاضي احمد فجلس دون مجلسه الاعنيادي فقال له المعتصم يا ابا عبد الله جلست في غير مجلسك . فقال ما ينبغي لي ان اجلس الا دون مجلسي هذا . فقال له

وكيف قال لان الناس يزعمون انه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع . قال فارجع الى مجلسك . قال مشفعاً او غير مشفع قال بل مشفعاً فارتفع الى مجلسه . ثم قال ان الناس لا يعلمون رضا امير المؤمنين عنه ان لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا امير المؤمنين قد استحق هو واصحابه رزق ستة اشهر لا بد ان يقبضوها وان امرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد امرت بها . فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه وان الناس في الطرق ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله علي خلاصك يا سيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله احمد بن ابي دواد (١)

هذا مثل من عدة امثلة تدل على نفوذ ابن ابي دواد ولم يكن ذلك خافياً على ضرغام فلما دخل على المعتصم والقاضي احمد عنده علم انه دعي لامر ذي بال . فلما اقبل على الخليفة حياه بتحية الخلافة قائلاً « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فهش له المعتصم وناداه اليه وامره بالجلوس على كرسي بجانب احمد وهو يقول « مرحباً بالصاحب » والتفت الى القاضي وقال « اظنك تستغرب تسميتي هذا القائد بغير اسمه فاعلم اني عملت بحسن رأيك فيه فقد طالما اثبتت على شهامته واخلاصه وقد رأيت منه فوق ما وصفت حتى عرض بنفسه للموت من اجلي . انه اتقدني من براثن الاسد ببسالته فقر بته وسميته الصاحب وهو الآن يقيم في بعض قصوري . . »

وكان ابن ابي دواد في نحو الستين من عمره قد وخط الشيب لحيمته وعارضيه فازداد جلالاً ووقاراً وهو يلبس زي القضاة بالعمامة الطويلة والطيلسان الرفيق فلما سمع اطراء المعتصم وترحيبه بضرغام هش له وحياه والتفت الى المعتصم فقال « ألا يرى امير المؤمنين ان حسن ظني في محله ؟ . اني من يوم رأيت الصاحب لأول مرة نزل من نفسي منزلاً رقيقاً وتوفقت له مستقبلاً مجيداً اعانه الله على خدمة امير المؤمنين »

فقال المعتصم « وبناءً على ذلك فأرى ان لا تخفي عنه ما يدور بيننا »

الفصل الثاني والثلاثون

القواد والأتراك

وكان ضرغام قد جلس متأدباً ينظر ما يأمر به الخليفة فقال الخليفة « اعلم يا صاحب اني كنت والقاضي نتداول في ما بلغنا من اخبار ذلك المجوسي في ارمينيا »
 فعلم ضرغام انه يعني بابك الخرمي القائم على الدولة في اربيل وكان عالماً بقيامه وبوقائع جرت بينه وبين جند المسلمين ولم يظفروا منه بطائل حتى استفحل امره فقال « وهل احدث هذا الرجل حدثاً جديداً »

فقال القاضي « لا يخفي عليك ان بابك الخرمي تمرد على امير المؤمنين بارمينا فرماه بالافشين ورجاله مرة وبيغا ورجاله مرة أخرى والمسافة بيننا وبين ارمينيا بعيدة فكانت الحرب سجالاً ولا يزال الرجل معتصماً هناك وامير المؤمنين . . » قال ذلك ونظر الى المعتصم فقطع المعتصم كلامه قائلاً « قلت لك يا صاحب اني لا اثق بالافشين هذا ولا اعلم كيف استغني عنه وقد شاهدته انت في بلاده وبين اهله وعشيرته فكيف رأيت هناك ؟ »

قال « ان لهذا الرجل سطوة عظيمة في تلك البقاع انهم يعدونه ملكاً كبيراً ويسمونهم ملك الملوك وبعضهم يخاطبه بالالهة كانوا يفعلون ذلك قبل اسلامه اما الآن فهو يستكشف من ذلك وقد رأيت يا امير المؤمنين من نفوذ كلمته عندهم شيئاً عظيماً حتى يجتمع لندائه الوف الالوف من الرجال . واذا رأى امير المؤمنين ان يخرج من خدمته فانه فاعل ما يشاء واذا شاء ان يرمي بي في مكانه بذلت دمي وروحي في مصلحته . لا ازعم اني اقدر على ما يقدر عليه ذلك الرجل ولكنني اعترف بان طوع ارادة امير المؤمنين والنصر من عند الله يؤتية من يشاء »

فقال القاضي وهو بوجه خطابه الى المعتصم « ان صاحب يعبر عن اخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة ولكنه لوسئل عن عاقبة هذا التبديل لما جهل الخطر الذي يترتب عليه . لا ارى ان يعلم الافشين او احد من رجاله بما يخالج خواطرننا من هذا القبيل واذا اذن امير المؤمنين قلت رأياً لعل فيه نفعاً »

فقال « قل ما بدالك » والتفت الى ضرغام وقال « ان القاضي احمد بنوب لدينا

عن الوزراء والمشيرين فعندنا من الوزراء والخاصة غير واحد كما تعلم ولكنني لا أثق بأحد منهم وثوقي به . . . قل ايها القاضي «

فقال « ان الافشين ملك في بلده وعند الجند والاعوان وقد رضي بخدمة امير المؤمنين طمعاً بالمال . . . ويتحدث بعض الناس انه لا يخدم المسلمين الا لذلك ولو ترك لرغبته لانضم الى بابك و حاربنا . وهو اذا صح اسلامه فلا يزال حديثاً فيه فاذا جافناه انقلب علينا واذا اتحد مع بابك اخشى اتحادها لاسباب لا تخفى على امير المؤمنين . . . والذي اراه ان نظيره له الثقة باخلاصه ونشتره بالمال هو ورجاله ونضرب بهم ذلك المجوسي المتمرّد في ارمينيا فاذا غلبوه كفونا شره واذا اتضح لامير المؤمنين بعد ذلك خيانة الافشين هان علينا الاقتصاص منه اذ يكون منفرداً . واذا كان مخلصاً نال ما يستحقه من الرضى والنعم «
فاحس ضرغام عند سماع قول القاضي ان الرجل يتكلم عن تعقل ودهاء ولو ترك هو لنفسه لم يصل الى هذا الحكم لانه من اهل الشجاعة وليس من اهل الراي و بندر اجتماع الشجاعة والراي في واحد . فقال الخليفة « ارى قاضي القضاة يباليغ بتخوفنا من هذا الفارسي او الاشروسي وقد فاته من في جندنا من القواد العظام وكل منهم يدافع عن دولتنا برجاله وعدته «

قال « صدق امير المؤمنين عنده اشناس التركي وايتاخ وبغا وسيا وغيرهم ولكن هؤلاء نشأوا من العامة ليس لاحد منهم ما للافشين من الهيبة في نفوس الجند قد سمعنا الآن ما لهذا الرجل من السطوة في قومه وهم الوف الالوف فاذا اغضبناه لا يقوم هؤلاء مقامه . ولولا تمرد بابك هذا لم نكن لنخشى بأس الافشين ولا سواء . وانت يا امير المؤمنين شجاع باسل وقد ايدك الله بالخلافة فلا ترى الركون الى الحيلة او الصبر على المكاره ولكننا نعلم من الحديث المأثور انه قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة واذا وثقت بي فهذا راي والافانا وسائر رجال الدولة رهن ما تريد نبذل دمائنا وارواحنا في طاعتك «

فالتفت المعتصم الى ضرغام كأنه يستفهمه رأيه فقال ضرغام « اني لا ارى رداً اعلى قول قاضي القضاة ولم اكن لافظن لما فظن هولاء من حسن السياسة وقد سمع امير المؤمنين جوايي فاني رجل سيف اصدع بالامر فاذا رميت بي اذريجان او تركستان او ارمينيا ركبت اليها ودمي على كفي ولكن الصواب في ما قاله القاضي والراي طبعاً يرجع الى امير المؤمنين «
فقال المعتصم « قد انتدبتكما الآن للنظر في هذا الامر لسببين الاول ان طلائع

الافشين جاءت تبشر بقرب وصوله والثاني قد جاءنا جاسوس من ارمينيا ان بابك الملعون قد استفحل امره ووربما تحرك نحونا فلا ينبغي ان نمكث هنا في انتظاره .
 قال القاضي « لا اظنه يجسر على القدوم وانما هو يقنع ان تركه في مكانه وفي كل حال فالذي اراه ان نحتفل بقدوم الافشين ونبالغ في اكرامه حتى نفرغ من حاجتنا اليه »
 فقال المعتصم « قد عودتني ان لا اخالف لك رايًا وها اني مرسل اليه من بلاقيه بالهدايا والتحف »

الفصل الثالث والثلاثون

المسجد الكبير

وهم في ذلك سمعوا صوت الاذان لصلاة العصر فتحفز الخليفة للقيام وصفق فجاء الحاجب فامر ان يجبر صاحب وضوئه بقرب الصلاة وانه سيصلي العصر في المسجد الكبير .
 فلم يبق لضرغام والقاضي بد من الذهاب الى الصلاة معه في ذلك المسجد وهو مسجد سامرًا بناه المعتصم وبالغ في اتقانه على شكل لم يسبق له مثيل في الاسلام فجعل جدرانها مرايا وخصوصًا المحراب حتى اذا وقف الخليفة للصلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه وبني له منارة عظيمة على شكل لولبي مكشوف يصعد اليها على درج لولبي في ظاهرها يشبه منارة جامع ابن طولون في مصر^(١) او لعل ابن طولون بناها على مثال تلك . وكان المعتصم يصلي غالبًا في ذلك المسجد لانه على مقربة من قصره . فلما تحفز للنهوض استاذن احمد وضرغام في الانصراف وذهب كل منهما الى منزله توضى ويمم المسجد
 دخل الخليفة اولًا والناس وقوف للتبرك بروثيته وفيهم القواد والوزراء حتى اذا دخل المقصورة الخاصة به دخل رجال الخاصة في اثره وفيهم القاضي احمد وعبد الملك الزيات وزيره وقواد الاتراك الذين ذكرناهم . واما ضرغام فدخل حتى وقف في جملة الحاشية وكانت المرايا في الجدران على شكل غريب يرى الناس صورهم فيها كان امامهم مسجد آخر فيه اناس يصلون ووقف ضرغام في جملة الواقفين للقيام بفروض الصلاة

(١) سير الملوك ١٦٢ و 3 Tafel, Samarra, Herzfeld, E.

وبينما ضرغام واقف يصلي وعيناه على المرايا في المحراب يرى الناس يدخلون من الباب وراءه ممن يعرفهم ولا يعرفهم وقع بصره على رجل لم يكده يثبتته حتى اجفل ولم يتالك ان التفت الى الوراء ليتحقق ظنه فاذا هو مصيب في تحيله . وكان قد رأى بالمرآة صورة سامان اخي جهان وناهيك بهرآه من مدهش لضرغام وهو في ذلك القلق على جهان . فتلطف في النقهر رويداً رويداً حتى دنا من الباب ورآه سامان بنقهقر فسبقه الى صحن المسجد فخرج ضرغام في اثره وهو يتفرس فيه ويكاد ينكره لما رأى في حاله من التغيير عما يعلمه . فقد فارقه في فرغانة وعليه لباس اهل الوجاهة من الاقمشة الثمينة بالترتيب والنظافة مما يعوض عن قبح صورته بعض الشيء فرآه تلك الساعة في حالة يرثى لها من الضعف وراثثة الثوب وقد ربط زنده وعصب رأسه ووقف ذليلاً كئيباً فأثر منظره فيه تأثير الاشفاق والخوف لئلا يكون قد اصاب جهان سوءة فصاح به « سامان ؟ ام انا غلطان ؟ » قال « نعم انا سامان ياسيدي »

فقال « ما بالك ماذا جرى لك ؟ ابن جهان »

قال « اذا اذنت لي بخلوة قصصت عليك كل شيء فقد تعبت من البحث عنك في سامراً وانا اسأل فلم يهدني اليك احد فأتيت المسجد لعلني أراك فاعرفك فتوفقت الى ذلك » فأشار اليه ان يمشي في اثره في صحن الجامع وهو يقول « يظهر انك سألت عني باسمي القديم (ضرغام) وانا اليوم لا يعرفني احد بهذا الاسم وانما انا اسمي الصاحب . . . قل ابن جهان ماذا جرى لكم مالي اراك رث السربال على هذه الحال » وكان قد انتهى من الصحن الى بناء مربع بشكل الكعبة كان المصمم قد بناه هنا ليحج الناس اليه بدل حجهم الى كعبة مكة واتخذ منى وعربات^(١) حتى لا يبقى له حاجة الى العرب ولا الى بلادهم وقما افلح بذلك . وظل البناء باقياً فرأى الساحب ان يدخل اليه للخلوة بسامان اذ لم يبق له صبر حتى يصل الى المنزل فدخل الكعبة وأشار اليه ان يجلس على دكة هناك وهو يقول « اخبرني حالاً ابن جهان وماذا جرى لكم »

فجلس وهو يتنهد ويتسكن وقال « احمل اليك خبراً لا يسرك »

فاضطرب ضرغام وقال « قل حالاً هل اصاب جهان سوءة ؟ »

قال « لم يصيبها سوءة ولكن . . . » وبلغ ريقه

قال « ولكن ماذا ابن هي ؟ قل »

قال « لادري اين هي ياسيدي . . . قد خطفها مني اللصوص » قال ذلك وتظاهر بالبكاء
فصاح ضرغام صيحة الاسد وحمق عينيه وقد قفَّ شعر شاربيه واصبح منظره مخيفاً
وقال « اختطفوها ! من تجاسر على ذلك ؟ »

قال « لا اعلم يا سيدي من هم اولئك اللئام الذين اختطفوها ولكنني اسأذنبك بالتمهل
علي حتى اقص عليك الخبر كما وقع »

فصبر ضرغام نفسه وتمالك وقال « قل ولكن اختصر ! »

قال « فارقتنا يامولاي وظللنا في فرغانة بعد سفرك بضعة ايام ذقنا فيها الامرين »
قال ذلك وارسل بصره الى صحن الجامع وخفض صوته كأنه يحاذر ان يسمعه احد فلما
تحقق خلوا المكان من السامعين قال « ان مصيبتنا انت من اقرب الناس الينا . انت من
الرجل الذي اوصاه والدي بنا . فالانشين لم يكتفِ انه حرمني من ارث والدي حتى مدَّ
يده الى اختي . . . »

فاقشعر بدن ضرغام من ذلك التعبير مع اعتقاده انه يعني تعديه على حصتها من الارث
كما تعدى على حصته ولم يخطر له شيء وراء ذلك فلما سمع قوله قال « اظنه طمع بشيء من
حقها في الارث »

فتشاغل سامان بحك ذقنه الاجرود وتنحنح وظل ساكتاً فارتاب ضرغام في امره فقال
« اليس كما قلت لك ؟ »

قال « لو انه اكتفى بالارث لكان خيراً ولكنه طمع فيها هي نفسها . . . ويسوءني
ان اغضبك بهذا الخبر ولكن هو الواقع ويجب علي ان اصدقك . . ان الافشين على كمولته
طلب الاقتران باختي ولا بد انه عالم بانها مخطوبة للبطل صاحب وانها يستحيل ان
تقبل بسواه »

١١

فقال ضرغام وهو يرتعد من التأثر « وبعد ذلك . . ماذا فعل ؟ »

قال « لم يفعل شيئاً لاننا تداركنا الامر بالفرار فقررت انا وجهان في قافلة بما خف حملته
من المال والمتاع ولم يخبر احداً من اهل القصر الا القهرمانة خيزران اخذناها معنا وركبنا
بامرع ما يمكن نطلب سامراً قبل ان يعلم الافشين بنا فقطعنا البراري والقفار وقاسدنا عذاباً
شديداً من الحر والبرد والتعب حتى دخلنا خراسان ودنونا من همدان . وقد فارقتنا القافلة
وحسبنا انفسنا صرنا بامان . فاعترضنا قوم على خيولهم نظنهم من قطاع الطرق فدافعنا عن
انفسنا دفاعاً حسناً جهد طاقتنا حتى تعطلت يدي وجرح رأسي وكنت اود ان اقتل وتقي

جهان سالمة اكراماً لك ولكن .. »

فصاح به « ولكن ماذا؟ هل اصابها سوء؟ .. اليست هي حية »

قال « هي حية ياسيدي ولكنهم خطفوها وذهبوا بها وبقرماتها وآخر كلمة سمعتها منها قولها « سلم على ضرغام واخبره بما جرى »

فتعاضم غضب ضرغام حتى غلى دمه واحمرت عيناه وقال « ومن هم اولئك اللصوص؟
ألم تعرف احداً منهم؟ »

قال « كلاً لانهم كانوا ملثمين ولم يفوهوا بكلمة ولا سمعناهم صوتاً كأنهم فعلوا ذلك عنوةً
خوفاً من انكشاف امرهم »

الفصل الرابع والثلاثون

همذان

فاطرق ضرغام مدة كان فيها كالضائع يحسب نفسه في حلم او كأنه انتقل الى عالم آخر حتى انتبه لجلبة الناس في اثناء خروجهم من المسجد وتذكر ان الخليفة معهم يخاف ان يراه مخبئاً فيشك في امره فخرج واختلط برجال الدولة و اشار الى سامان ان ينتظره فظل واقفاً في مكانه . وبعد قليل انفرج الوقوف وشقوا طريقاً للخليفة ووقفوا للتحية والاحترام فمر بهم المعتصم وهو يتفرس في وجوههم حتى وقع بصره على ضرغام ف اشار اليه ان يتبعه فاستعاذ بالله وخاف ان يكون من تلك الدعوة مايجول دون البحث عن جهان . وتفرق الناس عن الخليفة رويداً رويداً حتى وصل الى القصر ولم يبق معه غير ضرغام فدخل و اشار اليه ان يلحقه ففعل حتى وصلوا الى غرفة خصوصية فتحول الخليفة نحوه وقال « رأيتك خرجت من المسجد قبل الفراغ من الصلاة »

فخجل ضرغام من هذا الاستفهام وقد فاته ان الخليفة يرى الخارجين والداخلين بواسطة المرايا كما رأى هو سامان ولكن رؤية سامان فجأة انسته نفسه وموقفه . فلما ساله الخليفة عن سبب خروجه لم يرد شيئاً من الاعتذار فقال « خرجت لمشاهدة رجل لم اكن انتظر رؤيته ويهمني امره وكان ينبغي ان اتم الصلاة حتى اخرج في اثر امير المؤمنين فاعتذر لمولاي واعد توبيخه هذا التفاتاً كبيراً الى صنيعته »

قال « اني كثير الاهتمام بشؤونك لانك صاحبي فارجو ان لا يكون عليك باس مما رأيتهُ او سمعته »

فرأى ضرغام الفرصة مناسبة للاستئذان في الذهاب الى همدان فقال « لا بأس عليّ مادمت في ظل مولاي امير المؤمنين ولكن قوماً من اهلي كانوا قادمين من فرغانة الى العراق فاصابهم ما اخر وصورهم فبعثوا يستعينون بي على ذلك فهل بأذن مولاي بذهابي بضعة ايام؟ » فاطرق المعتصم ثم قال « سر ولا تطل الغياب واذا رأيت ان تستعين بجند او يريد افعل » فانحنى ضرغام شاكراً واستأذن بالانصراف ورجع الى المسجد حيث ترك سامان وقد سره اهتمام المعتصم بأمره ولكنه ظل مضطرب الخاطر لما سمعه عن جهان وعن الافشين وكلاهما ثقيل على السمع وعلى القلب ولم يكن الافشين قد وصل الى سامرا فرأى ضرغام المبادرة الى همدان فامر باعداد افراس البريد ينتقل بها هو وسامان وذهب لوداع والدته وقال لها انه ذاهب في مهجة وقتية يعود منها بعد بضعة ايام فقبلته وودعته فركب في ذلك المساء وقبله يكاد يسبقته الى همدان من شدة القلق وكل ما وصل الى محطة من محطات البريد لاجل تبديل الركائب يسأل الناس هل سمعوا بلصوص بقيمون في بعض الاماكن هناك وكان يواصل السير نهراً ولبلاً لا ينام الا قليلاً حتى دنوا من همدان وبجانها جبل وعمر وطريق البريد بجانب ذلك الجبل وفيه محطة لخيل البريد فلما وصل الى هناك سأل سامان « ألا نذكر المكان الذي جرت فيه الواقعة »

قال « وراء هذا الجبل على ما اظن »

وكان وصولهم الى ذلك الجبل نحو الغروب وقد اعد له اصحاب البريد منزلاً يبيت فيه ويتناول ما يحتاج اليه من اسباب الراحة ولكنه لم يستطع صبراً الى الغد . وكان في تلك المحطة غير واحد من السعاة والكوهبانية واصحاب الاخبار التقوا هناك صدفة وكل منهم سائر في طريق وعلم صاحب تلك المحطة ان صاحب من خاصة الخليفة وقد جاء للبحث عن شيء هام وانبا الاخرين بذلك فاصبحوا يتوقعون امره فسأل صاحب تلك المحطة قائلاً « العلك هنا من زمن طويل »

قال « من بضعة اسابيع ونحن اصحاب البريد ننتقل دائماً فهل يريد مولاي خدمة

نقوم بها »

قال « اشكرك ولكنني احب ان اعلم اذا كنت سمعت بلصوص او قطاع طريق يعتصمون في بعض هذه الاودية او الجبال او يرون من هذه الامكنة »

قال « فلما نسمع بشي من ذلك ولكنني سمعت بالامس ان جماعة من قطاع الطرق معتصمون وراء هذا الجبل ولم يصل خبرهم الى الحكومة بعد على ما اظن »
فلما سمع ضرغام قوله لم يتالك عن المبادرة الى الامر فقال « ارسل معي رجلاً يهديني الى اولئك اللصوص » ومشى

فاجب الرجل بشجاعته ومبادرته الى الذهاب وحده فقال « الا ترى يا سيدي ان نرسل احداً للبحث عنهم وتمكت انت هنا ؟ »

قال « كلا يكفي ان نرسل معنا رجلاً يدلنا على الطريق » ومشى وسيفه الى جانبه وقد التف بعباءته والكوفية حول رأسه وتبعه سامان ورجل من خفر تلك المحطة سار امامهم في شعب وعرة وقد غابت الشمس واخذ الظلام يتكاثر وضرغام مطرق لا يلتفت ولا يتكلم حتى انتهى الى منعطف في ذلك الجبل فوقف الدليل و اشار بيده الى نور ضعيف على اكمة امامهم وقال « هذا مقر القوم ياسيدي واخاف ان يستغشونا ويلحقوا بنا اذى »

فقال « لا تخف امكث انت هنا مع سامان ريثما اعود اليكما »

الفصل الخامس والثلاثون

المعتصم والعرب

فاظهر سامان انه يفضل الذهاب في خدمته ولكنه ابقاه هناك ومشى وحده وهو يتعثر بالحصى ويسمع لوقع نعاله قرقرة كأن غضبه اعماه عن الخطر الذي يهدده بالمسير وحده على تلك الصورة ولكنه كان شديد الاعتقاد بقوته كثير الاعتماد على بساآته . حتى اذا صار على مرمى سهم من المنزل رأى اشباحاً تراوح بينه وبين المصباح وسمع هريز الكلاب فلم يبال . وراه القوم قادماً وحده فلم يخاطر لهم انه عدو لهم ان العدو لا يجسر على القوم منفرداً فتصدر واحد منهم وصاح « من هذا ؟ »

فقال ضرغام « قادمٌ يبحث عن ضائع . . ابن هو كبيركم »

قال « قف عندك حتى ناتيك والا عرضت نفسك للخطر »

فوقف لحظة رأى في اثنائها القوم في حركة وتهامس ثم تقدم واحد منهم ويده

قبس وقد نلتهم بكوفية والتف بعباءة فتفرس ضرغام فيه فلم يعرفه ولكنه تحذر منه فجعل يده على قبضة سيفه وهو يتحفز للوثوب او الدفاع ولم يكد صاحب القبس يصل الى ضرغام حتى قال له « اهلا بضرغام . . . اهلاً بالصاحب »

فلما سمعه يناديه باسمه خفق قلبه واستأنس به واشتبه بصوته ولكنه لم يعرفه فقال « من انت . . . »

وكان قد وصل اليه فازاح اللثام وادنى القبس من وجهه وقال « الم تعرفني ؟ »
فتفرس ضرغام فيه ولما عرفه صاح « حماد؟ ما الذي اتى بك الى هنا »

قال « اتى بي الى هنا ظلم صاحبك . . . تفضل » قال ذلك وصفر صفيراً ابطل نباح الكلاب وفرق الرجال الذين كانوا مجتمعين ومشى وهو قابض يده على يد ضرغام يرشده الى الطريق وضرغام يعجب لما يراه لانه يعرف حماداً من وجوه رجال الدولة في سامراً وقد رآه فيها منذ اسابيع وكان شديد الثقة بصداقته فتبعه مطمئناً حتى وصلا الى بناء قديم حجارتها ضخمة وقد تهدم بعض جدرانها ولو تفرس القادم في ما بقي من اتقاضه على ضوء القبس لرأى عليها نقوشاً وصوراً من آثار الفرس القدماء ولكن ضرغام لم ينتبه الى شيء من ذلك . واذا بصاحبه قد اوصله الى غرفة ليس فيها شيء من الاثاث او الرياش ولكنه شاهد في ارضها اكياساً من الحبوب وصناديق فيها الآنية والمتاع كأنها اخذت من اصحابها التجار في تلك الساعة . فاشار حماد الى ضرغام فجلس على صندوق وجلس هو على صندوق آخر وقال « اظنك تعجب لما تراه . . . فلا تعجب »

فقال « كيف لا اعجب وقد بلغني عن هذا المكان انه مسكن للصوم واراك فيه كواحد من اهله »

قال « بل انا زعيم اصحابه . . . ولم اكن لا كاشفك بذلك وادخلك هذا المكان لولا ثقتي بك ولتعلم مغبة ظلم صاحبك »

قال « اظنك تعني امير المؤمنين »

قال « بل اعني امير الاتراك والفراخنة واذا اخرجتني قلت انه امير الكافرين مثل

اخيه المأمون »

فشغل ضرغام بهذا الامر الغريب عن الغرض الذي جاء من اجله فقال « اني لا ارى مسوغاً لهذه النقمة ولولاماتعلمه من حبي لك ما صبرت على ما اسمعه منك وليكنني اذكر صداقتك واحب ان تصرح لي بما يكنه ضميرك عساوي ان اذهب ما في نفسك من

الغل فترجع الى رضى الخليفة ونحن في حاجة الى رأيك وسيفك واعدائنا كثيرون فلا ينبغي ان تفرق »

فاعتدل حماد في مجلسه وبان الاهتمام في وجهه وقال « انا لا الومك على دفاعك عن المعتصم لانه صديق الاتراك والفرغانة وقد عادى اهله وعشيرته من اجلهم • وانت الآن صاحبه ومن اقرب المقربين اليه • لا اقول انك لا تستحق ذلك بل انت اهل لاكثر منه ولكن لو كنت في مكاننا نحن العرب لم تقبل بما ياتي به هذا الرجل من المظالم نحونا • ولم يكفه انه صادرنا في ديننا وجلد الامام احمد بن حنبل الرجل التقى البار حتى غاب رشده وسال دمه وتقطع جلده ثم قيده وحبسه واضطهد كل من لم يقل بخلق القرآن — لم يكفه ذلك حتى قطع العطاء عن العرب كافة ومنع المسلمين من روايتهم ولم يفعل ذلك احد قبله — لا اذكرك بما كان للعرب من العز والسؤدد في عهد الراشدين والامويين يوم كان الفرس والترك وسائر الاعاجم يعدون من العبيد او الموالي لا يستمكنون من ان يكون العرب اسيادهم بل كانوا يتشرفون بالانماء اليهم • وانما انا اذكرك بما كان لهم من التقدم في صدر الدولة العباسية مع انها قامت بسيف الفرس • حتى المأمون الذي حارب العرب وحاربوه فلما تغلب عليهم لم ينقص شيئاً من اعطياتهم كما فعل المعتصم هذا مع ان المأمون كان معتزلياً مثله يقول بخلق القرآن ويضطهد الائمة القائلين بقدمه • لعلمه ان العرب مادة لاسلام واصل هذه الدولة وروح هذه الامة • اما صاحبك فقد قطع العطاء عن كل عربي ^(٢) • العطاء الذي يمتاش منه المسلمون • ولم يفعل ذلك عن فقر او جدد فانه ينفق الاموال الطائلة في اصطناع الاتراك والاشروسنية والفرغانة وقد نى لهم سامرا واحضر لهم النساء والجواري واسال النصارى في خزائنهم • لو كنت انت عربياً لما صبرت على ذلك »

فلم ير ضرغام حجة يدفع بها قول حماد لعلمه انه يقول الصدق ولكن غيرته على المعتصم واخلاصه في خدمته حملاه على انتحال الاعذار فقال « لا انكر عليك مذكرته من مواضع المقد على امير المؤمنين ولكنك حملت ذلك منه على سوء الفصد فهو قد قطع العطاء عن بعض العرب بعد ان تحقق عداوتهم للدولة ومنهم من حاربه وجرد الجيش عليه اما الذين يخلصون في خدمته فيبالغ في تقريتهم والانعام عليهم • هذا القاضي احمد بن ابي دواد لا ازيدك علماً بمنزلته عند الخليفة وهو عربي • وانت • ألم تكن مقرباً ولك

منصب رفيع «

فهز احمد رأسه وقال « اراك حسن الدفاع عن صديقك الخليفة وقد اتيت بالقاضي احمد شاهداً وهو عربي من بين الوف قد لحقهم الذل والعار والفقير • اما انا فقد كان لي منصب وبئس المنصب لو بقي • • جمعاني سادن الكعبة التي انشأها في سامرا ليحوّل المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقي للعرب من مصادر الرزق حتى يبيت عرب الحجاز انفسهم لانهم يرتزقون من الحجاج كما تعلم فانشأ الكعبة في سامرا ليغني المسلمين عن الحجاز »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « ولكنه ليس هو اول من فعل ذلك من الخلفاء او الامراء فقد حاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحاً ^(١) »
فقال « وهذا لم يفلح ايضاً لان بيت الله في مكة فلا يقدر ان يجعله في سامرا »

الفصل السادس والثلاثون

ياقوتة

فرأى ضرغام ان الحديث قد طال في ما لا يهمنه بقدر ما يهمنه الامر الذي جاء من أجله فاراد ان يختصر الكلام فقال « ومع ذلك لا اجد في ما ذكرته مسوغاً يجيز لك ارتكاب اللصوية »

فقال « لا تقل لصوية • انما لا ترتكب شيئاً من ذلك على الاطلاق » فتضحك ضرغام وهز رأسه استخفافاً بدفاع حماد فابتدعه هذا قائلاً « لا تضحك يا صديقي البطل • اننا لا نسرق وما نحن لصوص وانما نحن نستولي على حقوقنا بايدينا »

فاستغرب قوله ونظر اليه وتناول بمنقه نحوه كانه يستفهمه فقال حماد « ان هذه الاموال التي تجدها ملقاة هنا انما هي حق اولئك الفقراء وابناء السبيل بامر الله تعالى في كتابه وهي عشور الاموال او اخماس النبي • فهذه كان الخلفاء في صدر الاسلام يأخذونها من اصحاب الاموال والتجار ويفرقونها في الفقراء والمساكين وابناء السبيل — يأخذونها زكاة ويفرقونها صدقة او عطاءً وقد قطع المعتصم هذه الاعطيات فهل يموت

المسلمون جوعاً لأنهم عرب * فمحن انما نستولي على حتموق الفقراء بالقوة لان الامام اراد ضياعها ..»

فتمجب ضرغام لقوة تلك الحججة ولكنه اراد قطع الجدل فقال « ما لنا وذاك فقد علمت أنك كنت في سامرًا من عهد قريب ولم يقطع الخليفة عطاءك فما الذي حملك على الخروج »

فوقف حماد وتهد وتغيرت سحنته من الغضب الى السكابة ونظر الى ضرغام وقال « ان ما حملني على هذا الخروج وأثار في هذه الضغائن امر اصاب مني مقتلاً ..» اصاب قلبي فاذهب رشدي فانا ناقم على ذلك الرجل الظالم ما دمت حياً » قال ذلك وقد تصبب العرق من جبينه فزداد ضرغام رغبة في كشف خبره وتوسم من عبارته انه يشكو من حبيب فارقه فتمال « وما ذلك يا اخي ..» قل باختصار فاني انيتك لامر يهمني كثيراً فشلفتني بامورك »

قال « مهما يكن من امرك فلست بالهاً امري . احببت جارية لبعض البغداديين واحببني فلما اقدمت على الاقتران بها تصدى لي رجل من خاصة المعتصم اسمه الحارث السمرقندي اظنك تعرفه وطلبها لنفسه واخذها مني عنوة فشكوت امري الى الخليفة على يد القاضي احمد الذي ذكرته فاجابني - اجث عن جارية اخرى وان هذه لا تكون لك - مع علي انها تجبني حباً شديداً ..» ثم تنهد وقال « آه يا يا قوته » فقال حماد « كأن اسمها يا قوته ؟ »

قال « نعم هذا هو اسمها . فهب اني اغضيت عن كل السيئات التي ذكرتها فهل اقدر ان اغضي عن هذه ؟ . اني والله ناقم على الخليفة ودولته وما خرجت لاكون لصاً وانما خرجت لانقم من هذه الدولة بما في امكاني .. واعدواؤها كثير ون » فتأثر ضرغام من حكاية يا قوته اكثر من سائر القصص لانه واقع في مثلها - والانسان انما يشارك الناس في المصائب التي اصاب بمثلها او يخشى ان يصاب بها . فالعازب لا يشعر مع الابهاء اذا اصابوا بابنائهم كما يشعر الوالدون . ولا يشارك المحب في شعوره الا الذي جرب الهوى . فقال حماد « هوّن عليك ولعلي نافعك في شيء من شكواك وقد آن لي ان اسألك عن الامر الذي جئت في هذا الليل من اجله فارعني سمعك واعلم اني اول من شاركك في احساسك لاني واقع مثل وقعتك » قال « تفضل »

قال « لي خطيبة كانت في فرغانة وانا في سامرا فركبت الي مع اخيها وجاريتها فلما
وصلوا الي همدان هجم عليهم اللصوص واحتاتفوا الفتاة وجاريتها وجاء الي اخوها بالخبر
فاسرعت للبحث عن الفاعلين فانبا في صاحب البريد عن هذا المكان فأتيت فما قولك ؟ »
قال « اما نحن هنا فلا نختطف نساء وقد اخبرتك بما فعله وانا على يقين انه ليس
في هذا الجوار لصوص او قاطعو طرق »

قال « ولكن اخا الفتاة شهد الواقعة وهو الذي نجا من المعركة واخبرني »
فهز رأسه هزة الانكار وقال « نحن هنا منذ عدة اسابيع ولم نسمع بجدوث شيء من
ذلك واظن الراوي كاذباً »

فاتبه ضرغام لما يعلم من سوء نية سامان من يوم عرفه فقال « ان الراوي واقف في
مدخل هذه الشعب اسنقدمه اليك لتسأله »

فاشار حماد الي بعض رجاله ان ينادي الرجل الواقف هناك فذهب وعاد وهو يقول انه لم
يجد احداً . فذهب ضرغام بنفسه فلم يجد سامان وسأل الدليل عنه فقال انه مضى الي
حيث لا يعلم . فبعث في البحث عنه فلم يقف له على اثر فترجع له ان في الامر سرّاً
غامضاً وان الرجل قد يكون كاذباً في ما رواه حتى عن الافشين فقلت ثقته بما رواه عن
هذا ولم ير بداً من الرجوع الي سامرا فاستأنف الكلام مع صديقه ونصح له ان يرجع
معه فلم يرض وقال « لا اري في رجوعي فائدة ولو اقتصر ظلم صاحبك علي خسارة المال
لاحتملته ولكنه طعنني في قلبي وانت اكثر الناس شعوراً معي فلا تلني »

فتذكر ضرغام مصيبتة وتصور نقمته علي خاطف حبيبتة فمذره وقال « صدقت اني
معك كما ذكرت ولو علمت ان الخليفة الذي صادرني بخطيبتني لنقمت عليه مثل نقمتك واشد
منها فافعل ما بدا لك وعلى كل حال ارجو ان تذكرني ولك مني مثل ذلك . . » واطرق
قليلاً ثم قال « واذا حدث ما يبعث علي مخابرتك او المجيء اليك فهل اجدك هنا »

فاجاب « لا اعلم اين يكون مقري بعد الليلة وما قيامي هنا الا الي اجل وانت اذا
وفقت الي امر يسرك وارتدت ان اراك فاين تكون ؟ »

قال « في سامرا »

فشكر له فودعه ضرغام ورجع وهو يفكر في ما سمعه وصورة جهان لا تذهب من
مخيلته لانه في المكان الذي قيل له انها اخذت فيه والليل مظلم مثل ظلام الليلة التي
خطفت فيها فتصور حالها وهم يقبضون عليها وتوهم انه يسمعها تستغيث به وتناديه باسمه

فاشعره بدنه وحرقت اسنانه - قضى في تلك الهواجس مدة وهو يتلمس ذلك الطريق الوعر على غير هدى والدليل يسير بين يديه حتى ادرك محطة البريد فركب وعاد الى سامرا . وطربق البيت في الرجوع اليه اقصر منها في الخروج منه ولكن ضرغاما استطال الطريق واستبطأ وصوله لشدة رغبته في ملاقاته وردان لعله يستشيريه في الامر وقد تعود ذكاه . وصدق فراسته

الفصل السابع والثلاثون

النجدة

اشرف على سامرا بنحو الغروب والشمس تقابله وقد ضعف نورها وتبددت اشعتها واحمر لونها وتكور شكلها وتعاضم جرمها فظهرت كأنها كرة من نار سابحة في ضباب من دم . ونظر الى ابنية سامرا واعظمها قصر الخليفة والمسجد الاعظم ومنازله تناطح السحاب . ويحترق المدينة من الشمال الى الجنوب نهر دجلة المبارك وعلى ضفافه اشجار النخيل واقفة وقوف الجند يحملون سهامهم في عمائمهم . فشغله منظر الطبيعة عما في نفسه فاحس بارتياح فوقف هنيهة والبريدي على بقلته الى جانبه ولم يدعشه ذلك المنظر لانه تعودوه والنفس يختلف تأثرها من مناظر الطبيعة باختلاف حالها . واكثر الناس مشاركة للطبيعة في احوالها المحبون واحس ضرغام يميل الى الانفراد هناك فاشار الى البريدي ان يسبقه الى سامرا فاطاع وبقي ضرغام وحده يراقب الشمس ساعة الغروب وهي تراءى لعينيه من وراء جذوع النخل عن بعد وتقلب بالوانها القزحية وان غاب عليها لون الارجوان . حتى اذا ادركت حافتها الافق استطالت تلك الحافة الى شبه خرطوم نزل وراء الافق وهبطت هي في اثره الهويناء وقد اخذت الاظلال تستطيل وتنتشر حتى توارت الشمس وخلفت مكانها افقا اخذ احمراره في الاكفرار شيئا فشيئا من الدموي الى الارجواني فالبنفسجي فالازرق على اختلاف الوانه وثقاوت اقسامها الى السواد فاستحالت الاظلال الى ظلام . فاحس ضرغام بانقباض نبيه الى المسير فوخز الفرس وخرأ خفيفا فمشى مشيا بطيئا حتى تخلل مغارس المدينة من طرفها لاسفل وتراءى له دجلة في مكان لا يغشاه النخيل فيممه على ان يسير على ضفته الى الجوسق

وكان الجو هادئاً والسكون سائداً فلما دنا من دجلة عاد الى تخيله فاستغرق في هواجسه
والفرس يسير على ضفة النهر من تلقاء نفسه . وقد هب النسيم عليلاً وسكنت الطبيعة فلا
يسمع في ذلك المساء الا حفيف الورق ووقع حوافر الفرس . ولم يكن ضرغام يسمع شيئاً
لاشغاله بافكاره . واذا بجلبة فاجأته من ورائه وسمع صوتاً وقع وقوع السهم في قلبه
واجفله لانه صوت امرأة تستغيث قائلة « خافوا من الله . . . اتركوني . . . يا ناس . .
اتركوني . . » ثم اختنق الصوت . فارتعدت فرائص ضرغام لان الصوت كشيء الشبه
بصوت جهنم وتذكر ما اصابها من اللصوص وتصور انها استغاثت بمثل هذا الكلام
ولم ينجدها احد فصمم على نجدة هذه المستغيثة لعل الله يوفق جهنم الى منجدها .
وما تمهل ريثما يدير رأس جواده الى جهة الصوت فترجل وتحوّل مسرعاً على قدميه وهو
يستل حسامه ويقول « لبيك لبيك . . اتركوها ايها اللئام »

قال ذلك وهو لا يرى احداً لشدة الظلام فخاف ان يكون قد خدعته هواجسه وان
ما سمعه هاتف يمثل له حال جهنم . لكنه ما عتم ان سمع الصوت يقترب منه وراى شبح
امرأة تعدو من ضفة النهر وهي باسطة يديها نحوه وتصرخ « بالله اغثني . . . اشفق على
حياتي . . » وراى رجلين يجريان في اثرها وقد شهر احدهما السيف وهو يقول « الى اين
تهربين يا خائنة . . اني قاتلك لا محالة »

فصاح ضرغام « عنها بارجل لا تعرض بنفسك للقتل »

فلم يبالي الرجل بما سمعه وظل مسرعاً حتى كاد يدرك المرأة وكانت قد وصلت الى
ضرغام وترامت على قدميه . فلما رآه ضرغام لا يزال هاجماً والسيف بيده تناوله بضربة
اطارت رأسه فوقع يتخبط بدمه وهجم على رفيقه وهم ان يضربه فراه اعزل فامسك عن
ضربه وصاح فيه « من انتم . . »

فقال « مالك ولنا ليس هذا السؤال من شأنك . دع الجارية وامض لسبيلك وسترى

عاقبة امرك »

قال « قف حيث انت والا قتلتك . . او قل لي من انت وما خبر هذه الفتاة »

قال « انها جارية هربت من بيت مولانا فبعثنا للبحث عنها فادركناها هنا وابت

الرجوع فهددها رفيقي تخويفاً لها ولولاك لرجعت صاغرة ولكنها استفرست وسببت قتل رفيقي

وسوف تعلم مصيرك »

فلما سمعت الجارية قوله وكانت قاعدة على العشب من التعب نهضت وصاحت

« كذبتن ايها الغادرون ليس الامر كذلك »

فلما سمع كلامها ازداد شبهة بصوت جهان واحتاج قلبه في صدره واستبعد ان تكون هي نفسها اذ لو كانت هي لعرفت صوته فقال للرجل « قل الحقيقة ولا تخوفني باحدٍ والا الحقتك برفيتك »

قال « لا تغترر بما سمعته . . . ان هذه الجارية هاربة من بيت الخليفة فمن يجسر على حمايتها »

قال « انا اجسر دعها وسر بطريقتك »

فصاح الرجل « من انت حتى تجسر على ذلك ؟ »

فحول ضرغام عنه وامسك الفتاة بيدها ومشى وهو يقول « قل للخليفة او لسواه من يدعي السيادة على هذه الفتاة انها في حماية الصاحب »

فلما سمع الرجل اسمه تراجع وبهت كأنك اخرسته بالكهر بائية ثم قال « اعذرني يا مولاي على جسارتي اذ لم اكن اعلم ان مولانا الصاحب يخاطبني » قال ذلك وتحول راجعاً

الفصل الثامن والثلاثون

ياقوتة

اما ضرغام فترك يد الفتاة ومشى الى فرسه وكان لا يزال واقفاً في مكانه فقاده بلجامه وسار وهو يقول للجارية « امشي يا بنية لا تخافي ولكن اخبريني عن حقيقة امرك فقد سلمت الآن من الخطر »

فقالت وصوتها مختنق « اشكر الله لانه ارسلك لانقاذي ولولاك لذهبت ضحية الظالم » فاطربه صوتها واحب ان يتفرس في وجهها وقلقه على جهان بوهمه انها قد تكون هي بعينها واكن الظلام كان يحول دون ذلك فقال لها « قولي ما هو خبرك »

قالت « كنت جارية لبعض الناس واعتقني سيدي لوجه الله فطلبني شاب عرفني وعرفته وتحاببنا وتواعدنا على كتابة الكتاب ثم رأني رجل من بطانة امير المؤمنين يقال له الحارث السمرقندي . فنقرّب اليّ وخطبني لنفسه فايت عليه ذلك »

فلما سمع ضرغام اسم الحارث انتبه لما سمعه من حماد فقال « وما اسم خطيبك »
قالت « حماد »

قال « فانت اذا ياقوتة »

فلما سمعته يناديها باسمها غلبت عليها الدهشة حتى تلعثم لسانها وقالت « كيف
عرفت ذلك يا مولاي .. هل تعرف حماداً .. اين هو ؟ »

قال « عرفته ولكن لاسبيل اليه الآن .. ساقص عليك خبره .. اتمي حديثك »
فلم تعد تعرف لشدة فرحها كيف تتكلم فقالت « فلما أبيت على الحارث ما اراد
وسط القاضي احمد لى امير المؤمنين فطلب الخليفة ان يراني فلما مثلت بين يديه نظر اليّ
طويلاً ثم اودع اذن القاضي كلاماً وامرني ان ابقى عند الحارث بلا زواج حتى يبدي رايه
فيّ .. فاخذني الحارث الى منزله وحبسني واخذ يحاول اقناعي ان افترن به تارة بالحنى
وطوراً بالتهديد حتى جاءني منذ بضعة اسابيع وهو يهزأ بي ويقول ان خطيبي فرّ من
سامراً فلم اصدقه وعزمت على الفرار الى حماد فلم اتمكن الا ايلة فركت دجلة عند
الغروب على ان اسرع الى منزل حماد وهو على مقربة من قصر الخليفة فادر كني هذان
الرجلان وهما من اعوان الحارث وارادا ارجاعي ولما رفضت الرجوع هدداني فصحت
الصيحة التي سمعتها وجئت لانقاذي .. جزاك الله عنى خيراً »

فلما فرغت من حديثها سره انه انقذها اكراماً لصديقه ولكنه تذكّر ان حماداً
برح همدان في ايلة التي فارقه فيها ولا يعرف مقره فظل ساكناً وهو يفكر في ذلك
وصورة جبان امام عينيه وهو يقول في نفسه « هل يتاح لجهان من ينقذها يا ترى كما
انقذت انا هذه الفتاة » ظل مدة وهو يفكر في ذلك وياقوتة ماشية الى جانبه وقلبها
يخفق سروراً وقلقاً تتوقع ان تسمع من الصاحب ما يعلمه على حبيبها فلما استبطأته
قالت « وعدتني يا مولاي ان تخبرني عن حماد .. العلهُ خرج من سامراً ؟ »

قال « نعم خرج منها كما قال لك الحارث »

قالت « واين هو ؟ »

قال « لا ادري .. وقد لقيته منذ بضعة ايام في مكان خارج العراق واخبرني انه
مسافر الى حيث لا يعلم وقد قص عليّ غضبه من الحارث والخليفة من اجلك .. كوني
على ثقة انه شديد المحافظة على ودك »

فلطمت خدها بكفها وقالت « ويلاه اين اذهب واين ابيت وكيف اعرف مقره .. ؟ »

فقالت « لابس عليك انك تمكثين في منزلي مع والدتي حتى يأتي الله بالفرج فاني على

موعد من حماد ان يكتب اليّ عند الحاجة لانه صديقي »

فقال « جزاك الله خيراً يا سيدي ولكن .. »
 قال « لا تخافي يا أخية انما تكونين مع والدتي في خير وامان لا يمسك احد بسوء .
 ان والدتي وحيدة في البيت ولا ريب انها تتخذك ابنة لها وتستأنس بك كثيراً »
 وانتهت ياقوتة في تلك اللحظة انها على مقربة من الجوسق فوقفت وقالت « اراني
 بجانب قصر الخليفة ! »

قال « اني اقيم في قصر داخل هذا الجوسق »
 فتراجعت وقالت « اكون اذا في خطر اذا عرف الخليفة بامرني »
 قال « كوني مطمئنة . انك في مأمن عندي » وكانا قد وصلا الى باب الجوسق فلما
 رأى الحراس ضرغماً وسعوا له وتقدم احدهم فاخذ الفرس الى الاسطبل وسار ضرغام مع
 ياقوتة حتى اتى منزله فلما رآه الخدم اسرع بعضهم الى والدته فبشروها واناروا الشموع
 فدخل والفتاة في اثره حتى توسط الدار واول شيء فعله انه تفرس في الفتاة على نور
 الشمع وحالما وقع بصره عليها خفق قلبه وبدت البغمة في وجهه لشدة المشابهة بينها وبين
 جهان فقال في نفسه « سبحان الخالق ما هذه الصدفة ؟ » واحسّ بارتياح الى الفتاة
 واعجبه ما قرأه في محياها من الهيبة والجمال رغم ما كان يغشاه من الاضطراب . ويكفي
 لارتياحه اليها ومشابتها حبيبه بالوجه والصوت . وزاده استئناساً بها ما قاساه في سبيل
 انقاذها - والمرء من فطرته يحب الذين يشقى في سبيل راحتهم ولذلك كان الرجل
 اكثر اعطافاً بين اولاده على اشدهم حاجة اليه . وكلما تعب الوالد في سبيل
 ابنة ازداد تعلقاً به . ولولم يكن قلب ضرغام مشتغلاً بجهان لتعاقب ياقوتة اذا لم تكن
 لصديقه حماد

الفصل التاسع والثلاثون

آفتاب

اما آفتاب فكانت قد تهيأت لاستقبال ابنها فلما سمعت وقع خطواته اسرعت اليه
 وضمته وقبلته وتنشقت ربحه . ثم شعرت بحركة في الدار فقالت « من هو رفيقك »
 قال « بل هي رفيقة لك »

فظنت لاول وهلة انه جاءها بجهان فتوجهت ببصرها نحو الحركة التي كانت تسمعها
 كأنها تستقبل الضيفة وصاحت « هل هي جهان »
 فوقع قولها وقعاً شديداً على قلب ضرغام فتح جراحه فتنهد وقال « كلا يا أماء
 ولكنها عزيزة علي لانها خطيبة بعض اصدقائي »
 ودنت الفتاة من آفتاب وهمت بتقبيل يدها فضمتها ورحبت بها وقالت « ما اسمك
 يا حبيبي »

قالت « اسمي ياقوتة ياسيدي »
 فلما سمعت صوتها دهشت وبان الاستغراب حول مبسمها وفي اخلاج عينيها
 البيضاء وقالت « سبحان الله كاني اعرف هذا الصوت . . . »
 فقطع ضرغام كلامها قائلاً « اظنك تعين صوت جهان فانه كثير الشبه به وقد
 لحظت ذلك منذ سمعتها تتكلم للمرة الاولى »
 فسكنت آفتاب ولم تجبه واخذت الفتاة بيدها واجلستها الى جانبها وجمعت تضمها
 وترحب بها والتفتت الى ضرغام وقالت « كيف لقيت هذه الياقوتة . . . وابن كانت ؟ »
 فقال « اتفق لي وانا عائد من المهمة التي اخبرتك عنها اني مررت باسفل المدينة فسمعت
 هذه الفتاة تستغيث من رجلين كانا يحاولان اخذها الى رجل يريد ان يتزوجها رغم
 ارادتها فانقذتها منهما وجئت بها »

قالت « ومن هو ذلك الرجل »
 قال « يقال له الحارث السمرقندي من اعوان امير المؤمنين »
 قالت « ولماذا لم تقبل به فانه ذو جاه ومدل »
 قال « لانها احبت رجلاً آخر اسمه حماد العربي . الا تعرفينه ؟ »
 قالت « اظني سمعت صوته مرة وقد جاء معك . اين هو الآن ؟ »
 قال « هو غائب وستبقى ياقوتة هنا حتى يعود . هل يسرك ذلك ؟ »
 قالت « يسرني كثيراً لانها تكون تساييتي اذا خرجت انت في مهمة . والحق يقال
 اني شعرت من هذه اللحظة كاني اعرفها منذ اعوام . اهلاً وسهلاً بك يا حبيبي »
 وامرت مسعودة فاخذتها لتبديل ثيابها وتصلح من شأنها ثم وضعوا المائدة للعشاء
 فقال ضرغام لوالدته وهم على المائدة « لم يات وردان ؟ »
 قالت « جاء منذ بضعة ايام وسالني عنك فلم اقدر ان اخبره عن مكانك »

قال « هل اخبرك عن مجيء الافشين »

قالت « اخبرني انه جاء وعسكر خارج سامرا على ان ينتقل بعد بضعة ايام الينا واظن وردان عاد اليه او لعله يريد الذهاب اليه غداً او بعد غد »

قال « حسناً » ولم يطيلوا السهرة التماساً للراحة . فباتوا تلك الليلة واصبح ضرغام في اليوم التالي وقد عادت اليه هواجسه واصبح شديد الميل للملافة وردان ليسأله عما سمعه من اصحاب الافشين عن جهان . وفي اصيل ذلك اليوم جاءه رسول الخليفة يطلب حضوره فلبس سواده وقلنسوته وذهب اليه في دار العامة فاستأذن ودخل فوجد عنده القاضي احمد فسلم ووقف فاستدناه اليه وامره بالجلوس فجلس فقال وهو يبش في وجهه « متى عدت من السفر ؟ »

قال « اتيت مساء البارحة يامولاي وكنت عازماً على المشول بين يدي امير المؤمنين ولولم يأتي رسوله »

قال « من لقيت في طريقك ؟ »

فانتبه انه يشير الى ياقوتة لعله ان الحارث لا بد من ان يشكوه فقال « لقيت فتاة بين يدي رجلين يعد بانها »

قال « هل انقذتها ؟ فقد تعودت النجدة بارك الله عليك »

فعلم ان الخليفة يشير الى فضله عليه في انقاذه من مخالب الاسد فنجح لاطرائه وتجاهل وقال « لم اتالك يا امير المؤمنين عن انقاذاها ثم علمت انها تنتمي الى بعض رجال الدولة فحملت تبعة عملي طمعاً بحلم امير المؤمنين وهو ذنب استغفر عنه »

فضحك المعتصم وقال « قد اصطدت صيداً حلالاً انت اولى الناس باحرازه . . . كيف رأيت هذه الفتاة . . . هل هي جميلة ؟ »

قال « لا بأس بها يامولاي »

قال « قد وجب عليك اقرارك »

فلم يفهم ضرغام فصدده فابتدزه القاضي احمد قائلاً « انذكر ان امير المؤمنين خطب لك جارية »

قال « نعم »

قال « هذه هي الفتاة بعينها »

فاستغرب ضرغام ذلك الاتفاق الغريب وتخير في الجواب فقال القاضي « ان امير المؤمنين

رأى هذه الفتاة للمرة الاولى منذ اسابيع وقد جاء بها الحارث يخطبها لنفسه وكان رجل آخر يدعي انها له وكنت حاضراً فقال لي امير المؤمنين انها تصلح للصاحب وامر الحارث ان يحتفظ بها حتى يطلبها . وفي هذا الصباح جاء الحارث يشكوك لانك اختطفت ياقوتة منه فاجابه « انها للصاحب ولا سبيل لك اليها » فخرج مغماً ولذلك قال مولانا انك اصطدت صيداً حلالاً ووجب اقرارك عليك »

فلم يسغ ضرغاماً غير الدعاء للمعتصم على التفاته وقال « ان امير المؤمنين يتصرف بعبيده ومواليه كما يشاء »

فقال المعتصم « انك احزرت اجمل نساء سامراً بارك الله لك فيها » ثم صفق فجاء الحاجب فاشار اليه اشارة فهمها وخرج ثم عاد ومعه غلام يحمل طبقاً عليه عقد من الجواهر يتلألاً كالشمس فاشار الخليفة الى الغلام ان يقدمه الى صاحب فقدمه فيهر ضرغام من لمعان ذلك العقد ووقف احتراماً فابتدره المعتصم قائلاً « هذا عقد تلبسه ياقوتة وتخلي به »

فانحني ضرغام احتراماً وامتناناً وقال « قد غممني امير المؤمنين بانعامه » قال « انك اهل لاكثر من ذلك »

فتناول ضرغام العقد ولفه بمنديله وكرر الدعاء . ثم استذأن بالانصراف وخرج

الفصل الرابعون

وردان وسامان

عاد ضرغام الى منزله والخواطر تتقاذفه ولم يزد امر الزواج وياقوتة فلقاً هذه المرة لانه عول على استبقائها في بيته حتى يجد خطيبها فيعطيه اياها فلا يدري الخليفة هل تزوجها ام لا فوصل المنزل ولقي والدته فسأله وياقوتة حاضرة عن سبب ذهابه الى الخليفة فقال « دعاني لامر يتعلق بياقوتة »

فاجفلت ياقوتة لانها كانت تخاف وشاية الحارث لكنها اطمانت لما رآته يقول ذلك وهو يتسم ونظرت اليه باستعطاف . اما والدته فسأله عما جرى فقال « شكنا السمرقندي الى امير المؤمنين فارجه خائباً واوصاني بياقوتة خيراً »

فانشرح صدر الفتاة وزدادت اعجاباً بضرغام وسمو منزلته عند الخليفة وتنفوذ
كلمته في الدولة واعجبت بهيئته وجلال طلغته . والاعجاب اذا رافقته الالفة والمادة
تحول الى غرام ولكن ياقوتة كانت مشغلة القلب بحماد ورأت ضرغاما فوق ما ترجوه
لنفسها . ولما سمعت قوله عن الخليفة توردت وجنتاها حياءً ولم يمنعا الحياء من الكلام
لانها كانت عاقلة رابطة الحاش فقالت « اشكر لمولاي الصاحب فضله فقد انتقذني من العار
والموت ورفع منزلي اذ جفاني تحت حمايته »
فمد ضرغام يده الى جيبه واخرج العقد وقدمه اليها وقال « هذا هدية من امير
المؤمنين لك »

فاصبحت ياقوتة لا تدري كيف تعبر عن احساسها فتناولت العقد ودفعته الى آفتاب
فقبضت عليه وتلمست حباته وقالت « يظهر انه عقد ثمين جدير بك » وتقدمت نحوها
والبستها اياه

كل ذلك لم يشغل ضرغاما عن قلقه واضطرابه وكل ما اصابه في مساء الامس وصباح
ذلك اليوم يذكره بحبيبه وخصوصاً العقد لما لبسته ياقوتة فقال في نفسه « لماذا لا تكون
جهان هنا وتلبسه » فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وترك الغرفة بحيلة وخرج ليسال الخدم
عن وردان هل جاء فاذا هو داخل وفي وجهه بغتة . ولما رأى ضرغاما حياءً باحترام
فقال ضرغام « قد طال غيابك فما الذي اعاقك . . . تعال الى خلوة نتحدث فيها »
فسار في اثره الى غرفة من غرف القصر جلسا فيها وقال وردان « قد اعاقني تاخير
الافشين عن الحضور لانه لم يصل الى سامرا الا منذ بضعة أيام ولم اتمكن من اتمام مهمتي
الا اليوم »

فقال « وما الذي عرفته عن جهان »

فتوقف وردان لحظة ثم قال « عرفت من صديق لي في حاشية الافشين لا يخفاه
من احواله خافية ان جهان خرجت من فرغانة قبل خروجهم منها . . . »
قال ضرغام « قد عرفت ذلك في اثناء غيابك من سامان اخيها »
فتغير وجه وردان عند سماع اسم سامان وقال « سامان هنا ! اين هو . . . اين هو . . . ؟
لاقبضن روحه . . . لعنه الله من منافق »

فاستغرب ضرغام شدة لهجته وقال « ولماذا تريد قتله . ما الذي فعله . . . »
قال « ساقص عليك فعله وانما ارجوان تخبرني عما قصه هو عليك »

قال « اخبرني انه خرج من فرغانة مع اخته فراراً من الافشين فلقيهم اللصوص في همدان فاسروا جهان وقهرمانتها وجاء هو ليخبرنا »

قال « انك عارف بعمل اللصوص اذا . . بقي علي ان اخبرك عما فعله هذا اللعين اليوم . سرت امس لاتم مهوتي في البحث كما امرتني فلم استطع الا صباح اليوم فلقيت صاحبي فقص علي الخبر . وبينما هو يكلمني لمحت سامان ماراً على فرسه يطلب عرض البر ولم اتحققه فسأت صاحبي اذا كان قد رآه فقال انه هو بعينه وانه جاء البارحة في اواخر الليل وطلب مقابلة الافشين فقابله وقص عليه خبر اختطاف جهان ولكنه جعل الذنب في ذلك لك واساء القول فيك ولم اعلم ذلك الا بعد ان غاب عن بصري ولم يبق سبيل اليه ولولا فراره لقتضت علي عنقه وقتلته خنقاً فبجه الله من اجرود لئيم »

وكان ضرغام قد ادرك قبل ذلك الحين نفاق سامان وسوء نيته فاصبح لا يصدق شيئاً من اقواله ولكنه لم يرب بداً من تصديق قوله عن اختطاف اللصوص جهان فقال « قد عرفت نفاق هذا الشاب من قبل . . ولكن هل تظنه كاذباً في مارواه عن اختطاف جهان ؟ يا حبذا ذلك »

قال « ربما كذب في كيفية الاختطاف ولكن يظهر انها اخذت بلا شك وما علينا الا ان نبحت عن الدين اخذوها »

قال ضرغام « وما العمل »

قال « نرسل الجواسيس نبثهم في المشرق كله من هنا الى فرغانة فمن سمع خبراً او تنسم شيئاً يرشدنا الى الفاعلين »

قال « قد رأيت الصواب فافعل ذلك بحكمتك واسرع فيه »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج

ولما خلا ضرغام بنفسه عاد الى التفكير في الافشين وما سمعه من سامان عن طمعه بجهان وارتاب في صدق الرواية ولكنه رأى ان يفاتحه بالامر ليزول سوء الفهم من بينهما واجل ذلك فلم تتم له فرصة

وجاءت الاخبار في اثناء ذلك بقيام بابك واستفحال امره فاصدر الخليفة اوامره الى الافشين بالسفر مع جنده الى اردبيل ولم يتم لضرغام مقابله

الفصل الحادي والرابعون

فراق فرغانة

والسبب في ضياع جهان انها لما عزمت على الفرار من فرغانة مع اخيها وقهرمانتها كما تقدم اعدت كل ما محتاج اليه مما خف وزنه وغلا ثمنه وعوت على اخيها في تدبير قافلة يسرون في ظلها تجنباً لخطر البوادي التي لا بد من قطعها قبل الوصول الى العراق . فاخبرها سامان يوماً انه قد هيا كل شيء فاخذوا في نقل الاحمال بحجة الرغبة في السفر الى مصيف قريب . ولما آن ذهابها وعلمت انها لن تعود الى ذلك البلد سائر حياتها عظم عليها فراق مسقط رأسها وهجر قصر ابائها وقد تعودت هواه وماءه واظلاله والفت اهله ومنازله واسواقه فقضت ابامها الاخيرة وهي منقبضة الصدر وقد ذهبت بشاشتها واخوها يهون عليها الخروج وقهرمانتها ترى في خروجها شططاً . واما هي فمع كل ذلك لم تتردد في الامر لحظة واحدة رغم ما احست به من الوحشة

وفي الليلة التي قضوها على اهبة الرحيل استدعت قيم الدار اليها واوصته بالقصر واهله خيراً وامرّت اليه انها ربما طال غيابها فليكن اميناً نشيطاً . فاسف لسفرها وان لم يعرف حقيقة غرضها ولو علم لبكى بكاءً مرّاً على فراقها لانه كان يحترمها الى العبادة وكذلك كان احساس كل من عرفها او عاشرها لما فطرت عليه من اللطف والذكاء والهيبة والجمال كما علمت . وفي الصباح التالي خرجت على فرسها الادم كنها ذاهبة الى منتزه او مصيف وركب معها اخوها وقهرمانتها ولم تتالك عنده خروجها من باب المدينة ان التفتت ودمعت عينها اسفاً على ما خلفته هناك من ثمار شبابها وجني والدها لكنها تماسكت واسترجعت رشدها وعزت نفسها بما ستلقاه من اسباب السعادة بقرب حبيبها

وكانت القافلة التي سافروا معها فادمة من بلاد الهند باحمال العطريات والبهارات والانسيجة فاصدة خراسان فضموا احمالهم الى احمالها وقد اعتمدت جهان في ذلك على اخيها ولبست ثياب السفر واقلعت القافلة في مساء ذلك اليوم وهي مؤلفة من قطارين مسلسلين من الجمال والبغال على بعضها الاحمال وعلى البعض الآخر الرجال غير المشاة من المكارين والسياس على اقدامهم ومعهم الكلاب وادوات الطبخ والنوم وكل شيء . فالقافلة كالبلد يمشي باهله ودوابه واثاثه . تمشي ساعات من النهار وساعات من الليل تختلف مقاديرها باختلاف

الفصول وحسب اوجه القدر يحدق بها خفر من الرجال تعودوا الاسفار والاخطار اشداء الابدان يعرفون الطرق ولهم صداقة وهيبة عند قبائل التركن بدو الترك وهم متفرقون في البادية بين نهر جيحون ونهر الشاش والمسافة بين النهرين تعدد بالاسابيع وقد تجاوز الشهرين ناهيك بما في اثنائها من اللصوص وقطاع الطرق . ولذلك لا يجسر على السفر هناك غير القوافل الكبيرة والقافلة تنظم في اثناء المسير نظام الجند للحرب وفي ساعات الراحة تضرب الخيام وتوقد النيران وتذبح الاغنام او الابقار وتنصب القدر على النار ويشتغل القوم بالاكل والنوم ولم تكن جهان جربت هذا السفر ولا ذاقته مثله ولا سمعت به في حياتها فكم يكون ذلك ثقيلاً عليها فكانت تحمله بالصبر وتعزي نفسها بلقاء الحبيب فاذا تصورت ذلك اللقاء هان عليها احتمال كل المشاق — كل ذلك من معجزات الحب وان امره لعجيب

لو اردنا تفصيل ما لاقوه في سفرهم الطويل من حر النهار وبرد الليل وخوف قطاع السابلة واهل الغزو وما اصابهم من عطش او جوع لفراغ مؤونتهم من الماء او الطعام قبل بلوغ المكان الذين يتزودون منه لضاق بنا المقام فنقول بالاختصار ان القافلة لما بلغت الى الري اشار سامان على اخته بالتخلي عنها والمسير على انفراد لان القافلة تسير متناقلة وهي في كل حال لا ترافقهم الى العراق لان طريقها نحو الشمال . فاذعنت جهان لرأي اخيها وانفردوا باعمالهم ودوابهم عن القافلة . وفي مساء ذلك اليوم باغتهم جماعة من الرجال على الخيول في مكان بعيد عن همدان وكانت جهان على فرسها فدافعت عن نفسها دفاع الرجال وظهر سامان دفاعاً كثيراً ولكنهم غابوا اخيراً فقبضوا على جهان وقهرمانتها وشدوا وثاقها وفر سامان بحجة ايصال الخبر الى ضرغام

فلما رات جهان نفسها في الاسر صاحت بكبير القوم وهم جميعاً ملثمون وقالت له « ما الذي حملكم على هذا العمل ؟ اذ كنتم تطلبون المال فهذه احمالنا خذوها واطلقوا سراحنا ونعاهدكم اننا لا نطالبكم بشيء منها »

فاجابها الفارس وهي اول مرة سمعت كلامه فقال « لسنا لصوصاً يا سيدتي ولا حاجة بنا الى المال وانما امرنا ان نحمل عروس فرغانة الى اعظم رجل في الارض لم ترض به طوعاً فعاها ان ترضى به كرهاً . . . »

الفصل الثماني والاربعون

في الاسر

فلما سمعت قوله انتبهت لنفسها وعلمت انها مكيدة نصبت لها وكانت تفضل ان يكون القوم
لصوصاً يطلبون المال ولا تكون هي المطلوبة . ليس لانها تخاف ان تغلب على امرها فانها كانت
من رابطة الجاش وثبات الجنان على ما علمت . ولكن شق عليها فراق حبيبها فارادت ان تزداد
بيانا فقالت « ولكن هذا العمل باصاح لا يشبه اعمال العظماء »

قال « وماذا يعمل الرجل اذا اضطر ولم ير وسيلة لتبيل مراده غير هذه . . . ؟ ماذا يعمل
اذا تعرض للخطبة فارتد خائبا وهو كبير القدر تأبى نفسه الخيبة ؟ »

قالت « يترك الطلب ويستغني عن الخطبة »

قال « واذا كان مفتونا قد غلب على امره »

قالت « دعنا من ذلك فاني لا اراكم الا لصوصاً تطلبون المال فهذه الاموال لديكم
وانكفلكم باضعافها اذا اطلقتكم سراحنا »

قال « اما نحن فاذا اعطينا المال شكرناك كثيرا وان كنا لا نقدر ان نطلق سراحك
ولكن لا ينبغي لك ان تحزني يا سيدتي على شيء اضعته بهذا الانتقال فانك ذاهبة الى
اعظم رجل في العالم واذا احسنت معاملته كنت مالكة الرفاق »

فاشكل عليها فهم حقيقة ما يعنيه فقالت « لم افهم مرادك ولا من هو ذلك الرجل
الذي تعنيه »

قال « ستعلمين كل شيء بعد بضعة ايام . . . كوني مطمئنة انك ستسيرين معنا
معززة مكرمة ومتى وصلنا المكان المقصود كنت في ارغد عيش واسع حال »

قضت عدة ايام مع قهرمانتها واولئك الوفد على اتم ما يرام من الاعزاز والاکرام وكانوا
قد حلوا وثاقهما في صباح اليوم التالي وقاموا بخدمة تمام احسن قيام من الطعام والشراب والمبيت
وقد اتيح لجهان الفرار لو اطاعتها نفسها عليه ولكنها اكبته وخافت مغيبته — وكبير
النفس لا يطاوعه وجدانه على الفرار حتى من الموت

مرت في اثناء هذه الرحلة بمدن وقرى وجبال واودية وسهول وحزون ورأت اقواما
من امم شتى فعلمت من بعض القرائن انها مرت باذربيجان وجاءها ذلك الزعيم ذات يوم

واخبرها انها صارت في ارمينيا وانها لا تلبث ان تدخل اردبيل . فعملت حينئذ انهم سائرون
 بها الى بابك الخرمي فتذكرت انه كان قد طلبها من ابوها ولم تقبل به فتمتعت انها محمولة
 اليه فاخذت تنأهب لمدافعته وعلمت انها مكيدة من اخيها فندمت على الركون اليه
 وقد اصاب ظنهابسامان لانه طبع على اللؤم وزاده غضب والده نعمة عليه وعلى اخنه
 وكان طلاباً للعلي ولم يستطع ذلك بعلم الهمة والبسالة كما يطلبه كبار الرجال فالتسه بالحيلة
 والخداع — وليس اشأم على الامة من ان يعجز رجال المطامع فيها عن نيل العلي باعمال توافق
 مصلحتها فيلتسونها بتضحية تلك المصلحة في سبيل مطامعهم
 فانظم سامان في سلك الخرمية وهي جمعية سرية قامت على مقاومة اصحاب السيادة
 وزعيمهم في ذلك العصر بابك الخرمي صاحب اردبيل وكان الخرمية يسعون في تأييد سلطته
 سرّاً وكان شديد البطش يبالغ في اقتناء النساء لا يسمع بامرأة جميلة الا سعى في احضارها
 اليه فاذا لم يستطع ذلك بالجاء طلبها بالمال فاذا اعجزه احضارها بالمال حملها بالقوة . فشاع
 خبره في الافاق وسمع بجهان فبعث يخطبها على يد سامان فلم يرض ابوها فندس الى سامان
 انه اذا اتاه بها رفع قدره وقلده منصباً عالياً واكرمه بالمال ولم يكن سامان قادراً على شي
 في حياة ابيه فلما توفي ابوه وقد حرمه من الارث ازداد رغبة في الانتقام ولقي الاصبهيد
 نائب بابك في فرغانة ايام النوروز في بعض جلسات الخرمية التي كان يحضرها سرّاً فيغيب
 عن البيت اياماً وابوه لا يعلم سبب غيابه وانما كان يقضي تلك الايام في المداولة والمواظاة .
 فتواطأ مع الاصبهيد على ان يحتال في حمل جهان الى اردبيل وهو لا يبالي بعواطف المحبين
 لدنائة طبعه وهو اجرود لم يجرب شعائر الرجال . وعزم على ذلك خصوصاً بعد مقابلته
 للافشين واطلاعه على وصية والده فاصبح همه الانتقام من الافشين فوجد في اجابة
 طلب الاصبهيد نيل ما يتمناه من الثروة والنفوذ والانتقام من عدوه فانفق مع الاصبهيد
 على ان يهيء رجالاً يكمنون في الطريق بين الري وهمذان ليقبضوا على جهان في اثناء
 سفرها الى العراق ليظهر للملاء انهم اخذوها منه قهراً . وبعد ان اخذوها لم يكن غرضه
 من الذهاب الى العراق الا القاء الفتنة بين ضرغام والافشين وهو يعلم بسالة ضرغام وتفانيه
 في سبيل جهان فان علم انها اخذت بسبب الافشين لا يصبر عن قتله . وكان سامان قليل
 الدهاء فلم يحسن سبك حيلته فلم يطل اختفائها على ضرغام فرجع سامان من العراق وهو
 يعتقد انه اتم مهمته وفاز برامه

الفصل الثالث والرابعون

اردبيل

اما جهان فلما علمت انها على مقربة من اردبيل قصبه ارمينيا في ذلك الحين اخذت
 ثوبها لدفع ما يهددها هناك . وكانت تسمع بياك وتعرف انغاسه وتمتلكه وتعلم انه مقيم في
 اردبيل . وما عتم الركب ان وصلوا الى غيضة اشبه كثيرة الادغال والاشجار اذا دم اهل
 اردبيل امر للجأوا اليها فتمنعهم وتعصمهم ممن يريد اذاهم فهي معقلهم ومنها يقطعون الخشب
 الذي يصنعون منه الصواني والقصاع^(١) . واستغرقت جهان في هواجسها وهي تنظر الى تلك
 الغيضة وتفكر في كيف تخاطب بابك وتدفع اذاه وتذكرت ضرغاماً وقالت في نفسها « لو
 بلغه ما انا فيه ما الذي يعمله ؟ »

وهي في ذلك رأت الركب يتحولون عن الطريق المؤدي الى اردبيل ويدخلون تلك
 الغيضة . واناها رجل منهم اوماً اليها ان تحول شكيمة جوادها الادم نحو الغيضة ففعلت وهي
 لا تعرف السبب . وساروا في طريق وعر يحترقون الاشجار المشتبكة وجهان تلفت يميناً
 وشمالاً لعلها تعرف سبب ذلك الفرار واذا برئيس الركب جاءها وزاملها بجواده وخاطبها
 باحترام قائلاً « اراك تستغربين تحولنا الى هذا الطريق . . . او لعلك تخافين . . . »
 قالت « اني لا اخاف شيئاً . . . ولكنني استغربت دخولكم هذا الطريق الوعر بعد
 ان كنا على مقربة من اردبيل »

فاكبر الرئيس جسارتها وكبر نفسها وقال « اظنك لم تشاهدي الراية المنصوبة على
 منعطف الطريق »

قالت « كلا واين هي ؟ »

فاوماً اليها ان تنظروا وهو يصعد بها الى اكمة هناك فلما صعدا قال لها « الازنين
 هذه الراية ؟ »

فلما وقع نظرها عليها خفق قلبها لانها راية الافشين فقالت « انها راية المسلمين »
 قال « نعم وقد جاءنا احد الكوهبانية (وهم اصحاب الاخبار عند الفرس القدماء يشبهون
 فلم المخبرات في هذه الايام) واخبرنا ان مولانا قد غادر اردبيل واحتملها المسلمون بدمه »

(١) ياقوت ج ١

قالت « اظنك تعني بابك . . . والى اين ذهب ؟ »
 قال « اخبرنا الكوهباني انه اوغل في ارمينيا وتحصن في بلد منيع يقال له البذ عند
 نهر ارس ونحن ذاهبون اليه »
 وانت من الرجل لطفًا واكرامًا كثيرًا فطمعت في ان يطلق سراحها بعد ان شغل
 القوم بالحروب فقالت « فانتم ذاهبون بنا الى البذ ؟ »
 قال « نعم باسيدي وهي علي بضعة ايام من هنا »
 قالت « ولا بد من ذهابي معكم ؟ »
 فادرك الرجل انها تعرض باطلاق سراحها فقال « لا بد من ذلك لان امر مولانا
 قضاء لا سبيل الى تبديله وزد على ذلك اننا لو تركناك كنت في خطر شديد ان لم يكن
 من اللصوص فمن الوحوش »

وكانت خيزران على فرس وراء فرس جهان فالتفتت جهان اليها فابتدرتها خيزران
 قائلة « وما الذي تخافينه عند بابك ومثلك لا تخاف موقفًا »
 فازدادت جهان نشاطًا بهذا التشجيع وعلمت ان خيزران لم نقل ذلك الا وهي لا تجد
 سبيلًا للنجاة وعادوا الى المسير صعدًا وجهان تلتفت الى ماحولها لتأمل وحشة ذلك المكان
 وسعة تلك الغيضة فوق بصرها على مدينة اردبيل عن بعد ورأت ساحتها الكبرى غاصة
 بالجند والرايات الاسلامية وهي تعلم طبعًا ان الافشين نفسه ليس هناك لانها تركته في
 فرغانة وان المقيمين في اردبيل فرقة من جنده

وكان الوقت ظهرًا وصدرت الاوامر الى الركب ان يستحثوا خيولهم للخروج من الغيضة
 قبل دخول الليل خوفًا من المبيت فيها

خرجوا من الغيضة ثم وصلوا السير فمروا بارشق وخش وبرزند وغيرها ورأت جهان
 رايات المسلمين على اسوار تلك المدن واما الجند فكان معظمه في اردبيل وليست هذه المدن
 الا محطات لاختران المؤونة اللازمة له في اثناء انتقاله لمحاربة بابك . فكانت كلما تقدمت
 احست ببرودة الطقس حتى اشرفوا بعد بضعة ايام على البذ وهو اشبه بالمعقل او القلعة منه
 بالمدينة لانه مؤلف من عدة قصور كالقلاع يحيط بها كلها سور هائل عليه الابراج
 والابواب فوقها اعلام الخرمية . والارض على اجمالها في تلك الجهات جبلية وعرة يصعب
 سلوك الجند فيها باثقاله واحماله . فعلمت ان بابك التجأ الى ذلك المعقل لمناعته حتى يكاد
 يستحيل على المسلمين اخذه

وسبق واحد من الركب الى البذ يستأذن في الدخول ويسأل عن المكان الذي ينزلون فيه جهان ثم عاد وأشار بالدخول من باب غير الذي كانوا عازمين على الدخول منه . ولما صارت جهان داخل السور شعرت كأنها في قفص فاستوحشت واحست خيزران بوحشتها فسأقت فرسها الى جانبها وسألت كبير القوم عن المكان الذي هم سائرون اليه فقال « ان مولانا في شاغل خارج البذ وقد امر ان نأخذ عروسه الجميلة الى قصر النساء هذا تمكث فيه مكرمة معززة حتى يأتي »

فاجفت جهان عند سماعها قوله « عروسه » ولكنها تجلدت وظلت ساكنة حتى اقبلوا على القصر وله سور خاص ورحبة وحديقة كأنه حصن قائم بنفسه ووقف لهم الحرس ووسعوا فدخلت جهان وقهرمانتها على فرسيهما من الباب الكبير حتى اذا دنت من الباب الصغير المؤدي الى المساكن ترجت وترجات خيزران معها وامرع بعض الخدم لتناول الفرسين وقد ادهشهم مارأوه في تلك القادمة من الجمال والهيبة لانها لاتغطي وجهها . ولم يقع نظرها على نظر احدهم الا شعر بقوة لم يعهدا بسواها مع ان ذلك القصر يحوي مئات من اجمل النساء لان بابك كان مولعاً بانتقاء الجميلات كما علمت

الفصل الرابع والاربعون

هيلانة

ثم اسرع رئيس الركب اليها ووقف باحترام وقال « ارجوان تكون سيدتي قد اغضت عن جسارتي في حملها على غير ماتريد متى علمت اني محمول على ذلك بامر سيدنا ومولانا واكنني بذات جهدي في راحتها وحفظ كرامتها فهل تذكرني لدي الامير اذا سنحت لها فرصة لانها ستكون الامرة الناهية . . . »

فقال « ما اسمك »

قال « بهزاد ياسيدي »

قالت « الى اين انا ذاهبة الآن ؟ »

قال « الى قهرمانه القصر وهي تقوم بما تحتاجين اليه من اسباب الراحة . . . »

وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما فقالت للرجل « ألا تعرف من اهل هذا القصر

احداً معرفة خصوصية « ارادت ان تستعين برأيه في واحدة ثقي بها
فقال « اعرف اكثرهن وهن من امم شتى ولكنني اظن مولاتنا تستأنس بالسيدة
هيلانة على الخصوص فانها من بيت الامراء وقد عرفت بيت زوجها بارمينيا قبل ان امر
مولانا بابك باستقدامها . وكنت في جملة من حملها اليه وتعارفنا في اثناء الطريق فرأيتها
عاقلة لطيفة واطن مولاتنا تُسرُّ بمعاشرتها . . والآن استأذن بالانصراف فقد اقبلت
القهرمانة . . وانا اسمي بهزاد ياسيديتي . . » وانصرف

ظلت جهان واقفة بجلال وهدوء وقوف الملكة بباب قصرها حتى وصلت القهرمانة اليها
وهي عجوز طويلة القامة تدل ملاحظتها على ما كانت عليه من الجمال في شبابه وقد لبست ثوباً
يتلألأ بالوشي والتطريز حول جيدها العقود وفي يديها الاساور وفي اذنيها الاقراط
فوقع نظرها على جهان بما في وجهها من آثار السفر الطويل وقد توردت وجنتاها
كأن النار لفتحتها ورأت في عينها معاني لم تعهد مثلها في واحدة من عشرات النساء اللواتي
هن تحت ادارتها ولا مثل ذلك الجمال الجاذب . واستغربت على الخصوص رباطة جأشها
لعلمها انها أخذت رغم ارادتها وكانت تعلم بعلم منزلتها وكيف طلبها بابك من ابيها فلم ترض
به وكانت تتوقع ان تراها منكسرة القلب باكية نادية فلما رأتها رباطة الجأش هادئة ظنتها
راضية بما قسم لها . ولما دنت منها رجبت بها وضمنتها وهي تقول « مرحباً بعروس فرغانة . .
يشق عليّ ان تحملي الينا فسرّاً وارجوان تكوفي قد غيرت رأيك »

فلم تجبها جهان على سوءها ولكنها ابتسمت ومشت معها في دهليز القصر وهي مطرقة .
ولو تلفت لرأت نساء القصر يتسابقن ويتزاحمن للنظر الى ضرتهم ولما شاهدن جمالها وهيبتها
حسدنها لانها سيكون لها المقام الاول عند بابك . اما هي فما زالت سائرة لا تبالي حتى
ادخلتها القهرمانة الى حجرة مفروشة بالطنافس فرشاً حسناً وقالت لها « هذه غرفتك يا حبيبتي
استريح فيها »

قالت « واين ثيابي؟ . . فقد اخذوها في جملة الاحمال »

قالت « ستكون عندك بمد قليل » وخرجت وارسلت اليها صناديقها

ولما خلت جهان بخيزران في تلك الغرفة ايقنت انها وقعت في الفخ فانهضت نفسها
ولم تملك عن البكاء وهي تتجلد وخيزران واقفة بجانبها تمسك نفسها مراعاة لها فلما رأت
دموعها تنحدر على خديها انفطر قلبها وترامت على قدميها وهي تقبل طرف ثوبها وتقول
« آه ياسيديتي ما الذي اصابنا . . كيف جئنا وكيف أخذنا؟ واين نحن . . اين ضرغام

الآن . . . واسترسلت في الانتخاب وجهان تبكي ولا تتكلم . وشمرت خيزران انها
اخطأت باظهار ذلك الضعف بين يدي سيدتها فتماسكت وقالت « ولكني واثقة بتعقلك
وقوة جنانك واعلمي اني رهينة اشارتك بكل ما تريدن »

قالت « لا احتاج الي شيء الآن . . . سمعت بهزاد يثني على امرأة من نساء هذا
القصر اسمها هيلانة فلعلها تؤنسنا اذا عرفناها . . . هل لك ان تبجشي عنها وتأثيني بها .
وقبل ذهابك اخرجني لي ثيابي »

فاعدت لها ما تحتاج اليه ومضت وكانت الشمس قد اذنت بالزوال وأخذ الخدم في
انارة القصر بالشموع فبدلت جهان ثيابها واستلقت للإستراحة والتنتت الي ما حولها فلما
تصورت نفسها في تلك الغرفة وبينها وبين فرغانة بضعة اشهر وكذلك بينها وبين سامراً
فكرت في ضرغام وهل يعلم ما اصابها وتدكرت اخاها سامان وقالت في نفسها اين هو
يا ترى هل قتل في المعركة ام فرّ الي مكان آخر . وعولت ان تتخذ وسيلة لا يصل
الخبر الي ضرغام ليعلم مكانها لعله يستطيع انقاذاها بالسيف او بغيره . وهي تفكر في ذلك
قرع الباب ودخلت خيزران وهي تقول « قد جئتك بالسيدة هيلانة يا مولاتي »

فجلست جهان وهمت بالوقوف لملاقاتها فاسرعت هيلانة واجلستها وجلست الي
جانبا وهي تهش لها وترحب بها كأنها تعرفها من عدة اعوام . واستأنست جهان بها استئناساً
كبيراً وأحست كأنها في قصر ابها بفرغانة بين اهلها لانها آنت في وجه تلك المرأة
لطفاً ومودة واخلاقاً فضلاً عن الجمال . وكانت هيلانة شقراء اللون زرقاء العينين بيضاء
البشرة لا يبارح الابتسام فيها فابتسمت جهان لها ورحبت بها وشكرت لتلفظها فقالت هيلانة
وهي تضحك ضحك تشجيع وابتسام لا ضحك خفة او طيش « مرحباً بعروس فرغانة
فقد طالما سمعت بجمالك وتعقلك وقد مضى علينا مدة ونحن في انتظار مجيئك »

فقالت « ما زلت احسبني ذاهبة الي الجحيم حتى رأيتك فخفت المصيبة عني
ولكن . . . » وغصت بريقها وتشاغلت باصلاح عقدها

فاحست هيلانة عند سماع صوتها بلذة وشعرت بجاذب يجذبها نحوها وكأنها تذكرت
مصيبتها هي فانقبضت نفسها وقالت « هكذا اراد المولى يا حبيبي . . . ولو قست مصيبتك
بمصيبة سواك لهان عليك امرك . لو عرفت كيف فعلوا بي لرأيت انك مرحومة »

فتوسمت جهان من اسلوب كلامها انها تحب ان تقص حديثها فرأت من التأدب ان
تسألها عنه فقالت « وكيف كان ذلك ؟ »

فتنهبت هيلانة وغلب عليها الجذ وقالت « لا بد انك عرفت من وجهي وضعف لغتي
 الفارسية اني غير فارسية ولا انا تركية ولا ارمنية وان كنت اخذت من ارمينيا ولكنني
 يونانية الاصل ربيت في بيت والدي في عمورية ولما كبرت خطبني بطريق من بطارقة
 ارمينيا وتزوجني وحملني الى بلده ٠٠٠ ولم اكد اقيم معه عاماً او عامين حتى بلغ هذا
 الخرمي خبري (وخفضت صوتها) فبعث يطالبني من زوجي ولما سمع ابياءه بعث قوة من
 رجاله اغتصموا غياب زوجي وحملوني اليه بالقوة وجبني هنا منذ بضعة اعوام ولا اعرف اين
 زوجي ولا الذي فعله بعدي . واما هو فيعرف مقري طبعاً ولكنه لا يجد سبيلاً اليّ هذا
 اذا كان لا يزال حياً » قالت ذلك وشرقت بريقها ثم مسحت دموعها سريعاً واتسمت
 وقالت « لم يكن غرضي ان اذكرك بهذا الحديث ولكنني اردت ان اخفف مصابك »
 اما جهان فاعظمت مصاب هيلانة وهمت ان تقص عليها حديثها فارجمها الجساء
 فتشاغلت بالتمهد واحبت تغيير الحديث فقالت « اين هو بابك هذا . وكيف تعيشون
 هنا ؟ »

قالت « ان الرجل يقيم في قصر غير هذا اقرب الى اسوار هذا البلد للملاحظة
 الاستحكامات وينقل من شاء من نساء هذا القصر اليه لتقيم عنده يوماً او بضعة ايام
 علي ما يترأى له . »

قالت « بلغني انه اليوم في شاغل عن القصر واهله »

قالت « نعم انه يتأهب لحرب شديدة »

قالت « مع من ؟ »

قالت « جاءه اصحاب الاخبار بالامس وكان قد ارسلهم ليتجسسوا احوال المسلمين
 في العراق فاخبروه ان المسلمين يتأهبون لارسال نجدة عظيمة يقودها الافشين صاحب
 أشروسنة بنفسه »

فلما سمعت اسم الافشين ارتعدت فرائصها وتذكرت انه علة كل مصائبها ولو اتبعت
 هيلانة لرأت اثر ذلك التغيير في عينها ولكنها لم تكن تعرف عن جهان الا انها بنت
 مرزبان فرغانة طلبها بابك ولم ترض به فاستجلبها قسراً . فقالت جهان « وهل جاء
 الافشين نفسه »

قالت « لا ادري اذا كان قد وصل ولكنه آت من غير بد . ولذلك فان بابك خرج
 من البلد في جماعة من رجاله ليقوم له الكميناء وينصب الارصاد في اثناء الطريق وربما

لا يعود اليانا الا بعد بضعة ايام »

فسرها هذا التأجيل وانتهت لما ذكرته عن الجواسيس الذي عادوا من العراق
فقلت « هل تعرفين احداً من الجواسيس الذين ذكرت رجوعهم من العراق ؟ »

قالت « كلا . . . ولكن خادمتي تعرف واحداً منهم . »

وكانت خيزران قد ذهبت وعادت بالعشاء الى سيدتها ووقفت تسمع الحديث فلما
سمعت قول هيلانة ان خادمها تعرف احد الجواسيس ابتدرتها قائلة « اي خادمة
يا سيدتي ؟ »

قالت « التي قابلتك الآن ودلتك عليّ »

قالت « عرفها . . . بالحقيقة انها لطيفة . . . كانها اقتنست اللطف من سيدتها »

فقالت هيلانة وهي تضحك « ولذلك فان ذلك الجاسوس وقع في هواها ولا يزال
يحمل اليها الهدايا يريد ان يتزوجها ولا تسأله عن شيء الا فعله »

فسري عن جهان عند سماع ذلك ونظرت الى خيزران فرأتها تنظر اليها ففهمت
مرادها فقالت خيزران « أريد ان اقترح عليها خدمة تكلف خطيبها بها في طريقه الى
العراق هل تساعدني على ذلك ؟ »

قالت « حياً وكرامة . . . اعدي ما تريدن ارساله ومتى عاد بمهمته الى العراق
كلفناه به »

فهلل وجه خيزران فرحاً لعلمها انها تستطيع ايصال خبر سيدتها الى ضرغام . ثم
وضعت المائدة فتناولوا العشاء معاً وتذكرت هيلانة ان جهان في حاجة الى الراحة من
تعب السفر فاستأذنت في الذهاب على ان تعود في الصباح فتأخذها الى غرفتها

الفصل الخامس والاربعون

سامان

وباتت جهان تلك الليلة والهواجس تنقادها وقد شغل خاطرها على الخصوص بأمر
الجاسوس وادارت ان تكتب الى ضرغام كتاباً ولكنها خافت ان يقع الكتاب عمداً
اوسهواً في يد احد فتكون العاقبة وخيمة . فصممت اخيراً على ان تبعث الرسالة شفاهاً .

فلما نهضت في الصباح اخبرت خيزران بما عزمت عليه فاستحسنات تحفظها وقالت « بكفي ان نبعث الى سيدي ضرغام كلمة بان جهان في البذ عند بابك فقط »
 قالت « هذا الذي اراه فاخبري صاحبتيك بذلك »

فقالت « ألا نذهبين لزيارة هيلانة . ومتى صرنا هناك اقبل الخادمة وافهمها اللزم قالت « حسناً . » واخذت باصلاح شأنها وهمت بالخروج واذا باحد الخصيان دخل يقول « اين السيدة جهان ؟ »

فلما سمعت جهان اسمها اجفلت وظنت بابك آتياً او انه بعث يطلبها وما عثم ان وصل الخصي الى الغرفة فلاقته خيزران وسألته عما يريد فقال « ان اخاها يريد مقابلتها » وسمعت جهان ذكر اخيها فتنازعا الفرح والغضب . فرحت لعلها تسمع منه خبراً عن ضرغام وغضبت لاعتقادها انه خدعها فقالت لخيزران « ادخليه »

وبعد قليل دخل سامان وعيناه تذر فان الدبوع وقد احمرتا من كثرة البكاء ولما اقبل عليها ترامي بين يديها وهو يبكي فشغها بذلك عن تعنيفه ولم تفهم سبب بكائه فابتدرته قائلة « ما بالك — ما الذي يبكيك ؟ »

قال وصوته محتق من البكاء « لا ادري . . . »

قالت « كيف لا تدري . . . قل . . . قل حلاً »

فلم يجبها ولكنه سكوت وجعل يمسح دموعه بكمه وهو مطرق فقالت له من اين اتيت ؟

قال « من سامراً »

فقالت « وكيف ضرغام ؟ هل لقيته »

فلما ذكرت ضرغاماً عاد الى البكاء فاخترج قلبها في صدرها ووقفت فجأة وصاحت

فيه « قل . . . ما بالك ؟ . . . كيف ضرغام . . . اين هو ؟ »

فتراجع وامسك بيدها كأنه يستمع لها ريثما يسكن روعه ثم قال « لا اعلم اين هو »

قالت « قلت انك كنت في سامراً »

قال « نعم كنت فيها . . . ولكنه ليس هناك »

صاحت « ضرغام ! ليس بسامراً ؟ »

قال « ليس هناك يا اختي . . . ليس هناك . . . وقد سألت الناس كافة فلم اسمع له خبراً »

فقالت وقد اخذتها الدهشة « وبعدئذ . . . كيف . . . ماذا . . . قل . . . »

قال « ماذا اقول .. ان ضرغاماً ليس في سامراً .. ولم يره احد رجع اليها بعد ذهابه الى فرغانة »

فلما سمعت قوله غلى الدم في عروقها وكاد الغضب يغاب على رشدها لكنها تجلجت وامسكت نفسها فتقدمت خيزران واخذته بيده نجوها وقالت « قل لي صريحاً ما الذي سمعته »

فقال وهو يخفض صوته يحاذر ان تسمعه اخته وهي واقفة تسمع « لما سطا علينا اللصوص كما تعلمين وتحققت انهم قبضوا على حبيتي جهان وعليك رأيت من اوجب واجباتي ان ابغ ذلك الى البطل ضرغام فاسرعت الى سامراً وقصدت البيت الذي اعرف انه يقيم فيه فوجدته خالياً خاوياً وسألت كثيرين عنه فلم اف له على خبر .. واخبرني احدهم .. » قال ذلك وبلغ ريقه وسكت مطرفاً فلما وقف هناك اصغت له جهان وتناولت بعنقها واشارت اليه خيزران ان يقول ماذا اخبره احدهم فقال « اخبرني ان عدونا الاكبر الذي هو سبب مصائبنا جميعاً بعث اليه جماعة من رجاله كمنوا له في بعض المنخيات وغدروه » ولما وصل الى هنا بكى

فلما سمعت جهان قوله ورأته يبكي امسكت نفسها حتى كف عن البكاء ثم تفرست في وجهه تفرس ناقدة وهو مطرق لا يستطيع النظر اليها كان اشعة ناربه تنبعث من عينيها فتبهير بصره — والمتافق من طبيعته لا يستطيع تثبيت بصره في عيني احد ولا سيما اذا كان في غضون نفاقه — فالخبر الذي سمعته عن ضرغام بدلاً من ان يقبها ويقعدها حتى يخرجها عن الصواب كما يتوقع الناس من امثالها في مثل موقفها لم يزد على انه نبه تعقلها وبعثها على التأمل واعمال الفكرة فتذكرت كذب اخيها غير مرة ولم يدلها قلبها على سوء اصاب حبيبتها فقالت « هل تقول الحق يا سامان ؟ »

قال « وبلاه وكيف اذن .. هل اختلق الاخبار من عندي ؟ ان الذي رأته وسمعته قصصته عليك واتمنى من صميم فؤادي ان يكون الخبر كاذباً »

فاطرقت هنيهة ثم قالت « من الذي انبأك اني هنا ومن ادخلك القصر بهذه الحالة » فلما سمع سوءا لها ارتج عليه ولم يكن مستعداً للجواب لان معرفته مكانها تدل على علاقة بينه وبين اللصوص فهو عند ذلك شريكهم فتوقف حيناً فما امهله ان يهيء الجواب وقالت « لا اطلب منك جواباً ويكفي ما قد فهمته ولنا وقت آخر نتعاقب به . اذهب الآن الى اصحابك الخرمية لعلمهم يكافئونك على صنيعك معهم . اذهب » قالت ذلك وخرجت

من الغرفة وكانت قد تهيأت للذهاب الى هيلانة فتموّل سامان وهو يهز رأسه ويتظاهر بتعجبه من تعصب اخته ضده ولماذا لانصدقه

فلما خلت خيزران بجهان قالت « ارى ياسيدي ان لا تستخفي بما ذكره سامان بل نبعت في تحقيق ذلك »

قالت « لاريب عندي بنفاقه ومع ذلك كفي الجاسوس بما ذكرناه قولي له يذهب الى سامراً ويسأل عن ضرغام رئيس حرس الخليفة ومتى لقيه يخلوبه ويخبره اني هنا فقط »

فاطاعتها ولما وصلت الى غرفة هيلانة رحبت بهما وجلست السيدتان للحديث ووقفت الخادمتان لحديثهما واتمت خيزران مهمتها كما تقدم

الفصل السادس والاربعون

بابك

مضت ايام وجهان تنتظر رجوع بابك من سفرته حتى ترى ما يتم لها معه وكانت تسمع بشدته وفظاظته . ففي ذات صباح وهي في غرفتها اتتها القهرمانه وهي كما لا يخفى رئيسة القصر والمستبدة في سكانه وما من امرأة او خادم او خصي الا وهو يلتس رضاها ويخف خدمتها لانها الوسيلة الوحيدة بينهم وبين بابك . الا جهان فانها لم تكن تستطيع التكلف باظهار غير ما تغمره فكانت اذا لقيت القهرمانه لاطفتها مع حفظ كرامتها فلم تكن تطريها او تملقها والقهرمانه لا تستنكف من ذلك لان جهان وقعت من نفسها موقعا عظيماً واجلت قدرها منذ شاهدها فكانت تميزها بالمعاملة وتلاطفها في الحديث — ففي ذلك اليوم جاءت القهرمانه ووجهها يتهلل بشراً وبعد ان حيتها قالت « ابشري يا عروسنا ان العريس قد جاء »

فاجفت جهان من هذا التعبير ولم تجب فحملت القهرمانه منها ذلك محمل الحياء فقالت « جئتك من قبل مولانا بابك فانه رجع من سفره ولما علم بمجيئك سرّاً سروراً كثيراً وامرني ان ادعوك اليه »

فاجابتها جهان بهدوء وسكينة « الى اين ؟ »

قالت « الى قصره »

قالت « اليس هذا القصر له ايضاً ؟ »

قالت « بلى ولكنه تعود ان تنتقل نساؤه اليه للاقامة معه هناك »

فهزت جهان رأسها هزّة الانكار والاباء وقالت « لا » ولم تزد

فاستغربت القهرمانة جوابها بهذه الصراحة وهي في ذلك الامر بين مخالف الاسد وظنتها تنكر الخروج حياء فقالت « ان بين هذا القصر وقصر بابك دهليزا مسقوقا تسير فيه المرأة مكشوفة كنها في غرفتها ولا يراها احد . . تفضلي . . قومي »

فظلت جهان جالسة لا تبدي حراكاً غير اشارة الانكار فغضبت القهرمانة لهذا الاستخفاف وقالت بصوت عال « انصح لك يا بنية ان تنهضي معي ولا تستخفي بهذا الرجل فانه فتاك لا يبالي اذا غضب ماذا يعمل من قتل او فتك » ثم خفضت صوتها ودنت منها ووضعت يدها على كنفها بتجيب وقالت « وانا شديدة الحرص عليك لاني احببتك منذ رأيتك . . قومي يا حبيبتي قومي » فرفعت جهان بصرها اليها وقالت « اشكرك لهذا الاحساس ولكنني لست ذاهبة من هذه الغرفة . . »

فنفرت القهرمانة من ذلك الجواب وتحولت نحو الباب وخرجت وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما وساءها ما ابدته سيدتها من الانفة والشدة وهمت بلومها بعد خروج القهرمانة فسبقها جهان قائلة « لا تقولي شيئاً يا أماء فاني لا أبالي بما يكون من هذا الجلف العاتي . . . يريد ان اخذوا اليه بارادتي . . ما أنا فاعلة . وما قدر يكون . لا يغرنك انفرادي وأسري فاني اشعر بمثل قوتي وسلطاني وانا في قصر والدي وبين اهلي واعواني ذريه يفعل ما يشاء فان عروس فرغانة وخطيبة ضرغام لا تدل نفسها لانسان . . ولما ذكرت ضرغاماً غصت بريقها فسكنتت وتشاغللت بالهوض وكانت قد لبست ثوبها والتفت فوقه بمطرف من الخبز وتحمرت بشال مزركش التماساً للدفع لانها في اقليم بارد . فوقفت ومشت في ارض الغرفة وهي مطرقة تفكر في ماذا عسى ان يفعل بابك اذا بلغه اباؤها وعزمت على الدفاع والنبات الى آخر نسمة من حياتها وهي تفكر في ذلك وخيزران واقفة لا تبدي حراكاً سمعت سعالاً جهورياً لم تعهد مثله في ذلك القصر فعلمت انه سعال بابك وأنست في القصر حركة وجابية لان اهله لم يعودوا دخول بابك عليهم وسمعت جهسان صوت القهرمانة يخاطب بابك ونظرت

لجهة الصوت من نافذة صغيرة تطل على الرواق فرأت بابك قادماً والخدم الى كل من
الجافين يخرون سجداً والنساء يخنين رؤوسهن احتراماً والجميع يحيونه كما يحيون
معبوداتهم واكثرهم من المجوس وهو يمشي مشية الختان الفخور

فلما وقع نظرها عليه ارتسدت فرائصها لاول وهلة ولم تستغرب ما شاهدته من
سجود الناس فقد تعودت مثل ذلك لوالدها في قصره لكنها ابنت ان تكون هي ايضاً
في جملة الساجدين • بل شعرت بميل الى المغالاة في الترفع شأن الانسان اذا كان في
رفعة وأصيب بما يحط من منزلته بمض النبيء كالفقر او العز فانه يصبح اكثر ميلاً
الى المحافظة على مقامه وربما كان متواضعاً قبل نزوله فيصبح بعده مترفعاً متكبراً

وكان بابك ضخيم الجثة عظيم الهامة كبير اوجه جاحظ العينين ضخيم الشفتين كبير
الكتفين بارز الصدر اذا مشى ترخ في مشيته ترخ الخيلاء والكرياء • وتعود التصدر في
موقفه او مجلسه حتى لو اراد الاثناء لتناول شيء وقع منه لم تظاوعه اعضاؤه • ولا غرابة
بذلك في من لا يفتح عينيه الاعلى المسيحين باسمه المستهلكين في ارضائه اذا امر اطاعوا
واذا نهى رجعوا • وهو رئيس الحرمية في جمعيتهم وقائدهم في حروبهم • وكان شجاعاً
شديد البطش قوي العضل ابي النفس • ولولا انغماسه في الملهيات والشهوات لكان مثال
الرجال العظامه ولا يبلغ ارجل هذا المبلغ من السلطان والجاه ما لم يكن على شيء من
الفضائل والمواهب • ولكنه ادمن الخمر فكان يشرب منها مقداراً كبيراً ولا سيما في ايام
السلم اذا تعد للتمتع بملاذه • وكان في ذلك اليوم قد اعدت مائدة الشراب في قصره وبعث
في طلب جهان وجلس في اثناء انتظارها يشرب ولما جاءت القهرمانه بنجر رفضها كانت
الخمر قد عملت في رأسه فاعظم انكار جهان السعي اليه فغضب وجاء ليعاقبها بنفسه

فلما دنا من غرفتها تقدمته القهرمانه وفتحت الباب وقالت « هي هنا يا مولاي »
ورجعت وشارت الى خيرزان ان تخرج معها فخرجت وتباعدت وهي تراعي سيدتها باذنيها

الفصل السابع والاربعون

الانفة

وكانت جهان لا تزال واقفة فلما رآه داخل فعدت • فاستغرب استخفافها ولكنه ما وقف
بصره عليها ورأى تلك الهيبة وذلك الجمال الرائع وما يتجلى في عينيها من الذكاء وما ترسلانه

من الاشعة الكهربائية حتى دهش . ومع كثرة من رأى من جيلانة، النساء الفارسيات والكرجيات والشركسيات والروميات وبعضهن اجمل من جهان نكوبنبا واصفى لونا لكنه لم تقع عينه على فناة فيها ما في جهان من البصر الجاذب فحف غضبه لكنه لم يألف الرجوع عن رأيه وانما تعود ان يسترضيه الناس سواء كان محمداً في غضبه او محموقاً . فلم يتمالك عند ما رأى استخفاف جهان به ان قال « وتعددين أيضاً وانا واقف ؟ »

وكانت هي مع تجلدها ورباطة جأشها تنتفض من شدة التأثر لاول وهلة فتشاغلت باصلاح شعرها لا تبالي بما يبدو من وجهها أو عنقها ولما سمعته يخاطبها رفعت بصرها اليه وتفرست في عينيه وهو ينظر في عينها فاحس بسهم اصاب منه مقتلاً وكان الغضب اسرب من صدره حتى خرج من اطراف انامله وسري عنه . اما هي فاجابته « هل ينفعلك قيامي ان لم تمتلك فؤادي ؟ »

فتومم من جوابها فرجاً فقعد على وسادة بجانبها وقال « ارجوان يكون لي نصيب من ذلك الفؤاد . . . اذ لا اظن احداً اجدر به مني وانت تعلمين من هو بابك صاحب الحول والطول زعيم الخرمية قاهر جنود المسلمين . . . ويسوءني اني حملتك الي قهراً ولكني لم افعل ذلك الا بعد ان فشلت من نيلك بالحسنى . فكيف رابتي ؟ »

فلما سمعت تल्पفه وثقربه قالت « رابتك بطلاً باسلاً وتزعم انك ملك قاهر وما انت الا اسير »

فاجفل وقال « اسير؟ ماذا نقولين »

قالت « نعم انك اسير . . . اسير شهواتك . . . فمن كان ملكاً عظيماً قاهراً الا يليق به ان يكون عبداً لشهواته . . . اني اشم رائحة الخمر من هنا »

قال يظهر انك تزعمين كما يزعم اولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين فيحرمون الخمر وهل في ملذات العالم اشهى منها بل هي ام اللذات لانها تستنهض القوى وتستحث مطالب الجسد فتزيد الرغبة في ما تشتهي النفوس من الطعام والشراب وغيره فاذا قطعته فقد اضعف اطيب اسباب الحياة »

فتزحزت من مجلسها و اشارت بفمها اشارة الاستخفاف والاستغراب وقالت « تقول انك صاحب السلطان وقاهر المسلمين وتزعم ان معظم ملذات الحياة الطعام والشراب وغيرها من مطالب الحيوان . . . ؟ وعندني ان مطالب الرجل ان يكون سيداً جليلاً نافذ الكلمة يهابه البعيد ويحبه القريب »

فقطع كلامها قائلاً « الست كذلك ؟ »

قالت « كلاً . . . ربما خافك البعيد ولكن القريب لا يجيبك . . . والذين حولك يسبحون باسمك ويعظمونك انما هم يتماقنونك فاذا غبت قالوا فيك كل قول قبيح ولا لوم عليهم فانك لم تفعل ما يجيبك اليهم »

فملّ بابك البحث في موضوع احسن انه مغلوب فيه ورأى من الجهة الاخرى انه بالغ في التنازل لتلك الفتاة واكبر ان تكون منه بمنزلة الواعظ او المرشد فقال « مالنا ولهذا الجدل الآن ؟ هيا بنا باجهان » ووقف وهو يمد يده ليمسك بيدها ويعينها في النهوض فجدبت يدها منه وظلت قاعدة

فمد يده ثانية ليمسكها فوقفت ويدها وراء ظهرها وهي تقول « قف عندك يا بابك انك بهذا العمل تؤيد قولاً انت تنكره على الناس . . . لاتدن مني »

فقال « ومن يدنو منك اذن غيري ؟ انت عروسي وقد بعثت في استقدامك من اقصى بلاد الترك لاجمك سعيدة فلا تجعليني شقيماً ؟ »

قالت « من كانت مطالبه جيوانية وكان ذا سلطان نافذ لا يشقى لان يده تطول ما يريده ان لم يكن بالمال فبالسيف فكيف تشقى لاني لم اسلمك يدي وفي قصورك مئات من النساء الجميلات فاحسب اني غير موجودة واتركني وشأني »

قال وكلاهما واقف « لو لم اكن اتوقع السعادة بقربك أو لو كان في من بقي عندي غنى عندك ما تكبدت المشقة في استقدامك ولم اكن لانال ذلك لولا حبينا سامان . »

فتحققت من ذلك ان اخاها هو الذي اسلمها فتحولت نغمتها اليه وابتعدت لا تدري ممن تنتمى ولا كيف تنتمى فتجاهلت ما فهمته عن سامان وقالت « تكبدت كل ذلك من اجلي لتجعلني مثل نساء قصرك ؟ »

قال « بل ابالغ في اكرامك واهدي اليك الجواهر والبسك احسن الملابس واخترتك بالتقريب والمجالسة واجمك سيدة هذه المدينة ولا انحك شيئاً تطالبينه »

قالت « تلبسني الجواهر ؟ ما الجواهر عندي الا حجارة لامعة لا ترفع نفساً ولا تعلي مقاماً وهذا صندوق مملوء من الجوهر والدر وقد تركت قصري وعقاري في فرغاة ولو بقيت هناك لكانت ملكة من الملكات واكن رأيت هذه الاموال من اسباب شقائي فتركتها . . . »

فقطع كلامها قائلاً « ياغني ان ابلك المرزبان اباك اقام عليك وصياً الافشين

صاحب اشروسنة . . . مالنا ولكل ذلك تعالي نتناول الطعام معاً « ودنا منها فتراجعت
فغضب وعمد الى تهديدها فنظر اليها شزراً وقال « اذا كنت لا تأتين طوعاً اخذتك كرهاً
وانت تعلمين اني اذا قلت فعلت . فقد كنت في فرغانة واتيت بك الى ارمينيا . فهل
يشق عليّ ان انقلك من قصر الى قصر بينهما مئة خطوة ؟ »

قالت « اظنك تحسبني الآن وانا على مرأى منك اقرب اليك من يوم كنت في فرغانة .
اعلم انني لا ازال بعيدة عنك كافي في فرغانة او ابعد منها »

قال « نقولين ذلك وانت بين يدي ولو شئت لقبضت عليك يدي من حديد او امرت
رجالي فيحملونك اليّ موثقة . . . ولكنني لا ازال ارجو رجوعك الى رشك »

فنظرت في عينيه نظرة حادة ملؤها التوبيخ والترفع وقالت « قد تقبض على عنقي
وربما استعنت برجالك فاوثقتني او قتلتني . ولكنك تنال كل ذلك قبل ان تستطيع لمسة او
نظرة مما كنت ترجوه مني . . . اقتل . . . واذا جئت عن قتلي فاننا لا اجبن عن قتل نفسي
فلا تحقرني او تهددني . واعلم انك تخاطب فتاة اكبر منك نفساً واربط جأشاً وافوى
جناناً واذا كنت تحسبها كسائر من في قصرك من اللقيطات او المسبيات او الرقيقات فقد
اخطأت . انك تخاطب ابنة مرزبان فرغانة . . . فادتها التقادير اليك فاعتنم صداقتها ودع
غير ذلك . او فامض في سبيلك وأرح نفسك »

وكانت تقول ذلك بلهجة صاحب السيادة والسطوة وبابك يشعر انه يكاد يغلب على
امره بين يديها كأن لها عليه سلطاناً وكما ارسلت اليه نظرة حلت من عزائم عقده فقال
« والآن . . . ما الذي تريد منه »

قالت « اريد ان تتركني وشأني »

قال « اتركك اياماً تفكرين في امرك لعلك ترجعين الى صوابك وتعلمين انك اذا
اطعتني نلت السعادة . قال ذلك وتحول حتى خرج من الغرفة وقد تغير وجهه وكانت
القهرمانه وخيزران واقفتين تسمعان شيئاً من الحديث وكتاهما بجهة ببسالة جهان وانفتحا
وبعد ان كانت القهرمانه ضدها اصيحت معها ولم تتظاهر بذلك لكنها صارت تلاحظها
وتراعيها من ذلك الحين

اما جهان فلم تقل ما قالته لبابك على سبيل التهديد ولكنها كانت قد اعدت ما يلزم
للدفاع أو الانتحار عند اليأس . وقد فتحت باب الاستمالة عنوة ريثما يعود الجاسوس وتعلم
ماذا جرى لضرغام ثم تنظر في الذي نعمله

الفصل الثامن والرابعون

الجاوسوس

ولم ينقض ذلك اليوم حتى شاع حديث جهان في القصر واطلعت عليه النساء ولم تبق واحدة الا اعجبت بها واصبحن ينظرن اليها نظر الصغير الى الكبير او نظر الجاهل الى العالم وخصوصاً صديقتها هيلانة فانها حينما علمت بخروج بابك من القصر هرولت الى جهان واخذت تسألها عما جرى وجهان فتواضع في التعبير وثلتمس الاعذار لبابك على تغاضيه فلم يكن ذلك الا ليزيد جهان احتراماً في عينيها حتى تعشقتها واصبحت حديث اهل البذ ومضرب امثالهم وهي لا تعبأ بشيء من ذلك وانما همها استطلاع خبر ضرغام وابلاغ خبرها اليه ولم تعد ترى سامان

مكثت حيناً في انتظار رجوع الجاسوس وكانت قد اخلت الود لهيلانة فقصت عليها متاعبها باختصار فشاركتها في ذلك واصبحت شديدة الاهتمام بشانها ولم تكن اقل قلقاً لرجوع الجاسوس من جهان نفسها . فاتفق يوم رجوع الجاسوس ان جهان كانت عند هيلانة في غرفتها وخادمتها قائمة بالخدمة اللازمة وخيزران غائبة فلاحظت جهان في وجه الخادمة تغيراً وكانت تراقبها فقالت لهيلانة « اسالها عما قاله لها خطيبها »

فبغتت هيلانة لتلك المفاجأة قالت « وهل تظننه جاء »

قالت « نعم جاء . . . ويظهر انه لم ياتنا بخبر مفرح »

فاستغربت تكهنها و اشارت الى خادمتها فانت فقالت لها « هل عاد صاحبنا من

سامراً ؟ ومتى ؟ »

قالت « فعم ياسيدتي اتى منذ ساعتين »

قالت « ولماذا لم تخبرينا بذلك »

فقالت لو اتانا بخبر سار لبادرت الى نشره . . . »

وكانت جهان تسع ذلك فغلبت عليها البغثة وصعد الدم الى وجنتها وقالت « ماذا

قص عليك ؟ »

قالت « قال لي انه سأل عن الرجل الذي طلبت منه البحث عنه في سامراً كلها فلم

يقف له على خبر »

قالت « هل نقدر ان نراه ونسأله شفاهاً ؟ »
 قالت « لا ادري اذا كانت القهرمانة تأذن بذلك »
 فقطعت هيلانة كلامها وقالت « هي تأذن بكل ما تريده جهان عروس فرغانة
 لأنها سحرتها . . . قولي للقهرمانة انها تطلب مقابلة فلاناً لتكفنه بأمر »
 فذهبت الخادمة وعادت به فسألته عما يعلمه فقال « سألت عن ضرغام يا سيدتي
 فلم اجد احداً يعرفه »

قالت « ألم تسأل عنه في قصر الخليفة ؟ »
 قال « سألت عنه هناك فلم اقف على خبره »
 قالت « اظنك لو سألت عن رئيس الحرس لوصلت اليه »
 قال « سألت عن رئيس الحرس فقيل لي ان اسمه صاحب »
 قالت « هل انت واثق مما نقول ؟ »

قال « نعم ياسيدي وقد دفقت البحث عن رئيس الحرس نظراً لما رأيت من اهتمام
 الناس به فقيل لي انه رجل شجاع باسل وان الخليفة يحبه حباً شديداً وقد زوجه فتاة
 جميلة من بنات قصره واهداه هدايا ثمينة »

ثبت عندها انه يقول الصدق وقد يخطر لها ان يكون صاحب ضرغاماً نفسه لولا
 حديث زواجه وهي لا تصدق ان ضرغاماً يتزوج ويتركها فتأكد عندها ما قصة عليها
 اخوها من قبل وان الاثنيين سعى في قتله فزادت تقمتمها وغلب اليأس عليها واستغرقت
 في الهواجس وقد نسيت موقفها ولم تتبها الا وخيزران تدعوها فحجبت لاستغراقها
 ونهضت تطلب غرفتها للاختلاء بنفسها ونسيت ان خيزران نادتها فلما خرجت من عند
 هيلانة لقيتها خيزران فقالت « الى اين ياسيدي »

قالت « اظنك دعوتني وقد نسيت . . ماذا تريدين ؟ »
 قالت « كنت في حديقة القصر فرأيت بابك خارجاً من قصره فظننته خارجاً الى
 الحصون والمعقل واذا هودخل هذا القصر وطلب الى القهرمانة انه يريد مقابلتك الآن
 او عزت الي ان اطلب اليك ذلك »

فاجفلت وقالت « بابك الآن يطلب ان يراني ؟ »

قالت « نعم وهو في غرفتك »

قالت « وفي غرفتي أيضاً ؟ ما العمل يا اورمزد ساعدني . . اني أراني في ورطة يصعب

التخلص منها . . . أعلمت الخبر الذي جاء به الجاسوس ؟
 قالت « نعم ياسيدي علمته . . . »
 قالت « وما رأيك ؟ »
 قالت « هل لي رأي بوجودك ؟ يظهر ان مولاي ضرغاماً ليس في سامراً »
 قالت « لا يخيفني غيابه عنها وانما يخيفني ان تصدق رواية اخي سامان بشأنه . . .
 لم تسمعها »
 قالت « سمعتها ولكن من يعلم الصحيح »

الفصل التاسع والاربعون

الانقلاب العجيب

وكانتا تتكلمان وهما تمشيان على مهل حتى اشرفنا على الغرفة فتراجعت جهان وقالت
 « والان لا بد من مقابلة بابك ؟ ماذا اقول له او لعل عنده خبراً جديداً . . . »
 وهي تردد في ذلك سمعت صوت بابك بنادي من داخل غرفتها « جهان . . . جهان »
 فاسرعت وركبتها تصطكان وهي تيجلد حتى اقبلت على باب الغرفة فاطلت على بابك
 وكان جالساً فوق لها واستقبلها وهو يبش ويتسم فلما رأت ابتسامه اطمان خاطرها ولا سيما
 لما رآته وقف لها ورحب بها بعد ما كان من محافاتهما وابتدرها قائلاً « اني اقف لعروس
 فرغانة وان كانت هي تحنقر بابك ولا تقف له »
 قالت « ان جهان لم تحنقر بابك وانما احنقرت خصالاً فيه قد ذكرتها »
 قال وهو يجلس ويدعوها الى الجلوس « واذا نزع تلك الخصال منه هل تحببته ؟ »
 ولاح لها من خلال كلامه انه يقول ذلك جداً ليس على قبيل الجمالة او المداعبة
 فظهرت اريابها قائلة « اراك تسخر من فتاة اغضبتك فاحببت التشفي منها ولكنني اخلصت
 لك النصيحة وعرضت حياتي للخطر من اجل ذلك »
 قال والاهتمام بادر في محيائه « لا باجهان . . . اني لا اسخر منك ولكنني اعلمت الفكرة
 في ما قلته لي فقضيت مدة غيابي عنك وانا افكر في اقوالك وحقيقتها نجلي لي رويداً

رويداً . وكما انجلت شعرت بالخجل من نفسي وندمت على ما فرطت مني . . . كنت منغمساً في الملذات والاكثر من النساء لاني لم اجد واحدة تملأ عيني وتملك قلبي . وانت لا ادري ما الذي غيرته من وجداني . . . اراني منذ خاطبتك قد حدث في تغيير لم اعهد مثله من قبل . كأنك روح مرسله الي من عند اورمزد . . . وانما همي الان ان تقولي لي انك تحبينني . . . » قال ذلك والعرق يتلأل على جبينه .

فاستغربت انقلابه ولم تحف انه يداجيها او يخدعها لانها قرأت الاخلاص في عينيه واكبرت ان ترى ذلك الرجل الفظ الشديد يتقرب اليها بتلك العبارات فقالت « هل تعني ما نقول ؟ »

قال « نعم . . . ولا حاجة بي الي المداجاة كما تعلمين لاني الامر الناهي . ولكنني عملت بنصيحتك لانها نزلت منزلة الدم من قلبي والسواد من عيني فهجرت الخمر وسأترك كل النساء من اجلك . . . صدقت يا جهان ان العيشة الهنيئة في الحب المتبادل . وها انا احبك فهل انت تحبينني ؟ . لا عذر لك في الرفض الان »

فاطرت واستغرقت في افكارها وفي ما سمعته تلك الساعة عن ضياع خرغام حتى يئست من وجوده . . . وكيف ان ذلك الجبار يخطب رضاها ويشترط على نفسه ان ينقطع لخدمتها ويهجر الخمر والنساء سواها فحدثتها نفسها ان تجيبه بالايجاب فاعترضها خيال حبيبها فتصوّرت انه وجد بعد ذلك فكيف تقابله وبأي عين تنظر اليه . فظلت حيناً وهي تعمل فكرتها وبابك صابر ينظر اليها ويراقب حركات عينها فلما استبطأ جوابها قال « اظنك تفكرين في الافشين »

فلما سمعته يذكر الافشين ظننه يعلم شيئاً عنه فقالت « وكيف عرفت اني افكر فيه وما هي علاقته بي »

قال « أليس هو الوصي عليك ؟ »

قالت « بلى . واذا كان وصياً »

قال « لا اخفي عنك ما سمعته وان كنت تحاولين اخفاءه عني . . . علمت ان الافشين بعد ان جعله والدك وصياً عليك طمع بزواجك فرفضت طلبه اليس كذلك ؟ »

فاطرت وبدا الحياء في محياها ولاح الغضب في عينها ولم تجب فقال بابك « وان فتاة ترفض الافشين ملك اشروسنة ثم ترفض بابك صاحب ارمينيا رغبة في الفضيلة لمي جديرة بالعبادة . . . وبلغني ان الافشين انتقم منك انتقاماً جارحاً . . . واورمزد لا تنتقم من

لك منه أشد الانتقام »

فلما سمعت تعريضه بالانتقام من الافشين مالت الي القبول ولكنها ما زالت ترجو لقاء
ضرغام فقالت « اذا كنت تعني ماتقول وانك تنتقم لي من الافشين وقد افشيت اسراراً
عرفتها عني فاسمح ان أنبهك الي امر . . . انت تعلم اني فارسية مثلك وابي مرزبان كبير
لم تكن تخفاه خافية من اغراض الفرس على العرب . فانت متواطىء مع الافشين والمازيار
صاحب طبرستان على قلب دولة المسلمين^(١) . . . اليس كذلك اصدقني »
قال « صدقت هذا هو الواقع فعلاً »

قالت « فما معني ان يحاربك الافشين بجيش من المسلمين ؟ »

قال « هو يظهر نصرته للمسلمين ليجمع النقود منهم ويرسلها الي بلده ومتى وجد المال
اللازم اتحدنا جميعاً وقلبنا هذه الدولة »
فنظرت اليه نظراً نافذاً والاستغراب بادٍ في عينيها وقالت « هذا هو اعتقادك
حقيقة ؟ »

قال « نعم »

قالت « انت قائد هذا الجند وزعيم هذه العصابة والناس يجلون قدرك ويسجدون
باسمك ويسجدون لك . وتنظلي عليك هذه الحيلة ؟ »
قال « ولماذا تجسبونها حيلة . . . اني اعرف الافشين من قبل وقد اجتمعنا وتعاهدنا على
هذا الامر منذ بضع عشرة سنة ومعنا صاحب طبرستان وما زلنا نحدد العهد كل مدة
واي مصلحة له في الخادعة ؟ »

فتفرست في عينيه وقالت « ان الافشين يخدعك ليكسب المال بسبب قيامك لانك
لو لم تقم انت لحرب المسلمين لم يبق له باب للارتزاق فهو يخادعك . اما المازيار صاحب
طبرستان فر بما كان اخلص طوية ولكنه لا دخل له في عملك . . . فاذا شئت ان اجيبك
على ما طلبته متي فيسوءني ان تكون مخدوعاً وانت البطل صاحب السطوة تحارب برجالك
فاذا فزت طالبك الافشين بحق الشركة واذا غلبت استفاد من غلبك . . . »
فانته به بابك كانه هب من رقاد وراها تقول الصدق وشعر بسطانها عليه وقال « بورك
فيك انك صاحبة الرأي الصائب . . . صدقت ان الافشين مداجج »
فقالت « فمثلك يجب ان يكون هو صاحب الامر واليه المرجع لاشريك له يقاسمه ولا

(١) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار (الترجمة الانكليزية)

منازع ينازعه . فاذا رأيت ذلك كنت انا عونك حتي في التجنيد والحرب بشرط ان لا يتم زواج الا بعد الفراغ من هذه الحرب وعند ذلك افتخر اني نلت اكبر رجل في فارس «
 فخمس بابك وقال « ولكن قولي قبل كل شيء . . هل انت تحبيني منذ الآن ؟ »
 قالت وفي شفيتها ابتسامه الظفر « ومتى كان الحب يهملك ؟ »
 قال « منذ وجدت المرأة التي تستحق محبتي فارجو ان استحق محبتها . . فهل تحبيني ؟ »
 فامسكت نفسها لحظة ثم قالت « نعم . . . لا . . . » ولم يطاوعها لسانها على هذا التصريح
 ثم استأنفت وقالت « احبك محبة الاخ حتى نفرغ من هذه الحرب »
 قال « بكفيني ذلك يا جهان »

فاستدركت وقالت « وارجو ان لا يعرفني الناس بهذا الاسم لاني ساخطب الجند وربما شاع ذكري فلا احب ان يعرفني الاقشين او غيره . . . فاسمي منذ الآن جلنار »
 قال « حسناً يا جلنار » واحس من تلك الساعة براحة ولذة واعتبر نفسه انتقل من مصاف المنهمكين المسرفين الى طبقة اهل الفضيلة والحب . ولو بحث عن السبب الحقيقي لذلك الانتقال لوجد انه « الحب الصادق » لانه لم يتعود غير الانغاس في المشتبهات سداً للمطالب الحيوانية ولم يجرب الحب المتبادل بينه وبين فناة تملك قلبه وتملاء عينه كما فعلت جهان . . فتبدلت حاله وعادت اليه اريحته واصبح طوع رأي جهان لا يقطع امراً هاماً الا بعد استشارتها . . ولم يعرفها اهل البذ الا باسم « جلنار » لانهم لم يكونوا يعلمون بوجودها قبل تبديل اسمها

وتحفظ بابك للوقوف وهو يقول « هذا هو بدء سعادتي يا جلنار فاني لم اكن في عمري كله اسعد حالاً مني في هذه الساعة . . » ووقف واتم حديثه قائلاً « لكنني استأذنتك في امر اظنه لا يسوءك — وذلك ان خاصتي قد تعودوا مجالستي على مائدة الشراب وفيهم المولعون بالخمر ولم يوفقوا الي من يغلبهم على قلوبهم كما فعلت انت بقلبي . . . فهو لاء اذا باغتهم بابطال تلك المائدة اخاف ان يتغيروا او يغضبوا وانا في حاجة اليهم في هذه الحرب فأرى ان اسيرهم واجالسهم واهمهم اني اشرب معهم ريثما نرى ما يكون »
 قالت « لا بأس من ذلك ولكنني ارجو ان تعزم منذ الآن على تبغيض المسكر اليهم بالتدريج »

فاشار مطيعاً وهو واقف وقوف الغلام بين يدي مربيته واصبح وهو مثال الاستبداد والعنف لين العريكة يلذ له الخضوع والاذعان — — بذلك ذلك على نفوذ المرأة العاقلة

عند الرجل اذا هي أنه من طريق القلب واحسنت الاسلوب في رده عن النقائص . على
انها لا تستطيع شيئاً من ذلك الاً بطريق الحب . فيجب عليها اولاً ان تجعله يحبها فمتى
ملك قلبه اصبح كما تشاء . اما اذا ارادت اصلاحه بالانتقاد في غير الوقت المناسب فقد
تزيده تمسكاً بزلاته

اما جهان فسرها تغير بابك وقبوله بما اشترطته عليه لما فيه من صيانة نفسها ريثا تتحقق
امر حبيبها والانتقام من الاثمين . وتذكرت في تلك اللحظة اخاها سامان فاستوقفت بابك
وقالت « لي طلبة ارجوان نفيها لي »
قال « لك كل ما تريدن »

قالت « سامان . اخي . انت تعرفه وتعرف انه خاني وغدر بي لا اطلب
الانتقام منه ولكنني اريد ابعاده من هذه المدينة لان في وجوده خطراً على هذا الجيش
. . . لا اطلب قتله او سجنه بل اكنفي بأبعاده لنا من شره »

قال « كنت عازماً على ابعاده من عند نفسي وان كان قد خدمني بخيانتة . . . اذ لولاه
لم احظ بعروس فرغانة ولكنني اخاف ان يخونني كما خان شقيقته . كوني مطمئنة اني
مبعده سريعاً . . . واين تجبين الاقامة الا تمتقلين الي قصري ؟ »

قالت « دعني في هذا القصر كما انا فاني مستأنسة باهله وان قضت الاحوال بان
نلتقي لمشورة او تدبير تواعدنا في حينه »

فلم يراجعها وتحوّل وهو يبتسم وينظر في وجهها نظر الحب المتهيب ولم يستطع تثبيت نظره في
عينها . اما هي فوقفت وهشت له فودعها وهو يقول « نحن على وفاق منذ الآن . . . وانت تجيبيني ؟ »
قالت « انا اخوان . . . انت اخي بابك وانا احبك محبة الاخ وارعاك رعاية الاخت
لاخيها وسترى اني باذلة نفسي في سبيل راحتك »

خرج بابك من بين يديها وقد غلب علي امره ولما مرّ بالدهليز ووقع بصره على من فيه
من الجواري والسراري وما فيهن الاً من تمنى رضاه وتملقته وتزلف اليه واذا غضب
استرضته ووقفت بين يديه وقوف الذل او سجدت سجود . العابد فتصور كيف غلبته جهان على
رايه واصبح لا هم له الاً استرضاؤها وقد لذ له تنازله في اكتساب قلبها بعد ان تحقق
استقلال فكرها وصدق لهجتها وعلو همتها وشعر بانعطاف نحوها وخاف ان يكون سبب
شقائه اذا هي لم تجبه بمثله . فلما فعلت اصبح ما تخيله من الحب الطاهر المتبادل بينهما من
اكبر اسباب سعادته

الفصل الخمسون

اليأس

فلنترك البند واهله ولنعد الى سامراً فقد تركنا فيها ضرغاماً بعد ان بثّ الجواسيس في انحاء المشرق الى فرغانة وغيرها . فلبث برهة من الدهر ينتظر عود الجواسيس فعادوا وما فيهم من سمع خيراً او عرف شيئاً يهديه الى مكانها . وكان ضرغام في اثناء الانتظار على مثل الجمر لا يدري ماذا يعمل فلما خاب انتظاره غلب عليه اليأس وفكر في صاحب الذنب بضياها فلم يجد غير الافشين ثم تذكر ما سمعه عن سامان ونفاقه وغدره فارتاب في امره . وكان يقضي ايامه منفرداً في منزله الا اذا خرج المعتصم واصطحبه للصيد او الرياضة او الصلاة او نحو ذلك . وكان يستأنس بياقوتة استثناساً كثيراً لكاملها ومشابهتها بجهان وكما شاهدها تذكر صاحبه حماداً ووداً من صميم فواده ان يجمعها به لعله يوفق الى من يجمعه بحبيته

ولما طال انتظاره وانقطعت اخبار جهان عنه وبس من وجودها استولت عليه السويداء ولم يعد يرى للحياة معنى وود لو انه يشغل نفسه بحرب او نكبة او مرض او يموت ويتخلص من عذاب الشوق والقلق . ولا يجد سبيلاً الى الموت بغير الانتحار وهو يعدّه جيناً لا يرتكبه غير الضعفاء اذا غلبوا على امرهم وشوركو في عقولهم . فترفع عن الانتحار وفي نفسه بقية امل في العثور على خير جهان . وقد كبر عليه من الجهة الاخرى ان يموت ولا يثار لها فوق في حيرة وظهرت حيرته في وجهه فلم يكن يراه احد الا تبين في محياه القلق رغم ما كان يحاوله من التكتّم والمغالطة ولا سيما بين يدي والدته لئلا يحزنها ولم تكن هي تخفى حاله عليها رغم ما كان يظهره من عدم المبالاة . وكان اذا سأله عن جهان واخبارها قال « انهم لم يقفوا لها على خبر وقد انفذت آخريين لجهات اخرى » ويظهر امله بالعثور عليها وهي توهمه انها صدقت قوله وتزيده املًا بلقاءها

ولم يكن له تعزية غير وردان وقد اصبح على طول العشرة اقرب الناس الى ثقته وموضع امله . فكان اذا اخذته الحيرة او استولى عليه القلق شكاه اليه حاله واستشاره في امره ووردان يخفف عنه . حتى سمعه مرة يشكو البقاء في الحياة وهو يتمشى في حديقة القصر ووردان الى جانبه فقال له « ومثلك لا يأخذه الضعف الى هذا الحد يا مولاي »

قال « لا ثقل مولاي . . . لانك صديقي يا وردان . . . ولذلك رأيتني اشكو اليك همي . . . واكشفتك بما في ضميري . . . اني لا اري معنى للحياة مع اليأس من لقاء جهان »
قال « لكل نفس اجلها لا يستطيع احد تأخيرها ولا تقديمه . . . واصبر ان الله مع الصابرين »

قال « لقد مللت الاضطبار ولا اري راحة بغير الموت . . . ولكنني احثقر الانتحار واصحابه . . . »

فانتبه وردان لرأي يوافق ما في نفسه منذ جاء العراق وبلائم ضرغاماً فقال « هل كرهت الحياة ؟ »

قال « كرهتها . . . نعم كرهتها »

قال « مثلك يكره الحياة ويعجزه السبيل الى النجاة منها وهو من خاصة المعتصم وكبار قواد المسلمين والحرب قائمة لا يحمد سعيها بينهم وبين جيرانهم الفرس او الروم او العرب او غيرهم ؟ »

فانتبه ضرغام لامر كان ينبغي ان ينشبه له من قبل وقال « صدقت ان الموت في ساحة الوغى ميسور لثلي ولكن امير المؤمنين ضايقي بتقريبه فقد جعلني صاحبه ومنعني من السفر »
فقال « اظنه لا يمنعك بعد الآن »

قال « ولماذا ؟ »

قال لان الاخبار تتوالى باستفحال امر الخرمية في ارمينيا حتى ضاق الافشين ذرعاً عن بابك وحصونه »

قال « من انباك بذلك . . . كنت احسب الامر عكس ما تقول والخليفة لا يخفي عني شيئاً »

قال « ان الخليفة لا يخفي عنك خبراً عرفه ولا ذنب له في اخفاء ما لم يعرفه »

قال « هل تعرف شيئاً عن هذه الحرب لا يعرفه الخليفة ؟ »

فحك وردان ذقنه وتشاغل لحظة بالسعال ثم قال « نعم يا سيدي . . . لان الوزراء ورجال الخاصة يرون من حسن السياسة كتمان بعض الاخبار عن الخليفة »

قال « صدقت ولكنني من الخاصة ولم يبلغني شيء مما تشير اليه . . . »

قال « ولا اظنه يبلغك من سواي لاني سمعته من مصدر لا علاقة له برجال البريد الذين يحملون الاخبار الى الخليفة »

فاستغرب ضرغام ذلك وقال « ماذا سمعت ؟ قل »
 قال « سمعت ان بابك الحرمي ^{ان} بعد انتقاله من اردبيل الى البند واتخذها حصناً له
 تضاعفت قوته »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « هذا سمعناه بالامس »
 قال « وهل عرفت سبب استقوائه بعد ان كاد يعمد الى الفرار ؟ »
 قال « نعم • انه استقوى بمن انضم اليه من الاقوام انما يقين على المسلمين »
 فتبسم وردان وقال « هذا هو السبب الفرعي ولعله يبلغ الى الخليفة اليوم على يد
 صاحب البريد •• اما السبب الاصلي فهو غير ذلك »
 قال « وما هو »

قال « اخبرني بعض القاديين من ارمينيا خيراً كدت انكره لولا ثقتي بالناقد ان
 بابك المشهور بالتهك والانعماس بالمسكر والفحشاء كما تعلم قد اخذ في الرجوع عن هذه
 الرذائل واصبح اذا جلس رجاله على مائدة الشراب لا يشرب معهم • وانه انقطع الى
 تدبير جنده واستجماع قواه واستنهاض الناس على المسلمين ••• اخبرني ذلك رجل
 يعرف دخائل البند •• وينسبون هذا التغيير الى امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير اسمها
 جلتار غلبته على رأيه وتصرفت في اموره »

فاطرق ضرغام لحظة وقد ساءه رجوع بابك عن رذائله لانه كان يرجو ان تكون
 عوناً لهم عليه •• وكان يفكر في ذلك وهو واقف بجانب شجرة من التفاح يتلاهي بضر
 بعض اثمارها المتدانية بخيزارته في يده ووردان واقف الى جانبه • واذا ببعض غلمان
 الخليفة جاء مسرعاً فلما رآه ضرغام علم انه قادم من عند الخليفة يدعوه اليه فاجابه انه
 آت • فرجع الغلام

فالتفت ضرغام الى وردان وقال « اظن الخليفة يدعوني للاطلاع على اخبار الحرب »
 قال « اذا اقترح مولاي ان يسير في هذه الحرب فليأمر ان اكون في خدمته لاني
 عالم باحوال تلك البلاد وطرقها فاعلي انفعه في شيء »

قال « حسنا » وتحول الى المنزل لبس قانسونه وسواده وذهب الى دار الخفاصة في قصر
 الخليفة فوسع له الحاجب وادخله بلا استئذان فلم يجد عند الخليفة الا الفاضي احمد وليكنه
 قرأ في محياه القلق والغضت فلما اقبل وحيا بش له الخليفة وامره بالجلوس فجلس • تأدبا
 فقال له الخليفة « اظن صاحب قدم مل الانزواء في هذا القصر وقد ضايقناه بهذا الاكرام

وامساكه عما تتوق اليه نفسه من خوض المعامع »

فادرك ضرغام (الصاحب) ان الخليفة يهد له طلب السفر الى الحرب وانه لم يفعل ذلك الا وهو يرى الحاجة ماسة الى نجده فقال « ان البقاء بجوار امير المؤمنين نعمة وبركة ولكن الضرب بسيفه فرض مقدس وقد طالما حدثت نفسي ان التمس من امير المؤمنين ان يرجمني الى الحرب القائمة في ارمينيا وانا اتميب فاذا اذن لي وكان ذلك موافقاً لرضاء فقد غمرتني بفضله وانا في كل حال صنيعته وريب نعمته »

فاستحسن الخليفة مبادرته ونظر الى القاضي احمد فالتفت القاضي الى ضرغام وقال « ان امير المؤمنين ضنين بك حريص على قربك كما تعلم ولكنني لحظت منك في هذه الاثناء انقباضاً حسبته ناتجاً عن هذا الانحباس لعلمي ان القواد والشجعان لا يسرهم الا خوض المعامع والظفر في الحرب ونحن الآن في حرب بارمينية وقد صبرنا على ذلك المتورد لاعتصامه في حصونه فاشترت على امير المؤمنين ان يوجه بك الى هناك فيأتي النصر على يدك » قال « اني على ما يريد امير المؤمنين وانا على اهبة السفر من هذا الساعة »

فقال الخليفة « انت تعلم ان جند المسلمين في ارمينيا تحت قيادة الافشين فهل يشق عليك ان تكون من قواده »

قال « لا يهمني ان اكون في هذا الجهاد رئيساً او مرؤوساً وانما يهمني ان اكون سيفاً من سيوف امير المؤمنين القاطعة »

فهنس له الخليفة وقال « بورك فيك . . وسابت الى الافشين ان يعرف قدر الصاحب دون سائر القواد » قال ذلك و اشار اشارة الصرف

فوقف ضرغام وقال « يا ذن مولاي بانصرافي والشمس دعاءه وبركته وارجوان لا اعود اليه الا وقد فتح البذ وقتل طاغيته »

فابتسم له الخليفة فخرج بعد ان امر له الخليفة بالخلع والانعام واحس ضرغام من تلك الساعة ان قلقه قد ذهب لدخوله في ما يشغله عن الهواجس

وكان وردان في انتظاره بيباب القصر فلما خرج وعلم بما تم له استأذن بالذهاب معه فقال « حسنا . . ولكنني كنت احب ان تبتى قريباً من والدتي هنا »

قال « لا باس عليها وهي في قصر الخليفة وبين يديها اخدم الموالي »

فوافقه ومضى الى والدته اخبرها ان الخليفة امر بذهابه الى الحرب فظهرت استجسانها تنشيطاً له وقالت « اطلب الى الله ان يعيدك ظافراً »

ثم تحول الى باقوته وحياتها فلما علمت انه يتاهب للسفر دعت هيناها فنشطها وقال
 « ادعي لي بالتوفيق لعلي الاقي حماداً في طريقتي — لا تحسبيني غافلاً عن واجباتي »
 قال ذلك وتنهّد تنهداً خفياً لانه تذكر مصيبتة بضياح حبيبتة
 فاجابته باقوته بدمعتين ارسلتهما على خديها وهي مطرقة لانتكلم فتركها وخرج وامر
 وردان بالاستعداد للسفر وبعد ايام تاهب وودع والدته واوصاها بياقوته خيراً وسافر في
 فرقة من خاصة رجاله الفراغنة كلهم اشداء

الفصل الحادي والخمسون

معسكر الافشين

جرت بين جند المسلمين والخرمية مواقع كثيرة في اردبيل وغيرها واستقرّ الخرمية
 اخيراً في البذ مدينة بابك وهي مدينة حصينة او قلعة كبيرة مؤلفة من قصور وقلاع حولها
 سور ضخّم له الابواب الكبيرة وعليه الابراج الكثيرة والطريق اليه وعربين الجبال والادوية
 وكان جند المسلمين اولاً في اردبيل فلما فرّ بابك منها الى البذ شمالاً اذنفوا اثره . وبين البذ
 و اردبيل عدة مواضع جعلها المسلمون نقطاً عسكرية تحفظ لهم خط الرجوع وتضمن الاتصال
 مع سامراً مقر الخليفة . فكانت الميرة القادمة من العراق اذا دخلت ارمينية انزلوها في اردبيل
 ومن هناك ينقلونها تحت الخفر الى نقطة عسكرية اسمها حصن النهر ويعود خفراؤها الى
 اردبيل وبتولى خفارتها جند آخر من حصن النهر الى ارشف وهكذا الى خش فبرزند الى
 روز الروذ وهي آخر محطة قبل البذ وبينهما بضعة فراسخ

وكان الافشين قد كلف الكوهبانية وهم اصحاب الاخبار ويشبهون قلم المخبرات في
 جنود هذه الايام ان يختاروا محلاً بعسكر فيه وان يكون حصيناً . فاختراروا في روز الروذ ثلاثة
 اجبل عليها انقاض ابنية قديمة فاقام عسكره عليها وسد الطرق الموصلة بينها وبين البذ
 بالاحجار الضخمة حتى صارت كالحصون ثم حفر خندقاً وراء الحجارة عند كل طريق الا
 طريقاً واحداً يخرج منه رجاله اذا اراد الهجوم — بذل في هذا العمل جهداً شديداً
 فكانت الرجال تنقل الحجارة وتحفر الخنادق والعساكر تحرسها ليلاً ونهاراً

وكان بين روز الروذ والبذ وادي بين آكام وعرة فعسى رجاله وعهد كل فرقة منهم الى

قائد من قواده وهم ثلاثة جعفر الخياط وابو سعيد واحمد بن الخليل اقامهم في مخطات بينه وبين البند قبل الوادي الفاصل بينهما . فاصبح معسكر الافشين كبيراً جداً اذا اراد النهوض او المسير به جعل علامته ضرب الطبول لبعده المسافات واحتجاب الفرق بعضها عن بعض بالجبال والادوية . فاذا سار ضرب الطبول واذا وقف امسك عن ضربها . فيقف الناس جميعاً او يسيزون جميعاً في مصافهم وعلى ترتيبهم وكان للافشين مجلس على اكمة يشرف منه على البند ويرى قصر بابك وغيره من قصور المدينة

وكان بابك كثير الاعتماد في حروبه على الكهنة فكان يرسل طوائف من رجاله يكتنون في الادوية ووراء التلال ليفاجئوا جند المسلمين ويغدروا بهم . وكان الافشين كثير الاهتمام بذلك فيرسل الجواسيس او الكوهبانية للبحث عن الكهين

قضى في ذلك الحصار مدة طويلة وهو يشاغل الخرمية فيما مر قواده المشار اليهم فيقطع كل منهم الوادي الى الجانب الآخر بازاء البند في كردوس من رجاله فيقف كل منهم بكردوسه هناك وبابك يخرج فرقة من جنده تحمي باب السور ويمنع الاعداء منه . فاذا انقضى النهار امر الافشين رجاله بالعود الى معسكره الاصلي وراء الخندق فيرجع اولاً اقر بهم من البند ثم الابد فالابد حتى يدخلوا الخندق ويبيتوا هناك . وكان الخرمية يتضايقون من هذه المطاولة فعزموا على الفتك فراقبوا رجوع كراديس الافشين من جانب الوادي ذات يوم كالعادة حتى لم يبق منهم الا جعفر الخياط بكردوسه فخرجوا عليه وارتفعت الضجة فرجع جعفر بنفسه ورد الخرمية الى باب البند ووقعت الضجة بالعسكر حتى بلغت الافشين فرجع فرأى جعفر واصحابه يقاتلون فاشفق عليه وخاف ان يفسد عليه تدبيره

اما جعفر فنجاة له من المتطوعة وهي فرقة تنصر المحاربين رغبة في الفنائم والسبي فاشتمد ازره وهجموا على السور وتعلقوا به وكادوا يصعدونه ويدخلون المدينة وبعث جعفر يستمد الافشين بخمسمائة راجل ويؤمله بدخول البند حالاً . فبعث اليه الافشين بقول له « انك افسدت علي تدبيرتي فتخلص قليلاً قليلاً وخلص اصحابك وانصرف » ثم تحركت كمناء بابك فاضطر جعفر الى الرجوع وهو بأسف لضياع الفرصة

وقضى المتطوعة بعد ذلك اياماً حتى قلت علوفتهم وزادهم وهم يتدمرون ويقولون لو تركنا الافشين لدخلنا البند . وضع سائر الجند يطلبون الحرب وهو يخشى الفشل - اولهه كان يطاول رغبة في جمع المال . لان المعتصم كان قد جعل له على كل يوم يركب فيه عشرة

آلاف درهم وكل يوم لا يركب فيه خمسة الاف درهم سوى الانزال والمؤونة (١) فجمع
من ذلك مالا كثيرا كان يرسله الى اشر وسنة

الفصل الثماني والخمسون

سامان

واتفق وهو جالس ذات يوم في فسطاطه بالمجلس الذي يطل منه على البذ ان وقع
نظره على جماعة من رجاله يقودون رجلا يظهر من قيافته عن بعد انه من اهل البذ وما عتم
ان وصلوا به اليه حتى عرف انهم يقودون سامان اخا جهان فلما وقع بصره عليه أجفل
ولكنه توقع ان ينتفع منه بشيء فصاح بالرجال ان يتركوه فتركوه . فتقدم سامان وهو
مطاطىء الرأس حتى دنا من سرير الافشين فاجثا فامر الافشين ان يقف وبش له وقال
« ما وراءك يا سامان من اين اتيت ؟ »

قال « من البذ يا سيدي »

فلما سمع قوله توسم منه خيرا فاشار اليه ان يقعد فقعد وتأدب في مقعده فابتدره
قائلا « ما الذي ادخلك هذه المدينة »

فهز رأسه وقال « اتيت اليها في خدمة مولاي الافشين »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « ما زلت منذ تشرفت ببقيا مولاي في سامرا وانا ابحت عن جهان عملا بامر

حتى علمت انها عند بابك . . »

فدهش الافشين لقوله فصاح به « جهان هنا الآن . . هنا في البذ ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « وما الذي جاء بها الى هذا البلد البعيد ؟ »

قال « اخبرتك يا مولاي ان اللصوص خطفوها مني بقرب همدان فما زلت اجد في

البحث حتى علمت ان بابك هذا هو الذي بعث في اختطافها لانه سمع بجمالها وكان قد

خطبها من والدي فمنعه منها . وكانه اقام الكناء يترقبون خروجها حتى تمكن من غرضه »

فقال « وبعدهذا؟ الا تزال هنا؟ »

قال « ان امر اختي هذا يحيرني . . . انها لا تستقر على حال فبعد ان رفضت النعمة التي عرضها عليها صاحب اشروسنة رضيت ببعض رجاله . . . والآن اراها قد رضيت ببابك واصبحت اعز نساءه اليه تستهلك في نصرته . . . وكم نصحت لها ان ترجع عن غيرها وحرضتها على المجيء الى الافشين لانه ولى نعمتها فأبت فلما رايتها متشبثة بعنادها تركتها وجئت اليك »
قال « بورك فيك ولكن بلغني من بعض الجواسيس ان اعز نساء بابك اليه امرأة اسمها جلتار يقولون انها قوية العقل حسنة التدبير وانها اعانتته وشدت ازره كثيراً »

فقال « هي جهان نفسها باسيدي وقد غيرت اسمها تمويهاً . . . وواعدت صديقها الجديد ان تنصره على جند المسلمين فهي تتفانى في نصرته ولولاها لقصي عليه من زمن مديد »

وكان الافشين يعلم خبث طوية سامان ولكنه سايره رغبة في استعانته على امر لا ينفعه فيه غير الخبثاء ولم يفقه ان سامان يكرهه ولو استطاع قتله لقتله فعمد الى مداجاته فبرز رأسه وحك ذقنه واصلاح قلنسوته وهو يتحرك في مقعده وقال « بئس ما كفاؤنا به هذه الفتاة على احساننا فقد اغضبناك في مصلحتها فكافأنا بالعقوق . . . ولكن ذلك من اسباب سعدك . . . » وبلغ ريقه يظهر انه يتوي له خيراً سيصرح له به بعدئذ وعاد فاستأنف الكلام قائلاً « الم يعلم ضرغام بوجود جهان هنا؟ »

قال « كلاً ولا هي تعلم بوجوده حياً »

فلم يصدق قوله فقال « وكيف ذلك وضرغام لم يدخر وسعاً في البحث عنها »
قال قد ساعدني على ذلك تغيير الاسماء . . . كن على يقين انها تعتقد ما قلته لها عنه انه قتل وهو لا يزال يعتقد انها خطفت الى مكان مجهول . . . فعلت ذلك خدمة لمولاي الافشين رغم ما قاسيته من اعراضه وحرمانه « قال ذلك ونظر الى الافشين وعيناه ترقصان فضلاً عما فيها من الحول الكثير »

فقال « قد علمت الآن صدق خدمتك واذا برهنت لي ذلك باتمام هذه المهمة تأكد نجاحك »

قال « اني رهين الاشارة سل ما تشاء فابذل نفسي في خدمتك »

قال « تقول انك كنت في البذفا الذي تعرفه عن اهله وحصونه ورجاله »

قال « ان المدينة منيعة كما ترى وفيها الجند والاسلحة والخرمية متضامنون في اموالهم

وانفسهم يتفانون في خدمة زعيمهم ولكنني ارجو ان يغلبوا على امرهم»

قال « بماذا ترجو ذلك »

قال « ارجوه مما اعلمه من داخلية هذا البلد ٠٠ اعرف ان فيها من الاسرى المسلمين وغيرهم عدداً كبيراً منهم ٧٦٠٠ من النساء والاطفال ولا يخفى على مولاي ما عرف به بابك من الفتك حتى قدروا الذين قتلهم حتى الآن بنحو ٢٥٥,٠٠٠ نفس قارى الناس قد ملوا سيادته حتى المقيمين في بلده واذا تمكن عشرون رجلاً منكم ان يدخلوا المدينة ويراهم الناس فاهل المدينة جميعاً يسلمون »

قال « ما رأيك في الجهة التي نهاجم البلد منها حتى نضمن الدخول اليها »

فوقف سامان و اشار بيده الى جبل في طرف البذ وقال « من هنا ياسيدي ٠٠ رأيت هذا الجبل فان بابك يقيم الكمناء في سفحه لعله ان العدو اذا تجاوزه هان عليه دخول المدينة فاذا احتال مولاي في الاتيان من ورائه ظفر »

فسر الافشين من قدوم سامان وهم ان يستزيده ابضاحاً فاذا بالحاجب دخل وهو

يقول « ان يريد امير المؤمنين بالباب »

قال « يدخل »

الفصل الثالث والخمسون

البريدي

فدخل البريدي وعلى وجهه امارات السفر والتعب وعلى صدره الصفحة النحاسية التي يعلقها سعاة البريد وعليها علامة خاصة فلما دخل حيا ووقف فناداه الافشين « تقدم ما وراءك »

فتقدم البريدي ودفع اليه لفافة حريرية عليها ختم الخلافة فتناولها وقبلها ثم فض الختم فاذا داخلها انبوبة من فضة محتومة نضها وفتحها فاخرج منها كاغداً ملفوفاً نشره وأخذ يقرأه وسامان يراعي حركاته وملاحظه فرأى في وجهه تغيراً فتجاهل حتى اذا فرغ من تلاوته اشار الى البريدي بالانصراف فانصرف وانتمت الافشين الى سامان وهو يتسم ليزيده ايناساً رغبة في خدمته وكان سامان لا يزال واقفاً فأمره بالجلوس

وقال « أتعلم فحوى هذا الكتاب ؟ » قال « من اين لي ان اكون نبياً اعلم الغيب ؟ »
قال « انه كتاب المعتصم يستحسني فيه على الثبات وبخبرني انه ارسل الي نجدة
بقيادة صاحبه ضرغام »

فاظهر سامان الاستغراب وقال « العل صاحب اشروسنة في حاجة الي هذه النجدة
وهو الملك والقائد وجنده قد ملأ السهل والجبل »

قال « كلا .. وامير المؤمنين يعلم ذلك .. ولكني اخاف ان يكون الرجل قادماً
لغير الحرب .. اخشي ان يكون قد عرف بجهان .. وهب انه علم او لم يعلم فجehan
لا يسها احد سواي ان لم يكن حبا بها او افتناناً بجمالها فانتقاماً من كبرياتها ووقاحتها
اني لا انسى جسارتها ذلك اليوم في فرغانة »

قال « اما ضرغام فلا شك عندي انه لم يعلم بوجود اختي هنا بل هو لا يعتقد انها
في قيد الحياة .. ونظراً لمكلفه بها فربما كره الحياة بعدها واتى الى ساحة القتال رغبة في
الموت فاني ارى في الناس جنوناً لم اجر به .. اراهم اذا احب احدهم الآخر فعل فعل
المجانين حتى يمرض حياته للخطر من اجله واذا اصاب احدهما الموت اراد الآخر ان
يتبعه .. ابي لا افهم ذلك »

فضحك الافشين حتى بانث نواجذه وقال « ان كان قد جاء يطلب الموت فاهلاً به
ومرحباً .. له علينا ذلك حباً وكرامة .. اما استغرابك ما تراه من تفاني المحبين فانت معذور
به لانك اجرود لا تشعر مثل شعورهم » ثم اطرق هنيئة وقال « اذا هجمنا غداً على البلد
ودخلناه فابن تكون اختك ؟ »

فوقف سامان والتفت الى البذ و اشار بيده وهو يقول « رأيت هذا القصر الفخيم عند
الباب الشرقي ؟ هذا هو قصر النساء وفيه نقيم جهن . ومن اراد الوصول اليه حالاً فليأتته
من ذلك الباب » ثم اشار بيده الى قصر في جهة الغرب وقال « وهذا القصر عند الباب
الغربي هو قصر بابك نفسه انه امنع القصور ولا يهاجمه احد الا قتل فافعل ما بدالك »
ففهم الافشين غرضه وتحرك من مقعده وهي اشارة الصر فتحول سامان وطلب
الانصراف فقال له الافشين « انت تمكث هنا ولا تخرج من هذا المعسكر الا عند الحاجة
لنستأنس بك »

ففهم سامان فصدده فقال « احب ان اكون اسيراً عندك حتى نتحقق صدق خديتي
لكنني انقدم اليك ان تبقي خبري مكتوماً عن ضرغام وغيره والا فسد تدبيرنا »

فاشار الافشين برأسه ان «نعم» ثم نادى غلامه وامره ان يكرم سامان ويحفظه به
فخرج سامان من حضرته وقد سر واستبشر - سره ان الافشين احسن لقياء ووعده
بارث ابيه انتقاماً من اخته . واستبشر بترب الانتقام من اخته متى جاء ضرغام فيدبر له
مكيدة يقتله فيها . ونسي انه كان ناقراً على الافشين وقد استعان بضرغام عليه . وان اخته
صاحبة الفضل الاكبر عليه . ولكنه كان يجري في اعماله على هوى نفسه بلا قاعدة فلم
يمعص الافشين اولاً لانه تعدى حدوده في الوصاية او لانه اراد السوء باخته وانما بغضة
لانه حرمه من الارث . ولم يجب ضرغاماً لشهامته واريحيته او قرابته وانما اظهر حبه له
ليستعين به في نيل مرامه . ثم انه لم ينقلب هذا الانقلاب في الحالين الا رغبة في مصلحة
نفسه فلم يكن له قلب يجب ولا نفس تشعر ولا وجه يخجل فتحولت جوارحه الى
مجرى واحد هو حب المال وزاده حباً فيه يأسه من احترام الناس له اسجاياه او مناقبه
فاراد ان يكتسب احترامهم بلئال ظناً منه انه متى صار غنياً احترموه واجلوا قدره . ولا
نظنه كان يلتمس خبهم لان من كان يهمله ان يحبه الناس لا يرتكب دينته يكرهونها
فسامان لم يكن يرجو حب الناس له وانما كان يطلب احترامهم الظاهر ولو لعنوه
في قلوبهم . ويطلب الرفعة والثروة ليستعين بهما على التشفيع والانتقام فن كان هذا دابه
كان عدواً للبشرية وامثاله كثيرون ولكنهم لا يظهرون

الفصل الرابع والخمسون

الصاحب

لما خلا الافشين بنفسه بعد خروج سامان اعلم فكرته ملياً في ما سمعه منه فراه
يلائم مصلحته وما همه ان كان سامان يفعل ذلك حباً به او خوفاً منه او طمعاً
بالوصية . وراجع ما سمعه عن جهان وتذكر جمالها وكبرياء ما فسرته انه ظافر بها ولاشك
عنده انها متى وقعت بيده هذه المرة رضيت به . فاعترض فكره هذا ضرغام لان حبه له
كان سبب فشله للمرة الاولى فاصبح هو العقبة الوحيدة في طريقه . وتذكر ما الغز به
سامان من حيث الايقاع بضرغام فعلى نفسه بذلك وزاد رغبة في قتله بالحيلة وهو هين عليه
قضى الافشين اياماً في مثل ذلك حتى جاءه صاحب الخبر بقدم الصاحب مع رجاله .

وفي صباح اليوم التالي جاء ضرغام فلافاه الافشين واطهر الترحيب به واثني على رغبته في نصره الدولة . فاجابه الصاحب شاكرًا ولحظ الافشين في وجهه تغيراً من الانقباض على اثر بأسه من جهان وربما ادرك الافشين ذلك لكنه تجاهل وجعل يبالح في اطراء بسالته وعلو همته فقال ضرغام « لافضل لنا في خدمة الدولة ونصرة الدين الخنيف »

قال « صدقت وقد جئت في ابان الحاجة اليك فاني لا اري بين قوايدي من يركن اليه في المهمات نظيرك وقد خبرتك وعلمت شجاعتك وصبرك »

فقال ضرغام « كنت قد استطلت الحرب واستبطلت الفتح فلما عاينت هذه الحصون ووعورة هذه الارض رأيت الافشين قد اتى ما تعجز عنه الابطال . وانا عالم ان مجيئي لا يزيد شيئاً في معداته ولا يهون عليه فتحاً ولكنني مللت الاقامة واحببت ان يكون لي في هذه الحرب نصيب . وقد عاهدت نفسي ان اتصدى لاشد الوقائع خطراً . . . فارم بي حيثما شئت »

فتحتمق الافشين ما ظنه من بأس ضرغام واحب تغيير الحديث ريثما يدبر له مهلكا فقال « بورك فيك . وما نحن في عجلة للحرب الا بعد ان تستريح من عناء السفر . . . اخبرني عن اهل سامرا كيف هم وكيف امير المؤمنين »

قال كلهم في قلق من امر بابك هذا ولكنهم يشنون على ثبات الافشين وتدبيره . . . وقد آتت من الخليفة رغبة في الفراغ من هذه الحرب فجئت لالقي نفسي في اقرب السبل لهذا التعجيل ولو كان فيه موتي فاني اتعجل الشهادة . . . قال ذلك وابتقت عيناه بريقاً حاداً قرأ الافشين من خلاله حديثاً طويلاً فقال « غداً ننظر في ذلك واما الآن فاخرج بنا نطلعك على معسكرنا ومواقع القواد ونظام الخنادق والحصون والمكامن » قال ذلك منهض وامر ان تمياً الافراس

فنهض ضرغام وهو يقول « قد رأيت بعض هذه المعامل فعلت ان مولانا الافشين قد اتى في تنظيمها بالمعجزات »

ومشى الرجلان وبين ايديهما الخدم حتى ركبا وقضيا بقية ذلك اليوم في التجول بين الحصون والاستحكامات . فرأى ضرغام جنداً كبيراً وتديراً حسناً وسره اهتمام الافشين في اطاعه على ذلك من تلقاء نفسه فقال له « ان مثل هذا الجند لا ينبغي ان يصبر على فتح هذا البلد طويلاً »

قال « غداً اقص عليك سبب الابطاء »

واقترقا . فذهب ضرغام الى فسطاطه وكان وردان في انتظاره وقد اصبحا صديقين

حميمين . وضرغام ينظر الى وردان نظره الى صديق مخلص ووردان كذلك لكنه ما زال يخاطب ضرغام باحترام ووقار ولا سيما امام الناس . فلما اجتمعا قص ضرغام ما لقيه عند الافشين الى ان قال « وقد وعدني الافشين ان يسرع بالفتح وألححت عليه ان يرمي بي في اخطر المواقع فاذا لم ارجع فانت مكلف منذ الآن ان تنوب عني برعاية والدتي المسكينة » قال ذلك واخنتق صوته فتنحى حتى يخفي اخنثاقه وعاد الى اتمام الكلام فقال « وانت تعلم قلب والدتي وما فاسته في محبتي . . . وبقوته احفظ بها ريثما يمن الله عليها برجوع خطيبتها اظنك تعرفه . . واما جهان فاذا كانت لا تزال في قيد الحياة ولقيتها بعد موتي فبلغها ما تعلمه من وجدي . . »

فقطع وردان الحديث وقال « لا توصني فاني لست باقياً بعدك وما صحبتك في هذه المهمة الا لا كون في خدمتك حيثما سرت »

قال « نعم ولكن ما تكون خدمتك لي يوم القي بي بنفسي الى القتل وانا انما افعل ذلك فراراً من بقاء هو اثقل على قلبي من العدم وانت لا باعث لك على هذا اليأس » فتهد وردان واطرق وارسل دمعين ثقطرنا من ما قيه وكأنه نجح من ذلك الضعف فرفع بصره وقال « ان نصيبي من اليأس كبير جداً ولو علمته لطلبت ان اسير انا امامك واذا بقيت حياً فصصته عليك . . وفي كل حال ارجو ان لا تراجعني في الذهاب بين يديك حيثما سرت وان يكون مصيري مثل مصيرك »

فاجب ضرغام بارحمة ولم يستغرب تعريضه بسبب يأسه فانه كان قد شعر بشيء من ذلك ولم يشأ ان يستطلع اياه الا اذا عم هو نفسه ان يكشفه به فقال « لك ما تريد يا وردان وغداً نرى ما اعدنا لنا الافشين من المهام »

اما الافشين ففضى تلك الليلة مع سامان يدبران المكيدة . وفي صباح اليوم التالي اتى ضرغام الى الافشين ومعه وردان فدخل ضرغام الى الفسطاط والافشين وحده فيه فرحب به فسأله ضرغام عما دبره فقال « لا ازال ارى الصبر على الحصار برهة اخرى »

فاجفل ضرغام لهذا التفسير وساءه تأجيل الموت فقال « ولماذا »

قال « لاني ارى في هجومنا اليوم خطراً كبيراً . . فقد فضيت البارحة وانا اقدر واقس وافرض التعبئة على كيفيات مختلفة فلم اوفق الى تعبئة تضمن لنا النصر » قال « هل تخبرني عما تخافه على جنودنا لعل لي فيه مغبراً ؟ »

فنهض الافشين ومشي حتى وقف بباب الفسطاط وضرغام بازائه واهل من ذلك

الباب على البذ وحصونها فقال « رأيت ذه المدينة انها امنع من عقاب الجو ولا سيما من
جهة الغرب حيث ترى ذلك القصر النخيم فانه قصر بابك الذي يقيم فيه فاذا وصلنا باب
السور الذي يليه اخذنا المدينة »

قال « وما الذي يمنعنا من اخذه »

قال « الا ترى هذا التل الشاهق المشرف على المدينة من غربيها . . لا سبيل اليه
الا من ورائه والطريق هناك وعرض لا يسلكه الجند الكثير ولا يجسر الجند القليل على
سلوكه لما يلقاه من نبال الخرمية ومجانبة هم عن الاسوار . وبابك كثير الاعتماد على الكمناء
فخاف ان يكون له كمين او غير كمين وراء ذلك التل او في واديه »

فقال ضرغام « انا اذهب في طريق ذلك التل مع رجالي الفراغنة »

قال « اذا فعلت ذلك عيبت انا سائر الجند حول الاسوار من سائر جهاتها والفتح
مضمون لنا باذن الله »

فقال ضرغام « ومتي يكون الهجوم »

قال « متى شئت »

قال « الليلة . . دعوني اداهم القوم ليلاً فاذا اصبح الصباح وانا داخل البذ حياً
اهجموا انتم على سائر المدينة فيكون فتحها امراً مقضياً »

قال الافشين « بل ارى ان نتهياً جميعاً للهجوم ليلاً وذلك ان تذهب انت برجالك
من وراء التل وتمكث تجاه المدينة حتى ترى ناراً او قدماها بعد نصف الليل وعلامتها انها
مثلثة اي تكون ثلاث نيران متجاذبة فاذا رأيتها علمت ان الجند كله مهاجم المدينة من سائر
جهاتها فاهجم انت برجالك من تلك الجهة . ولكن لا يخفى عليك يا ولدي انك في اشد
المواقع خطراً »

قال « لا ابالي بالخطر . . انا ذاهب الآن لاهي رجالي وارجو ان نلتقي جميعاً في
قصر بابك غداً » قال ذلك وضحك ضحكه مغتصبة كشر فيها عن اسنانه كما بكشر الاسد
اذا هم بالوثوب . وكان الغضب والياس قد زادا وجهه هيبه وقوة فازداد شارباه وقوفاً
وحاجباه خشونة وعيناه بريقتاً وحدة حتى تهيب الافشين النظر اليه والتفرس في عينيه
فقال له « لو كان لنا عشرة مثلك لفتحنا البذ من زمن بعيد » اراد بذلك ان يثبتته في عزمه
وهو على يقين انه لا يستطيع تجاوز التل الى السور لما يجعله بابك هناك من آلات الدفاع
الخطرة فضلاً عن الكمناء . واغرب من ذلك ان ضرغاماً ودع الافشين ليذهب ويتهيا

للهجوم وهو لا يعرف شيئاً عن الطريق ولم يسأل عنه . وفرح الافشين لانه لم يسأله عن الطريق لان جهله بؤ كد فشله

تحول ضرغام عن باب الفسطاط وهو يقول للافشين « غداً نلتقي هناك » وأشار بيده الى قصر بابك والافشين يهش له . حتى اذا توارى عن الخيمة اقبله وردان فمشاه وهو يقول له « ما الذي تم الاقرار عليه ؟ »

قال « الليلة نهاجم البذ وناخذه »

قال « من اين ؟ »

قال « نأتيه انا والفرغانة من وراء ذلك التل حتى ندخل من الباب الغربي وبجانبه قصر بابك فنكون اول من دخله او نموت تحت الاسوار . . وهو المطلوب »

فلما سمع وردان قوله وقف والتفت اليه وقال « هل تعرف الطريق الى ذلك التل ؟ » قال « لا . . لا اعرفه . . ولكن . »

قال « ولكن ماذا . . انه طريق طويل ينبغي لسالكه ان يسير من وراء التل مسافة عدة ساعات حتى يأتي الى سفحه تجاه السور »

فانتبه ضرغام لتسرعته وقال « وهل تعرف الطريق انت ياوردان ؟ »

قال « نعم اعرفه »

قال « فانت دليلنا بل انت قائدنا هلم بنا الى رجالنا لينتهيوا من الآن فننتقل بهم اصيل هذا النهار بالطريق الذي تعلمه حتى نصل في العشاء الى تجاه المدينة »

قال « حسناً » ومشيا وكلاهما ساكت يريان الخطر الذي يهددهما والياس يعزيهما عنه . حتى وصلا معسكر الفرغانة وهم قليلون لا يتجاوز عددهم بضع مئات لكنهم اشدهاء منتخبون يستهلكون في طاعة ضرغام ولو قال لهم القوا انفسكم في النار لتسابقوا اليها اما الافشين فبعد خروج ضرغام من عنده جاء سامان فقص عليه ما فعله وقال « الكمالة عندك ياسامان »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج . وامر الافشين جنده بالتعبية للهجوم في ذلك الليل ليأخذوا القوم على غرة وجعل فرقة تهاجم المدينة من جهة الباب المؤدي الى قصر النساء الذي تقيم فيه جهان او جلنار حتى اذا فتح البلد ودخل الناس للنهب قبض هو على قصر النساء وسلم جهان الى من يحتفظ بها ثم يلتفت الى قيادة الجند

الفصل الخامس والخمسون

التل

اما ضرغام فلما تهيأ رجاله للمسير مشى بهم ووردان دليهم وداروا حول التل حتى
وصلوا الى مكان فيه يشرف على البند من جهة الغرب فمكثوا هناك وقد مضى العشاء
واظلمت الدنيا فامرهم ضرغام ان يتربصوا وهم على اهبة الهجوم وانفرد بوردان على
الكفة ونظرا الى البند فرأيا فيه انواراً متفرقة كما يطل القدام على بلد في الليل من بعيد
فانه لا يرى الا انواراً ويندران يتبين شيئاً من ابنتها او قلاعها . وعلم ضرغام ان وردان
يعرف البند فاخذ يسأله عن مواقع تلك الانوار فقال « ان اقرب هذه الانوار الى السور
واكثرها شمشعة انوار قصر بابك وهو الذي سنفتحه او نقتل تحته وترى انواراً بعيدة
في الجانب الآخر من البلد فهناك قصر النساء ولا اظنك تجهل استكثار هذا الرجل من
النساء وانما صه في المذات »

قال « كلا . . . وقد اخبرتني بالتخيير الذي اصابه من عهد غير بعيد وان سبب ذلك التخيير
امرأة من نسائه ذات عقل وتديرو . . . كم ينبغي ان تكون تلك المرأة عاقلة ! »
قال « انها عاقلة ولذلك يقال انها غالبية على رأيه لا يقطع امرأ الا بمشورتها »
فتهد ضرغام وباع ريقه وقال « ماننا ولذلك الآن دعنا نتظر في الطريق الذي
صنعتنه في الهجوم . . . ما الذي يحول بيننا وبين المدينة الآن ؟ »

قال « بيننا وبينها واد »

قال « وكيف نقطعه »

قال « نقطعه من مكان كالجسر فوقه ومتى صرنا في الجانب الآخر كنا قريبين من
السور فنهجم عليه ونسلقه . ولا اظننا نجد عليه حامية لان الحامية لا يخطر لهم ان عدوهم
يأتيهم من هذا الطريق الوعر او يجسر على النزول من هنا »

قال « هلم بنا نزل »

قال « تمهل يا مولاي حتى تطمئن القلوب ويجمع الناس ولا يحسن بما المسير الا بعد
نصف الليل وبعد ان نرى النار التي سيوقدها الافشين »

قال « حسناً . . . وحول الى رجاله واوصاهم بالسكون والتربص في اما كنهم

وان لا يوقدوا ناراً ولا يخرجوا صوتاً حتى يأمرهم بالتقدم ثم تركهم وأشار الى وردان
فلحقه فلما خلا به قال له « تعال تتجسس الممر الذي قلت عنه انرى هل هو سالم او
لعل فيه عتبة »

فاستحسن وردان رأيه وعجب لسهره على جنده ومشيا مدة طويلة في ارض صخرية
كثيرة الحجارة يتلمس الماشي ارضها تلمساً وكان الظلام مخمياً لا يرى الرجل الا ما بين يديه .
وقد ساد السكون لا يسمع في ذلك الهدوء حفيف شجر ولا خرر ماء او تقيق ضفادع
لكنه قد يسمع كشيش ثعبان ينساب بين الصخور او رفرقة ناعق يحاق في الجو . فلما مشي
ضرغام ورفيقه كان لوقع اقدامها صوت بذلا الجهد في اخفائه لئلا ينم عن مكانهما
مشيا ساعة في مثل ذلك حتى اقتربا من الوادي ورأيا فوقه شبه جسر من الصخور
يمر عليه الاثمان والثلاثة معاً . فقال ضرغام « تحدثني نفسي ان اسير توتاً الى السور فاصعد
عليه والناس في غفلة ومتي صرت داخل السور يشتم ازر المسلمين بي فيكون هجومهم
ادعي الى الظفر »

فقال « اخاف عليك كميناً او مخبأً والاخسن ان نعود معاً او اعود انا وحدي ونستدعي
الرجال ونعاون على العمل »

قال « اذهب انت وانركبي هنا حتى نعود بهم »

فقال « احذر يا مولاي . . . واذا رأيت داعياً ناد وردان واذا مكثت ولم تحرك ساكناً لا
لا خوف عليك »

قال « اني ما كنت هنا حتى نعودوا »

فحاول وردان صاعداً نحو الفراغنة وظل ضرغام وحده . فلما خلا بنفسه نظر نحو السور
فوجدته على نحو مئتي خطوة منه فلم تطاوعه نفسه على الانتظار في مكان واحد فرأى ان يمشي
الهويناء حتى يصل الى السور ثم يعود فمشى وهو لا يعرف الطريق وانما جعل وجهه السور .
وكان ينقل قدميه وهو يحاذر ان يسمع وقعها ويرفع السيف بيده لئلا يلطم حجراً فيخرج
صوتاً . ولما دنا من السور وجده عالياً وعليه الابراج ولكنه لم يسمع صوتاً ولا رأى نوراً
الا في برج كبير فوق الباب رأى فيه ضوءاً ضئيفاً . ولم يسمع الا صهيلاً بعيداً كأنه آت
من داخل المدينة

حتى اذا صار على مقربة من السور سمع حركة فوقف ويده على قبضة حسامه وما شعر
الا وعشرات من الرجال خرجوا من وراء الصخور بين يديه ومن خلفه وبايديهم السيوف

مشرعة كأنهم كانوا ينتظرون قدومه فتحقق انه كمين خرج عليه فاستل حسامه وصاح فيهم
صيحة اجفلتهم ووثب وثوب الاسد يضرب ذات اليمين وذات اليسار ضرب رجل شديد
الباس قوي القلب يطلب الموت وكانوا يفرون من امامه فرار الظباء من الاسد وهو يتبعهم
ولا يدري مانصبوه له فما دري الا وهو يهوي في حفرة فانقلب وسقط السيف من يده وقد
شدت الجبال حول قدميه وكثفيه واخذوا في استخراجه من الحفرة . واذا هو يسمع جلبة
وفرقة ودبديبة وصوت وردان ينادي لييك ياسيدي . فتحول الكمين نحو الصوت وتركوا
عند ضرغام من يخفوه . وعلم ضرغام ان رجاله اتوا لاقاذه ولا يزالون بعيدين فرأى زئير الاسد
ونادى « وردان اقطع هذه الجبال »

فما كان الا كالمح البصر حتى وصل وردان اليه وقطع الجبال . فلما افلت ضرغام
تناول سيفه وصاح بالخرمية ورجاله وقتل اكثرهم وفر الباقون ولم تمض ساعة حتى خلت
تلك الساحة منهم فصاح ضرغام في رجاله هلم الى السور . وما أتم كلامه حتى سمع صوتاً
هائلاً كأنه دبديبة جبل يتدحرج واذا بوردان يقول « تنح ياسيدي انهم يدرجون
عجلات من اعلى الجبل عليها صخور كبار ^(١) لا تلبث ان تصل الينا ولا تفيد الشجاعة
في دفعها »

فتنحى ضرغام وقد كلت ذراعه من كثرة الضرب والطمع ولو لم ينهبه الى التنحي
من طريق العجلات لقتل تحت واحدة منها اذ لم يمض بسير حتى وصلت كالسيل الجارف
او كالرجم المتساقطة او هي كجامود صخر حطه السيل من علي
ولما استقرت تلك العجلات في آخر انحدارها جاء بعضها بلصق السور تماماً بحيث يمكن
التسلق فوقها الى شطحه . وشاها . ضرغام ذلك فصاح برجاله « على السور » وركض
امامهم وسيفه مشرع ولم يكذب حتى رأى ظهر السور قد امتلأ بالرجال في ايديهم
التبيل اخذوا يرون بها على الهاجين وهولاء لا يزالون وفي مقدمتهم ضرغام وقد وقعت
قلنسوته وتمزق قباؤه وانتبش شعره وتقطعت سراويله . ولو رأى نفسه بمراة في تلك
الساعة لانكر انه هو ضرغام صاحب الخليفة

وكان وردان يقتص أثر ضرغام فرآه قد صعد على احدى العجلات بقرب الباب وهم
يتسلق السور فعمل مثل عمله واذا بباب السور قد فتح بعضه وخرجت منه فرقة من الخرمية
احاطت بالعجلة ومن عليها والقوا الجبال على ضرغام ووردان فتحولاً واعملا السيف في

الجبال فتقطعت وصاح ضرغام « ما بالك تجار بوننا بالجبال اين سيوفكم ايها الجبناء »
 فلم يجبه احد منهم وهو واقف على العجلة يعمل السيف فيهم حتى زلقت قدمه عن
 خشب العجلة فوق وارثطم رأسه بججر فغاب رشده . فلما رآه وردان في هذه الحال شغل به
 عن نفسه فتكاثر عليهما الرجال وقبضوا عليهما وحملوهما الى داخل السور
 فصعدوا بهما الى البرج فوق الباب والقوها بين يدي رئيس حامية ذلك الباب فامر
 بالماء فرش على ضرغام فلما صحا تحفز ليقبض على سيفه ويهم بالوثوب فاذا هو موثق بين
 يدي صاحب الحامية والتفت فرأى وردان الى جانبه في مثل حاله فعظم عليه الامر فصاح
 في القوم قائلاً « عار عليكم ان تلجأوا في النجاة الى الجبال فان كنتم رجالاً حكموا السيف
 ... افنلوا ولا تأسروا »

الفصل السادس والخمسون

المكاشفة

قال ضرغام ذلك والتفت فرأى رئيس الحامية جالساً على مقعد وعليه القانسوة
 والسر اويل من لباس الخرمية ولم يتفرس فيه لضعف النور . وشاهد بين يديه جماعة من
 رجال الحامية الذين نجوا من المعركة وعليهم آثار القتال وسمعهم يلفظون بالفارسية وهو
 يعرفها فخطب الرئيس بها بمثل ما قال بالعربية فلم يجبه . ولكنه اشار الى رجاله فخرجوا
 واغلق الباب ورائهم وتقدم الى ضرغام فخل وثاقه ثم وثاق وردان وقال بالعربية « قم
 يا ضرغام ... قم واجلس »

فلما سمع ضرغام الصوت اجفل لانه يعرف صاحبه والتفت الى الرجل وتفرس في وجهه
 فعرفه فصاح « حماد ؟ »

قال « نعم حماد » وهو صديقه خطيب ياقوتة . فنظر اليه والدهشة بادية في وجهه
 وقال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان »

قال « جمت بعد مفارقتك اباي قرب همذان بيضمة ابام لسبب لا تجهله وقد دخلت في
 خدمة هذا الجوسي طلباً للانتقام من صاحبك الظالم . اما كان الاجدر به ان يذخر
 هذه السيوف في الدفاع عنه بدلاً من ان تكون عليه ؟ »

فابتسم ضرغام رغم ما هو فيه من القنوط وقال « ليس صاحبي ظالماً » ثم تذكر وعده
البحث عن جهان فقال « خفف عنك اني حامل اليك خبراً يسرك وارجو ان تكون
حاملاً مثله لي »

فبغت حماد وبدت الدهشة في عينيه وقال « ماذا؟ هل وجدت باقوتة؟ واين هي؟
قال « نعم وجدتتها وهي الآن في منزلي بسامراً عند والدتي معززة مكرمة »
فظن حماد نفسه في حلم لفرط دهشته ولم يتالك عن النهوض من شدة الفرح وقال « باقوتة
في منزلك الآن؟ » واكب عليه وقبل رأسه ووجهه وهو يقول « هل هي في خير وصحة؟
اني اشكر لك فضلك . . . ثم تراجع وتغيرت سمته كأنه تذكر امراً ازعجه وقال « ولكنني لسوء
الحظ لم ارفق الى خدمتك مثل توفيقك في خدمتي . . . على اني لم اذخر وسعاً في السعي
والاستفهام . . . كيف فعلت انت هل وقفت على خبر جهان؟ »

قال « لم اغادر وسيلة من وسائل البحث وذهب سعيي عبثاً » وسكت وقد انقبضت
نفسه وبدا الاهتمام في وجهه وقال « لو انك تركت رجالك يجهزون علي لفعلت خيراً معي
لاني لم آت هذه البلاد التماساً للفخر بالفتح أو الكسب بالغزو وانما اتيت لالقي حنفي واتخلص
من هذه الحياة » قال ذلك وهو يحرق اسنانه ويتللمل

فشعر حماد بحقيقة حاله فاخذ يخفف عنه فقال « لا تيأس باصديقي البطل من الفرج
فانه ياتيك وان حسبته مستحيلاً . . . انت نعلم ما كان من امري مع باقوتة وكيف تركت
وطني واهلي بأساً منها وها انت تقول انها سالمة فاتاني الفرج من حيث لا انتظر . . . ولا
اخفي عنك اني هممت بمثل فعلك وكدت اعرض نفسي للقتل . . . ولكنني وفقت الى امر
هدأ روحي وساعدني على الصبر اظنك لو وفقت اليه لصبرت مثلي »

وكان ضرغام يسمع حديثه وهو غارق في الهواجس ولحظ حماد فيه ذلك فاستلقت
انتباهه يده فوضعها على كتفه ثم نزع بها قطعة من تراب مجبولة بالدم كانت لاصقة عليه
من جملة لطخ الدم على ثيابه التي نطقت او تناثرت . فانتهبه ضرغام لكلام حماد فاصغى
فقال حماد « ألم توفقي الى فتاة تشبه حبيبتك فتعزى برويتها . . . ان ذلك يخفف كثيراً
من لوعة البعد ويساعد على الصبر . . . »

فتذكر ضرغام مشاهبة باقوتة لجهان فقال « نعم وفقت الى ذلك ولكنني لم اشعر بما
يخفف اللوعة وكانت رؤية ذلك الشبيه كثيراً ماتهيج اشجاني . . . »
فهب حماد رأسه هزة الاستغراب وقال « اما انا فاني استأنس بشبه باقوتة استئناساً يكاد

بذهب بقمونطي وان لم يكن لي وصول اليها . فقد رأيت اياقوتة شبيهة في هذه المدينة هي اعز نساءها جانباً واسماهن رتبة وامنعهن مقاماً لكنهما لا تحتجب فتخرج مسفرة لا تبالي ان يراها الناس وكنت كلما نظرتها تيمنت بطلعتها وتعللت بروؤيتها كالظمان يستغني بالفاكهة الرطبة عن الماء الزلال»

وكان وردان جالساً يسمع ولا يقل عنهما قلماً ولكنه رأى من التأدب ان لا يدخل في الحديث من تلقاء نفسه فلما سمع حماداً يذكر شخصاً يشبه ياقوتة تذكر شبه ياقوتة لجهان وهم ان يستوضح حماداً فرأى ضرغام قد سبقه الى ذلك وقال بلهفة « واين رأيت شبيهة ياقوتة ؟ »

قال « رأيتها في هذه المدينة في قصر بابك نفسه . . . لا اظنكم تجهلون الفتاة التي قامت بنصرة بابك وغيرت طباعه وردته عن الرذائل التي كان غارقاً فيها . . . »
قال وردان « اظنك تعني جلنار »

قال « نعم هي اعني . . . انها تشبه ياقوتة شبيهاً عجيباً فكنت اذا رأيتها حسبت ياقوتة امامي . وكانت تتردد الى قصر بابك او تخرج معه على فرسها مكشوفة الوجه فلم اشاهد في حياتي اجمل منظراً ولا اكثر هيبة وجلالاً منها »

فاحس ضرغام للحال باختلاج قلبه ولو كان الضوء كافياً لرأى حماد الدم يتصاعد الى وجنتيه وقد ابرقت عيناه واطرق لحظة راجع فيها ما يذكره عن ياقوتة ومشابهتها لجهان فقال في نفسه لعل هذه جهان فالتفت الى حماد وقال « ومن هي جلنار هذه ومن اين انت »
قال « هي من جملة نساء بابك حملت اليه من بلد بعيد كما حمل عشرات من امثالها لكنها كانت اشدهن تأثيراً عليه وقد اثرت في نفسه مثل تأثير السحر . فبين ترى رفيقاتها مختبئات في قصر النساء اذا رأيا بابك سجدن له تراها راكبة فرسها الادم تجول في المعسكر تأمر وتشير وامرها نافذ على الكبير والصغير »

فلما سمع ضرغام قوله « فرسها الادم » احس باعضائه ترتعد او هي فشعريرة البغته ولم يتالك عن النهوض وهو يقول « فرسها ادم . . . جهان جهان . . . اين هي . . . حماد اين هي ؟ »
فاستغرب حماد لهفته ولم يفهم مراده فقال « كيف عرفت انها جهان واسمها جلنار »

قال « عرفت ذلك من وصفك فقد ذكرت انها تشبه ياقوتة وانا اعرف ياقوتة وهي شديدة الشبه بجهان وذكرت ان جوادها ادم وانها حملت من بلد بعيد وكلها تنطبق على وصف جهان ولا عبرة بتغيير الاسم . فانت تعرفني مثلاً باسم ضرغام وليس في سامراً احد

يناديني بهذا الاسم الآن فاني اسمي الصاحب . . . فهي جهات بلا شك وقد شعرت
بذهاب اليأس من قلبي . . . قل اين هي الآن »

قال « اظنها في قصر النساء لانها نبيت هناك وتخرج عند الحاجة الى قصر بابك . . . »
فتنهذ ضرغام تنهد الفرج وتحول يأسه الى الاهتمام ونظر الى ثيابه الممزقة وهو يهتم
بالخروج للبحث عن جهن فاستوقفه حماد وقال « اخلع ثيابك والبس ثياب الخرمية حتى لا
ينكرك الناس وكذلك يفعل وردان وفي صباح الغد نخرج معاً الى قصر النساء »
فقطع ضرغام كلامه قائلاً « اصبر الى الغد ؟ . . . كيف اصبر . . . وهب اني صبرت
فهل تصبر المدينة وقد احدث بها المسلمون من كل ناحية ولا بد من اخذها الليلة . ومن
العجب ان يخفي ذلك عليك »

قال « لا تستغرب ذلك لاني من جملة قواد بابك وقد انتدبني في هذه الليلة لحراسة
هذا الباب لان بعض الجواسيس انبأه بعزمكم على الهجوم من هذه الناحية فانبت في
الغروب واقمت الكميناء حتى رأيناكم قريبين فامرتهم بالهجوم عليكم وكان ما كان . . . تعال
بدل ثيابك » والتفت الى وردان ليقول له ذلك ايضاً فوجده مطرقاً وقد اخذت الهواجس
منه مأخذاً عظيماً فقال « ما بالك يا صاحبي العلك مصاب مثل مصابنا »

فتنهذ وردان وقال « نعم ياسيدي . . . وستعلم ذلك متى خرجنا الى قصر النساء . وانا
ارى الخروج الآن كما يرى مولاي الصاحب ضرغام »

فاطاعها وبعد ان لبسا زي الخرمية خرج بهما وقد اوصي رجاله بخفارة الباب حتى
يعود — يوهمهم ان الاسيرين اللذين حملوها اليه دخلا في جملة الامرى الذين قبضوا عليهم في
تلك الليلة . فلما اطل حماد عن السور رأى البذ كثيرة الاضواء وسمع الضوضاء في وسطها
فصاح في رجاله فلم يجد منهم احداً فنادى خادمه فاسرع اليه فقال « اين الرجال »

قال « لم نسمع يا مولاي طبل الهجوم »

قال « كلا » وكأنه شغل عنه بما كان فيه من الدهشة

فقال الغلام « ضربت الطبول وصدر الامر ان يجتمع الرجال للدفاع عن الباب الشرقي
لان المسلمين داهمونا ليلاً وهجم معظمهم عليه ويقال ان قائدهم الاكبر معهم هناك »
فقال « الافشين نفسه ؟ »

قال « لا ادري »

فالتفت وردان وضرغام معاً الى معسكر الافشين فرايا النار المثلثة موقدة وتحقق الهجوم

فقال ضرغام « هل ترى مانعاً من الذهاب الآن الى ذلك القصر » وقد همه الاسراع في الذهاب لما سمع بذهاب الافشين الى هناك فدبت الغيرة في قلبه على جهان

الفصل السابع والخمسون

سقوط البذ

فقال حماد « لا مانع عندي » وركب كل منهم فرساً من افراس الخرمية واركضوها نحو قصر النساء فلحقوا اهل البلد في هرج وخوف ولم يبق احد منهم الا وهو يدافع عن نفسه ولم يشك الخرمية الذين شاهدوا حماداً ورفاقه انهم منهم . ثم رأوا نفرًا من المسلمين في وسط المدينة ينهبون واصبحوا كلما اقتربوا من الباب الشرقي رأوا المسلمين يتكاثرون فتحققوا ان البلد قد اخذ فلم يبالوا بشيء من ذلك في جانب ما كانوا فيه من اللهفة تعجلاً للوصول الى قصر النساء ولما وصلوا اليه رأوا جنود المسلمين يخرجون منه وقد اخذوا في نهب الامتعة والرياش ورأوا بعضهم يقود بعض النساء فاختلج قلب ضرغام لئلا تكون جهان اصببت بسبي او اسر فدخل القصر مع وردان فقال لها حماد « تمهلا فانا استطلع الخبر اليقين من مصدره » قال ذلك وتحول الى غرفة بقرب الباب رآها موصدة من الداخل فقرعها فلم يسمع جواباً فكلم الذين فيها بلسانهم ففتحت الباب امرأة كهلة اذنت بدخولهم واقفاته وهي ترتعد من الخوف فقال لها حماد « ما الذي جرى يا خالة ؟ »

قالت « ألم تر ما جرى ؟ فتحو المدينة وكانهم فتحوها لاجل هذا القصر فدخلوه ونهبوه وسبوا نساءه وحملوا ريشه ولو لم اختبى هنا او لو كان في جمال او لي مال لاخذوني ولكنهم اکتفوا باخذ حلي وانصرفوا »

فلما سمع ضرغام قولها « سبوا نساءه » ارتعدت فرائضه ولم يكن وردان اقل منه اضطراباً ولكنه كان اصبر منه على كتم شعائره وادرك حماد لهفتها فقال للقهرمانه « اخذوا كل النساء »

قالت « نعم »

قال « وجلنار ايضاً ؟ »

قالت « لا . . جلنار لم يأخذوها »

قال « اين هي ؟ »

فنظرت الى رفيقيه وترددت في الجواب وهي تجك وراء اذنها كأنها تكتم شيئاً تخاف ظهوره فقال لها « قولي لا تخافي »

قالت ان مولانا جلنار ورفيقيه لها من نساء بابك رومية الاصل خرجتا منذ بضعة ايام في مهمة لخدمة بابك . . . »

فقطع وردان كلامها وتصدى للاستفهام بحسارة فقال « وما هو اسم تلك الرومية يا خالة ؟ هل تعرفينها ؟ »

قالت « كيف لا اعرفها . . . وانا قهرمانه هذا القصر اعرف تاريخ نساءه واحدة واحدة فجلنار مثلاً لا يعرف اهل البند عنها شيئاً واما انا فاعرف اصلها وفصلها منذ حملت الينا من فرغانة واسمها يومئذ جهان بنت المرزبان ثم تسمت جلنار واهبت هذه الرومية وصادقتها وتوافق ذوقهما حتى ذهبتا في هذه المهمة معاً » فتحقق الجمع ان جلنار هي جهان نفسها ولم يبق مكان للشك اما وردان فلم ينل الجواب المطلوب فقال « سألتك عن المرأة الرومية ما هو اسمها وهل غيرته ايضاً ؟ »

قالت « اسمها هيلانة ولم تغيره منذ حملوها من زوجها البطريق في ارمينيا فباتت البعثة في وجه وردان ولم يتالك ان قال « هيلانة . . . هي هي زوجتي . . . » فاتبه ضرغام للحال ان خادمه وردان بطريق من بطارقة ارمينيا وان بابك اغتصبه امرأته ولم يستغربوا ذلك من بابك ولكنهم استغربوا تنكر وردان بحال الخدم فالتفت ضرغام اليه لفته تهينة وعتاب وقال « انت بطريق وتوهمني انك خادم ؟ والله اني رأيت فيك نفس الرجل العظيم منذ عرفتك . . . »

فقال « لجأت اليك ودخلت خدمة المسلمين توصلاً الى هذه الساعة التي انتقم فيها من ذلك الفاسق الظالم فارجو ان يكون قد قبض عليه ونال جزاء فعلته »

فقال حماد « ان لم يكن فرّ فانه واقع في الاسر لان المدينة فتحت وقضي الامر » ثم عاد حماد الى الاستفهام فقال للقهرمانه « لم تخبرينا يا خالة عن الجهة التي سارت اليها جلنار وهيلانة » قالت « سارتا معاً الى بلاد الروم يستجدونهم على المسلمين . . . استببطت هذا الرأي جلنار انتصاراً لبابك ووافقتها هيلانة وصحبته لان اصلها من اعيان تلك البلاد وتعرف لسانهم »

قال حماد « ومولانا بابك اين هو ؟ »

قالت « ليس مولانا في البند الآن ولا هو اسير »

قال « فإين هو . . . اخبرينا لآخنا في ان البلد قد اخذهُ المسلمون وهم ابقى لنا من سواهم . وانا اعلم انك اخبر الفاس بما يعملهُ بابك »
 قالت « بقي بابك في المعركة يناضل ويدافع حتى تحقق سقوط المدينة فأتاني واصطحب من شاء من نسائه مع احمال الطعام والشراب وخرج واظنه غادر المدينة واوغل في ارمينيا »

فنظر حماد الى ضرغام كأنه يسأله عما يريدهُ بعد ذلك فاشار اليه بالانصراف فخرجوا يلتمسون مكاناً يتداولون فيه بماذا يفعلون وقد لاح الصباح . فقادهم حماد الى مكان يعرفهُ وشاهدوا جند المسلمين في اثناء الطريق ينهبون المدينة ويهدمون بيوتها ويحرقون قصورها حتى لا يبقى فيها ملجأ لعدو ولا صديق

ولما وصلوا الى المكان قال ضرغام « ماذا يرى البطريق وردان في ما نحن فيه . . . تقول القهرمانه ان جهان وهيلانه سافرتا الى بلاد الروم . وهي بلاد واسعة ولوعرفنا البلد الذي تنزلانه لقصدناه » فضحك وردان لتسميته بالبطريق وقال لا حاجة بي الى هذا اللقب يكفيني اني صديق ضرغام . واما من حيث جهان وهيلانه فاذن لي ان اضرب في البلاد وابحث عنهما ولا اعود حتى اعرف مقرهما »

فقطع حماد كلامه وقال « كلا . . . لا يذهب احد في هذه المهمة سواي اني اشعر بفضل ضرغام علي لانه اتقد خطيبي من يد الاعداء واحتفظ بها في بيته مكرمة معززة فاذا لم اخدمه بما يعوض بهض ذلك الفضل كنت لثيباً . فاذنا لي في الذهاب وحدي ابحت وافتش ومتي وقفت على شيء بعثت اليكما »

فقال ضرغام « ليس من العدل ان تكون علماً بمكان ياقوته وهي في لفة للقياك وتذهب في مهمة اخرى . . . »

قال « لا تجادني . . . لست راجعاً الى اهلي قبل ان افرغ من طلب اهلك واهل هذا الصديق الارمني . لقد سررت بمعرفته سروراً كثيراً . واما ياقوته فانت راجع الى سامرا طمئنها عني وبشرها باللقاء »

فقطع وردان كلامه واخبره كيف ان الخليفة امر ضرغاماً ان يتزوجها فلم يفعل والخليفة يظنه تزوجها . فصاح حماد وقد ثارت الاربحية في راسه « ويستعظم مع ذلك ان اخدمه في البحث عن عروسه »

قال « كلاً وايكني اسير معك لاني اعرف البلاد ولغتها وطرقها » فقال « لا حاجة

بي الى احد منكما استودعكما الله من هذه الساعة » قال ذلك وخرج . فلما خلا ضرغام
بوردان قال ضرغام « احسبني في منام ياوردان ان الفرق بين اليوم والامس كالفرق بين
الرجاء والياس . ولكن . . . »

فقطع وردان كلامه بتهدئة وقال « وانا احسبني انتقلت من الجحيم الى النعيم .
لاني كنت شديد الكلف با-رأتي وبلغ من جسارة ذلك الوحش الكاسر ان يطلب
التزوج بها فلما ابيت بعث جنداً حملها اليه بالقوة . . . لعنه الله من مجوسي فاسق . آه لو
ظفرت به لاشربن دمه » قال ذلك وحرق اسنانه
فقال ضرغام « لعل الافشين ظفر به ونحن لا نعلم . وارى ان نعود الى المعسكر »

الفصل الثامن والخمسون

القبض على بابك

وكان الافشين قد احسن تدبير ذلك الهجوم حتى فتح البذ وقتل الخرمية عن آخرهم
واخذ اولاد بابك وعيالاته الاجهان وهيلاثة لانهما كانتا غائبتين كما علمت . وبعد ان
احرق المدينة وتحقق فرار بابك عاد الى معسكره في روض الروذ وقد ساءه انه لم يظفر بجهان
ولا علم مكانها فارتاب في اقوال سامان على انه حسب جهان فرت معه . وبلغ مقدار ما اخذوه
من السبي شيئاً كثيراً لا يعد ولا يحصى وبين الاسرى كثيرون من ابناء الاحرار وفيهم
العرب والفرس وابناء الدهاقين فامر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة وامرهم ان يكتبوا الى اوليائهم
فكل من جاء يعرف امرأة او صبياً او جارية واقام شاهدين اخذه (١) . فاخذ الناس
منهم خلقاً كثيراً وبقي كثير منهم
وكتب الافشين الى ملوك ارمينيا وبطارقتهم يقول لهم « ان بابك هرب وعدة معه وهو
ماربكم » وامرهم بحفظ نواحيهم ومراقبة مسيره وندم على تفريطه بضرغام وهو يحسبه قتل لان
بعض الفراغنة الذين كانوا معه اخبروه انه اخذ اسيراً وربما مات لانهم شاهدوه محمولاً بين
حي وميت لكنهم لم يجدوه بين القتلى
وعاد ضرغام في اليوم التالي مع وردان الى معسكر المسلمين فرحب به الافشين وهناه

بالسلامة واطرى ما سمعه عن بسالته في ليلة الهجوم وبالغ في الاطراء حتى يبعد ما يخافه من سوء ظنه . واخصه بالمداولة في الشؤون الهامة واهمها يومئذ فرار بابك واخبره بما فعله من السعي في القبض عليه فقال ضرغام « ان خادمي وردان ارميني الاصل والوطن وهو يعرف هذه البلاد معرفة جيدة استخدمه في هذا السبيل . واذا شئت اتيتك به الساعة »

قال « افعل »

فنادى غلاماً امره ان يستقدم وردان وكان خارج الفسطاط فلما دخل حيا ووقف بتأدب فقال له الافشين « اتعرف طرق ارمينيا ومسالكتها ياوردان ؟ »

قال « نعم يا سيدي على قدر الامكان »

قال « اين تظن ذلك الخرمي يخبى والى من يلتجى ؟ »

قال لا اظنه يلتجى الى بلد لان اهل ارمينيا بكرهونه وتمنون قتله ولكنني احسبه يخبى في بعض الغابات او الاودية واشهرها الوادي الاكبر المسمى الغيضة وهي كثيرة العشب والشجر بين اذربيجان و ارمينيا لا يمكن الخيل نزولها ولا يرى من يخبى فيها لكثرة شجرها »

فاستفاد الافشين من تلك المعلومات ثم صرف وردان وبعث جواسيسه للبحث في تلك الغيضة فعادوا اليه واكدوا اخبائه هناك . وكان الافشين قد بعث الى المعتصم اسنكته كتاب امان لبابك فلما جاء كتاب الامان دعا الافشين بعض الذين استأمنهم من اصحاب بابك واعلمهم بذلك وامرهم ان يسيروا اليه بالكتاب وفيهم ابنه فلم يجسر احد منهم خوفاً منه فقال انه يفرح بهذا الامان فقالوا نحن اعرف به منك فقام رجلان فقالا اضمن لنا انك تجري على عيالاتنا فضمن لهما فسارا بالكتاب فلما رأيا اعماء ما قدما له فقتل احدهما وامر الآخر ان يعود بالكتاب الى الافشين . وكان ابنه قد كتب اليه معها كتاباً فقال لذلك الرجل « قل لابن الفاعلة ان كنت ابني لحقت بي ولكنك لست ابني ولئن تعيش يوماً واحداً وانت رئيس خير من ان تعيش اربعين سنة عبداً ذليلاً » وقعد في موضعه . فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده وخرج من بعض تلك الطرق وكان من عليه من الجند قد تنحوا قريباً منه وتركوا عليه اربعة نفر يجرسونه . فبينما ذات يوم نصف النهار اذ خرج بابك واصحابه فلم يروا العسكر ولا اولئك الذين يجرسون المكان فظن ان ليس هناك احد فخرج هو وعبد الله اخوه وامه وامرأة اخرى وساروا يريدون ارمينيا فراهم الحراس فارسلوا الى اصحابهم اننا قد راينا فرساناً لا ندرى من هم . وكان ابوالساج هو المقدم عليهم فركب الناس وساروا نحوهم فراوا بابك واصحابه قد نزلوا على ماء بتغذون فلما

راى بابك العساكر ركب هو ومن معه فنجوا هو واخذ بابك والمرأة الاخرى فارسلهما
ابو الساج الى الافشين وسار بابك في جبال ارمينيا مستخفياً وكان بطارقة ارمينيا براقبون
مسيره فاحتال بعضهم حتى خدعه وادخله حصنه وارسل الى الافشين يعلمه بذلك فبعث
الافشين يعبده ويمنيه وهو بأبى التسليم . ثم احتال صاحب الحصن عليه حتى اخرجه بحجة
الصيد وانبا الافشين بخروجه فتمكنوا من القبض عليه ومعه اخوه عبد الله وحملوه الى
الافشين ^(١)

فلما قرب بابك من المعسكر صعد الافشين وجلس ينظر اليه وصف عسكره صفين وامر
بانزال بابك عن دابته فنزل ومشى بين الصفين فادخله بيتاً في برزند ووكل به من يحفظه
وانعم على الذين سلموه وكتب الى المعتصم بذلك . فامر بالقدوم اليه وبأخيه فانتقل
بجنده وحاشيته من برزند الى سامرا (سنة ٢٢٣ هـ) ومعه بابك واخوه عبد الله وكان
المعتصم يوجه الى الافشين في كل يوم من حين سار من برزند الى ان وافى سامرا خلعة وفرساً .
فلما صار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هرون الواثق بن المعتصم واهل بيت المعتصم وانزل
الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة فاتاه احمد بن ابي دواد متنكراً فنظر الى بابك وكلمه
ورجع الى المعتصم فوصفه له فاتاه المعتصم ايضاً متنكراً فراه . فلما كان الغد قعد المعتصم
واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة فشهروه المعتصم وامر ان يركب على الفيل فركب
عليه واستشرفه الناس الى باب العامة فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد خضب الفيل كهاداته يحمل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب اعضاؤه الا لذي شان من الشان

ثم ادخل بابك دار المعتصم فامر باحضار سياف بابك فحضر فامر المعتصم ان يقطع يديه
ورجليه فقطعها فسقط فامر به بذيجه ففعل وشق بطنه وانفذ رأسه الى خراسان وصلب
بدنه بسامرا وامر بحمل اخيه عبد الله الى اسحق بن ابراهيم ببغداد وامره ان يفعل به ما
فعل هو بأخيه بابك فعمل به ذلك وضرب عنقه وصلبه في الجانب الشرقي بين الجسرين ^(٢)
وكان ذلك آخر العهد بتلك الدولة

اما ضرغام ووردان فكانا من جملة الذين رجعوا مع حملة الافشين وشاهدا مقتل بابك
فاشتفيا بقتله ولكن ضرغاماً ودوا لوانه قتل يده في وسط المعركة . وحال وصولهم الى
سامراً سار ضرغام الى منزله وقبل يدي والدته وسلم على ياقوتة وبشرها بوجود حماد فلم تعد

تعرف كيف تشكره . واخبر والدته طرفاً من خبر جهان وانه عرف بوجودها وهي لا تعرف بوجوده وانها ذهبت الى بلاد الروم وان حماداً ابنت شهامته الا ان يبحث عنها بنفسه » قال ذلك وياقوتة حاضرة ونظر اليها وابتمس وهو يقول « اظن هذا الخبر يسوءك ولكنه ابى الآ الذهاب »

فتوردت وجنتاها خجلاً واطرقت وقالت « مها فعلنا لا نكافئك على فضلك فانك انقذتني من القتل والعار وكفلتني ودلت حماداً عليّ . . . »

فقطع كلامها قائلاً « لم افعل الا الواجب وقد جاء عملي مطابقاً لرأي امير المؤمنين وكل ما يريد امير المؤمنين لا فضل لنا في اتباعه لاننا صنائعه وعبيده » ورأى ضرغام في وجه ياقوتة تغيراً وفي عينها ارتباكاً كأنها تذكرت امرأً يمنعها الحياة من ذكره فقال « ماذا تريدان ؟ ما الذي خطر لك ؟ »

قالت « قد اذكري تفانيك في نصرة امير المؤمنين امرأً لاحظته في اثناء اقامتي ببيت الحارث السمرقندي اخافه على حياة امير المؤمنين . سمعت كلاماً يدل على مؤامرة بسعون فيها قتله » فظهر ضرغام الاستخفاف بذلك الخبر وقال « ان امثال هذه المؤامرات كثيرة والذي يصح منها قليل فلا ينبغي لنا ان نحفل بها — وسبب هذه المؤامرات على الغالب جهل بعض اهل الخليفة الاقربين فيحسن لهم ارباب المطامع من الوزراء او القواد المطالبة بالخلافة ليستفيدوا من انقائها — وهذا العباس بن المأمون قد حسن له بعضهم ان يطالب بالخلافة لنفسه ولا ينالها الا اذا قتل المعتصم فهم يتآمرون ويتواطون على قتله ولكنهم لا يفطنون » قال ذلك وفي صوته لحن التهديد كأنه يقول انه يبذل دمه في مقاومتهم

فلما سمعت والدته كلامه اشدق وجهها وابتمست ولو كان في عينها نور لدلتنا على ما خالج فؤادها من السرور بما قاله ابنها على انها قالت « بورك فيك يا بني هكذا تكون الامانة » وبعد الاستراحة لبس ضرغام سواده وذهب للسلام على المعتصم وعنده الافشين وغيره من كبار القواد فخالج عليه هسهس له وقال « مرحباً بالصاحب البطل الهام . قد بلغنا ما كان من بلائك في الاعداء وما ابديته من البسالة والهمة بورك فيك . . . الا تزال ترى لقب صاحب كثير عليك » وأشار اليه بالجلوس قريباً منه

فاطرق خجلاً وبالغ في التواضع وهو يقعد وقال « ان العبد اذا قام بخدمة مولاه لا يستحق على خدمته اجراً واذا علم ان مولاه راض عن عمله فهي اكبر مكافأة له » فالتفت الخليفة الى الافشين لفتة استفهام او استشهاد فقال الافشين « ان صاحب

يا امير المؤمنين بندر مثاله في الشجاعة وصدق الخدمة « واخذ يطري اعماله يريد ان
يحو ما يحشى ان يكون خامره من سوء الظن . وعاد الخليفة نفسه الى الاطراء والثناء وامر
له بالهدايا والخلع ولما انقض المجلس عاد ضرغام الى منزله وعادت اليه هواجسه في جهان .
ولبت في انتظار ما ياتي به من عند حماد فكان يقضي اكثر اوقات الفراغ مع وردان
يتحدثان فيما عسى ان يكون من امر جهان وهيلانة

الفصل التاسع والخمسون

كتاب حماد

وفي اثناء تلك السنة جاء الخبر الى المعتصم ان تيوفيل ملك الروم خرج الى بلاد
الاسلام وشاع ذلك في سامرا وقد همّ ضرغاماً كثيراً لان قلبه في بلاد الروم فبعث الى
وردان ليباحثه ويستطلع رأيه فلما جاء سأله عما يراه فقال « لا بد من علاقة بين هذا
الخروج وفتح البند وقد انبأني بعضهم ان بابك لما ضيق الافشين عليه واشرف على الهلاك
كتب الى ملك الروم تيوفيل يخبره ان جنود المسلمين مشغولون به وهي فرصة يجب
عليه ان ينهزها لاكتساح مملكة الاسلام . ولم تظهر نتيجة تلك المكاتبة الا الان وربما
كان لجهان تأثير في حمله على ذلك »
قال « تحدثني نفسي انهما هناك »

قال « لو كانت هناك لجاؤنا الخبر من حماد لانه طبعاً انما يبحث عنهما حيث يكون ملك
الزوم . ولا بد من الصبر »

قضى ضرغام في ذلك اياماً على مثل الجمر حتى جاءه وردان الى منزله ذات يوم
مهرولاً واوماً اليه ان يتبعه فتبعه حتى انفردا في بعض جوانب الحديقة فدفع اليه اسطوانة
ملفوفة بمنديل من الحرير فخل المنديل وفتح الاسطوانة فرأى فيها كتاباً من الكاغد قرأ
في صدره اسم حماد فخفق قلبه فاخذ يتلوه وهذا نصه :

« من حماد العربي في عمورية الى صاحب ضرغام في سامرا

« قد اطلت عليك السكوت وانظنك مللت الانتظار ولكنني فعلت ذلك مكرهاً . قضيت
اشهرأ وانا ابحت عن الضائع ولا ادري كيف ابحت فبلغني ان تيوفيل ملك الروم قادم

على زبطرا فهمت ان الاقيه هناك لعلي اعثر بضائنا فما كدت ابليغ البلد حتى قيل لي ان الروم اكتبسحوه واخربوه وسبوا الذرية والنساء واغاروا على ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبوا المسلمات ومثلوا بمن صار في ايديهم من المسلمين وسملوا اعينهم وقطعوا انوفهم واذانهم وقد شاعدت بعض اولئك المجدوعين ورأيت الناس قد خرجوا من بلادهم في الشام والجزيرة فراراً من وجه الروم الا من لم يكن له سلاح او دابة . فلما رأيت ذلك عدت من زبطرا وتذكرت ان ناطس بطريق عمورية زار البند في عهد بابك وقد عرفته جهان فخطر لي انها ذهبت اليه وقد صدق ظني لاني علمت بعد دخولي عمورية ان جهان وهيلانة اتتا عمورية من البند رأساً لتوسيط ناطس المشار اليه لدى ملك الروم في نجدة بابك فانزلهما ناطس في قصره ووعدهما خيراً ثم جاء الخبر بسقوط البند وقتل بابك فلم يبق لهما حاجة في ارمينيا كلها فبعثتا في عمورية . ويظهر ان بطريقها ناطس شديد الحرص عليهما ولا سيما جهان وقد ضيق عليهما فلا يسمح لهما بالخروج — وان كنت لا احسبه يستطيع ذلك مع جهان بعد ان شاهدت نفوذها على بابك اشد خفاق الله وطأة وافظهم خلقاً . ولعلها رضيت بذلك الاسر من تلقاء نفسها ياساً من لقائك . وقد حاولت ملاقاتها حتى اطعمها على حالك وابشرها بقرب لقائك فلم يتيسر لي لان القوم هنا شديدو الخدر من المسلمين واذا ساوا الظن باحد منهم قتلوه ومثلوا به كما فعلوا باهل زبطرة . وفي كل حال ان جهان وهيلانة الآن مسجونتان في قصر ناطس بطريق عمورية وسابنل جهدي في ابلاغ خبرك اليهما وان كنت لا اطمع بذلك . هذا ما وصلت اليه الآن وقد علمت ان الروم ينوون اكتساح مملكة الاسلام فالذي اراه ان يسبقهم المسلمون ويكتبسحوا بلادهم وهذه عمورية من امنع حصونهم ولا اراها تتمتع على المسلمين لعلمي بموضع الضعف في اسوارها — ولا اخالك بمدقراءة ما تقدم الاحرضا صاحبك على فتحها . فاذا فعلت فاجعل على رايتك علامة اعرفها عن بعد لاعرف مقرك اجعل رايتك قطعتين مستطيلتين اذا نزل معسكركم امام عمورية عرفت مكانك منه والسلام» وما فرغ ضرغام من قراءة الكتاب حتى نصب العرق من جبينه وهاجت اشجانه وثار عواطفه ودفع الكتاب الى وردان فقرأه ثم قال « الا يرى مولاي المبادرة الى العمل . . هل تأذن بذهابي الى عمورية »

قال « لا فائدة من ذهابك فان المرأتين في حصار اضيق مما قرأته في هذا الكتاب وقد اراد صديقنا حماد تخفيف الخبر . ألم تقرأ قوله « ويظهر ان ناطس شديد الحرص عليهما

ولا سيما جهان « فانه يعني انه احب جهان واستبقاها لنفسه فلا تفيد الخيلة في انقاذها منه ولا بدء من القوة - وقد اشار حماد الى ذلك في اواخر كتابه تليحاً »
 فقال وردان « فاذا كان لا بد من الحرب فلا يقدر على اثارها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة » . فلم يصبر ضرغام على اتمام الحديث فترك وردان في مكانه ومضى الى المنزل لبس السواد والقلنسوة وخرج لمقابلة الخليفة فاستأذن فقال الحاجب « ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد » فقال « استأذن لي ايضاً »
 فلما اذن له دخل وسلم فرأى القاضي احمد جالساً بجانب سرير المعتصم والاهتمام بادب في وجهيهما فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة قائلاً « جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليه وقد كنت عازماً على استدعائك » و اشار اليه بالجلوس
 فجلس وهو يقول « ان قلبي دلني على امر يقتضي مجيئي لاني لا ابرح مفكراً في مولاي اشارك في ارادته فتتلا في خواطرننا »

فقال القاضي « بلغني سرور امير المؤمنين لما اهدبته من البسالة في فتح البذ وقد مرني صدق توهمي فيك واصبحت موضع ثقة مولانا يعول على رأيك وسيفك »
 فاطرق حماد تادباً ولم يجب قائم الخليفة الحديث قائلاً « جاء البريد من بلاد الروم ان نيوفيل اللعين نزل زبطرا وملطية واساء الى اهلها وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يتعود المسلمون مثله » . فقال ضرغام « هل يطلب امير المؤمنين رأبي ؟ » قال « نعم »
 قال « لا رأي لي غير السيف . . السيف . . كما عودهم الرشيد من قبل . . احمل عليهم دوخهم اكتبهم بلادهم . . ان الاسلام لا يصبر على ما فعله نيوفيل من سمل العيون وجذع الانوف وسبي النساء . . جرد يا امير المؤمنين جندك وهم عائدون من ظفر فيكونوا اصبر على القتال وانا عبدك اول متفان في هذه الحرب . . . واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين لا اخاله يصبر على سبي النساء المسلمات . . » وكان ضرغام يتكلم وعيناه نقدحان شرراً وشفته تترجفان واحس انه بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ولكنه لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرأى سحنته تغيرت وقد اقطب حاجباه وبرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . وقف شعر شاربيه وحيته وقد ثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجه حماسه واصبح كالاسد الكامر . وهو كالاسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام ان يكون قد اغضب المعتصم بجسارته فاراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلاً « لقد نهيت حميمة امير المؤمنين الى

مصلحة المسلمين وما هو غافل عنها ولكن يسره ان يرى ذلك في رجاله وابطاله «
 فقال المعتصم « ان صاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . . . وسأمر الافشين وغيره
 من القواد بالتأهب للحرب بعد ان استخبر الله فيها . . . انها جهاد في سبيل الاسلام » قال ذلك
 و اشار اشارة الصرف وهو يقول « موعداً غداً ان شاء الله » فانصرف القاضي وضرغام
 مشى ضرغام الي منزله وقد جاشت عواطفه فرأى وردان في انتظاره فقص عليه
 ماجرى فسرّه الامر ولكنه مازال خائفاً ان تأول تلك الاستخارة الى العدو . . . وفي
 الصباح التالي جاء غلام الخليفة باكرآ في طلب صاحب فخاف من هذا التبعير فمضى حتى
 دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو لا يزال في ثوب النوم وقد التف
 بمطرف . . . وآس في وجهه انقباضاً فاجس خيفة فدخل وحيماً . . . فامر المعتصم بالجلوس
 فجلس وهو ينتظر فقال له الخليفة « اتدري لماذا دعيتك باكرآ . . . وادخلتك عليّ وانا في
 هذه الحال ؟ » قال كلا يا مولاي «

قال « اني ناهض من فراشي الآن بعد ان استيقظت منزجماً مضطرباً »

قال « خيراً ان شاء الله »

قال « رقدت البارحة بعد الصلاة وتوسلت الى الله ان يلهمني ما يكون خيراً للمسلمين
 من امر الروم فرأيت حلاً اطار صوابي واذهب رشدي »

فظل ضرغام مصغياً وهو يتناول بعنقه فمسح المعتصم لحيته وشاربيه واصلح عمامته
 الصغيرة على رأسه وقال « قلت اني رايت والحقيقة اني لم ار شيئاً ولكني سمعت صوتاً اخترق
 اعماق قلبي . . . سمعت امرأة هاشمية اسيرة في بلاد الروم تصيح « وامعتصماه » فاجبتها « لبيك »^(١)
 واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وان اكون انا ايضاً في جملة المجاهدين فكأن
 انت على اهبة السفر وسأمر قوايدي بالتأهب . . . هل اتق بجندي ؟ »

فذكر ضرغام ما كان يبديه من الارتياب في اخلاص الافشين فقال « لا سبيل الى
 تحقيق ذلك وقد علم امير المؤمنين انهم يشتغلون طمعاً بالمال وقد فتحوا البند واذهبوا الحرمية
 وسيفعلون ذلك بالروم »

فقال المعتصم « يخيل لي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد اعوام . . . »
 فنجل من الاطراء وقال « اذا كان لامير المؤمنين ثقة بسبده فاكون في خدمته في
 هذه الحملة ولا يخشى غدرأ باذن الله »

ولا سيما جهان » فانه يعني انه احب جهان واستبقاها لنفسه فلا تفيد الخيلة في انقاذها منه ولا بد من القوة - وقد اشار حماد الى ذلك في اواخر كتابه تليجاً »

فقال وردان « فاذا كان لا بد من الحرب فلا يقدر على اثارها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة » . فلم يصبر ضرغام على اتمام الحديث فترك وردان في مكانه ومضى الى المنزل لبس السواد والقلنسوة وخرج لمقابلة الخليفة فاستأذن فقال الحاجب « ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد » فقال « استأذن لي ايضاً »

فلما اذن له دخل وسلم فرأى القاضي احمد جالساً بجانب سرير المعتصم والاهتمام بادب في وجهيهما فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة قائلاً « جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليه وقد كنت عازماً على استدعائك » و اشار اليه بالجلوس

فجلس وهو يقول « ان قلبي دلني على امر يقتضي مجيبي لاني لا ابرح مفكراً في مولاي اشار كه في ارادته فتتلا في خواطرننا »

فقال القاضي « بلغني سرور امير المؤمنين لما ابدته من المسالة في فتح البذ وقد سرني صدق توهمي فيك واصبحت موضع ثقة مولانا يعول على رأيك وسيفك » فاطرق ~~حماد~~ تأدباً ولم يجب قائم الخليفة الحديث قائلاً « جاء البريد من بلاد الروم ان تيوفيل اللعين نزل زبطرا وملطية واساء الى اهلها وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يتعود المسلمون مثله » . فقال ضرغام « هل يطلب امير المؤمنين رأيي ؟ » . قال « نعم »

قال « لا رأي لي غير السيف . . السيف . . كما عودهم الرشيد من قبل . . احمل عليهم دوخهم اكتبهم بلادهم . . ان الاسلام لا يصبر على ما فعله تيوفيل من سمل العيون وجردع الانوف وسبي النساء . . جرد يا امير المؤمنين جندك وهم عائدون من ظفر فيكونوا اصبر على القتال وانا عبدك اول متفان في هذه الحرب . . . واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين لا اخاله يصبر على سبي النساء المسلمات . . » وكان ضرغام يتكلم وعيناه نقدحان شرراً وشفته تترجفان واحس انه بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ولكنه لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرأى سخته تغيرت وقد اقطب حاجباه وابتقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . وقف شعر شاربيه وخطته وقد ثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجته حماسه واصبح كالاسد الكامر . وهو كالاسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام ان يكون قد اغضب المعتصم بجسارته فاراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلاً « لقد نهيت حميمة امير المؤمنين الى

مصلحة المسلمين وما هو غافل عنها ولكن يسره ان يرى ذلك في رجاله وابطاله «
 فقال المعتصم « ان صاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . . وسأمر الافشين وغيره
 من القواد بالتأهب للحرب بعد ان استخبر الله فيها . . انها جهاد في سبيل الاسلام » قال ذلك
 و اشار اشارة الصرف وهو يقول « موعداً غداً ان شاء الله » فانصرف القاضي وضرغام
 مشى ضرغام الي منزله وقد جاشت عواطفه فرأى وردان في انتظاره فقص عليه
 ماجرى فسرّه الامر ولكنه مازال خائفاً ان تأول تلك الاستخارة الى العدول . وفي
 الصباح التالي جاء غلام الخليفة باكرًا في طلب صاحب فخاف من هذا التكبير فمضى حتى
 دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو لا يزال في ثوب النوم وقد التف
 بمطرف . وآس في وجهه انقباضاً فاجس خيفة فدخل وحيماً . فامر المعتصم بالجلوس
 فجلس وهو ينتظر فقال له الخليفة « اتدري لماذا دعيتك باكرًا . . وادخلتك عليّ وانا في
 هذه الحال ؟ » قال كلا يا مولاي «

قال « اني ناهض من فراشي الآن بعد ان استيقظت منزجماً مضطرباً »

قال « خيراً ان شاء الله »

قال « رقدت البارحة بعد الصلاة وتوسلت الى الله ان يلهمني ما يكون خيراً للمسلمين
 من امر الروم فرأيت حملاً اطار صوابي وازهد رشدي »

فظل ضرغام مصغيماً وهو يتناول بعنقه فمسح المعتصم لحيته وشاربيه واصلح عمامته
 الصغيرة على رأسه وقال « قلت اني رايت والحقيقة اني لم ار شيئاً ولكني سمعت صوتاً اخترق
 اعماق قلبي . سمعت امرأة هاشمية اسيرة في بلاد الروم تصيح « وامعتصماه » فاجبتها « لييك »^(١)
 واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وان اكون انا ايضاً في جملة المجاهدين فكأن
 انت على اهبة السفر وسأمر قوادي بالتأهب . . هل اتق بجندي ؟ »

فتذكر ضرغام ما كان يبديه من الارتياح في اخلاص الافشين فقال « لا سبيل الى
 تحقيق ذلك وقد علم امير المؤمنين انهم يشتملون طمعاً بالمال وقد فتحوا البند وازهبوا الحرمية
 وسيفعلون ذلك بالروم »

فقال المعتصم « يخيل لي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد اعوام . . »
 فحجل من الاطراء وقال « اذا كان لامير المؤمنين ثقة بمبده فاكون في خدمته في
 هذه الحملة ولا يخشى غدرأ باذن الله »

قال « وما رايتك في البلد الذي تقصده من بلاد الروم »
 قال « ان الصوت الذي سمعته يا امير المؤمنين احسبه خارجاً من عمورية وهي من
 اكبر مدائن الروم وعين النصرانية وفي فتحها نفع للمسلمين ٠٠ »

الفصل الستون

الحملة على عمورية

قال « احسنت » وتحفز للنهوض فخرج ضرغام وبشر وردان واخذوا في الاستعداد
 اما المعتصم فامر ان يتأهب جنده للحرب وجلس في دار العامة واحضر قاضي بغداد ومعه ٣٢٨
 رجلاً من اهل العدالة فاشهدهم على ما وقفه من الضياع فجعل ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى
 وثلثاً لمواليه ٠ ثم تجهز الى عمورية جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد
 والآلة وحياض الماء والروايا والقرب وغير ذلك وجرّد جيشاً عظيماً قالوا انه ٩٠٠,٠٠٠
 مقاتل عليه من القواد الافشين وشناس وغيرها وخرج المعتصم نفسه على دابته وسمط خلفه
 شكلاً وسكة حديد وحقية فيها زاد تشبهاً بالمجاهدين في صدر الاسلام

وفرق جنوده الى جهات مختلفة من بلاد الروم واخيراً التقوا قرب انقرة وعزموا على المسير
 الى عمورية ٠ فامر المعتصم بتعبية الجند فجعله ثلاثة عساكر او معسكرات احدها في الميسرة
 قائده اشناس التركي والثاني في الوسط وفيه المعتصم نفسه والاخر في اليمينه وقائده الافشين
 وبين كل عسكر وعسكر فرسخان ٠ وامر كل عسكر ان يكون له ميمنة وبسرة وامرهم ان يحرقوا
 القرى ويخربوها يأخذوا من حقوقها فيها ثم ترجع كل طائفة الى صاحبها يفعلون ذلك في ما
 بين انقرة وعمورية وبينهما سبع مراحل ٠ ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية وكان اول من وردها
 اشناس ثم المعتصم ثم الافشين ٠ فداروا حولها وقسمها المعتصم بين القواد وجعل لكل واحد
 منهم ابراجاً منها على قدر اصحابه (١)

وكان ضرغام في معسكر المعتصم والمعتصم بقربه ويكرمه وفي جملة حاشيته ايضاً الحارث
 السمرقندي وقد اخذ الحسد منه مأخذاً عظيماً لما شاهده من منزلة ضرغام عند الخليفة
 وضرغام لا يكثر بذلك وانما هم ان يحظى بما تطالبه نفسه من انقاذ جهان وكذلك
 وردان

واول شيء فعله بعد نزول المعسكر انه صعد مع وردان الى رابية اطلاق منها على غمورية
فأبأها مدينة كثيرة الابنية واسعة الارحاء حولها سور عال عليه الابراج الضخمة وله
الابواب المتينة ورأيا بين الابنية قصرًا عليه الرايات علم ضرغام انه قصر البطريق فحقق
قلبه لا عنقاده ان جهان في داخله فتنهد ونظر الى وردان فراه مطرقًا فقال له « اليس هذا
قصر البطريق ناظس » قال « بلى . هذا هو بعينه »

قال « اذا صح قول حماد فان جهان وهيلانة محبوبستان فيه وارى المدينة حصينة .
ولكنها لا تمتنع علينا باذن الله . هل اعددت الراية المزدوجة التي اوصانا حماد بها ؟ »
قال « نعم اعددتها ولا ادري كيف ننشرها ونحرق في معسكر المعنصم وتحت رايته »
قال « لا بد من نشرها في مكان منفرد لعل حماداً يكون في انتظار رؤيتها »
قال « غداً أقف بها على هذه الرابية ساعة ثم نري ما يكون » قال « افعل »
ورجعا الى المعسكر وباتا تلك الليلة واصبح المعنصم في اليوم التالي فمقد مجلساً من
خاصته حضرة القواد وفي جملتهم صاحب والحارث السمرقندي واخذوا يتباحثون في
ماذا يفعلون وكيف يحاربون . ولما اذن المؤذن لصلاة الظهر تفرقوا ودخل الخليفة فسطاطه
واشار الى صاحب ان يأتيه في صباح الغد على انفراد فرجع الى فسطاطه فاذا وردان في
انتظاره وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً فسأله عن الراية فقال « انها مغروسة على الراية »
فقال « مالي اراك متغيراً وكيف تركتها »

قال « تركتها لامر اهم منها » قال « وما ذلك ؟ »

قال « ذلك اني رأيت سامان اللعين في معسكر الافشين وقد قربه الافشين ورفع
منزله فلم استطع الصبر على رؤيته وحدثني نفسي ان اذهب بجيانه »
قال « لا تفعل اننا في موقف نحتاج معه الى جمع الكلمة . واخاف اذا ابدت غيظاً
اورفعت يدك على سامان ان بغضب الافشين فيقع الانقسام في الجيش فاترك سامان الى
وقت آخر . وامض الى الراية وراقب الاسوار وامكث هناك الى الليل »
قال « حسناً » ومضى لشأنه

ومكث ضرغام في فسطاطه حيناً وقد خلا بنفسه واخذ يفكر في حاله واستغرق في
افكاره وهو ينتقل بخياله من جهان الى امه الى حماد الى الافشين واخذه النعاس فنام ولم
يستيقظ الا وهو يسمع صوت وردان بناديه ففتح عينيه فاذا هو في المساء وقد اظلمت
الدنيا فلما رأى وردان ظنه جاء يبشره بحماد فقال « هل اتى حماد ؟ » قال « كلا »

قال « وكيف تركت الراية هذه المرة ايضاً ؟ »
 قال « تركتها لامرٍ لم استطع صبراً علي كتمانها الى الغد وخفت ان تذهب في الصباح
 الى المعتصم قبل ان اراك ويهمني ان تطلم عليه قبل ذهابك »
 قال « وما هو ؟ اذا كان مختصراً قلّه والا فدعني ارافك الى الراية اساهرك لاني
 نمت كثيراً وتقصه علي هناك »

قل « ليس حديثي طويلاً لكنك اذا صحبتني لا يخلو اجتماعنا من فائدة »
 فنهض ضرغام ولبس ثياباً لا تميزه عن سواه من الجند وخرج مع وردان وكانت الراية
 بين معسكري المعتصم واشناس فرماً بكثير من الفساطيط بين مضيء ومظلم ووردان يسير
 به في وسط المعسكر فقال ضرغام « اراك تسير في غير الطريق المستقيم »
 قال « اريد ان اريك شيئاً جديداً . . . هل تعرف هذا الفسطاط الى يسارنا ؟ »
 قال « اعرفه هو فسطاط العباس بن المأمون ما لنا وله »

قال « اكتشفت سرّاً لو اطلم عليه المعتصم لقلب المعسكر رأساً على عقب » قال « وما هو »
 قل « لما عدت من عندك في هذا النهار مررت من هنا فرأيت الحارث السمرقندي
 خارجاً من هذا الفسطاط وقد خف العباس لوداعه وبالغ في اكرامه فقلت في نفسي لامر ما
 هذا الا كرام وانا اعلم ان السمرقندي واجدٌ على المعتصم بعد ان اخذ باقوته منه و زاد
 حسده لما رآه يقربك اليه ولا يخفى عليك ما في نفس العباس بن المأمون على المعتصم لانه
 اخذ الخلافة منه وبعض القوادير يدها له فجنهن هو عن طلب البيعة فانها للمعتصم . وقد
 سمعت وانا في سامرا ان الحارث السمرقندي كان من جملة الساعين في خلع المعتصم
 ومبايعة العباس لكنهم تهيّبوا الاقدام على هذا الامر خوفاً من الجند فلما رأيت الحارث
 خارجاً من فسطاط العباس اليوم حدثني نفسي بامر ذي بال بينهما »

وكان وردان يقص حديثه بصوت منخفض وقد عرجا عن المعسكر نحو الراية ووصلا
 الى الخيمة المنصوبة هناك والليل مظلم فراى ضرغام رجلاً نائماً عند باب الخيمة وله شخير
 كخوار الثور وشم رائحة الخمر فقال « من هذا النائم هنا وكان في اشم رائحة الخمر »
 قال « هذا ناقل السرّ اليّ وهو من عبيد الحارث عرفته من سامرا فاحتلت في دعوته
 اليّ وسقيته خمرًا حتى سكر وقص علي الحديث الآتي - اتدخل الخيمة ام اتم الحديث
 خارجها . اني والحق يقال لا اري لحراسة الراية في هذه الظلمة فائدة لان الظلام يحول
 دون رؤيتها علي عشرة اذرع فكيف من داخل عمورية »

قال « صدقت ولكني لا اعني ان يراها حماد من هناك ليلاً ولكن قد يراها ساعة الغروب ويحتمل في الخروج بعد قليل فلا يراها او ربما وقع بصره عليها في صباح الغد باكراً فيأتي وانت لا تزال عندي ٠٠٠ اقصص علينا ما سمعته من العبد »

فمشي وردان الي صحرة على بضعة اذرع من الراية وضرغام يتبعه و اشار اليه بالجلوس هناك فجلس واخذ بقص عليه قال « اخبرني العبد ان سيده الحارث اتفق مع العباس ان يكون رسوله الي القواد في هذا المعسكر ومنهم جماعة تحت قيادة الافشين وآخرون من قواد اشناس وآخرون في جند المعتصم . فتعهد الحارث ان يكون سفيره الي اولئك القواد يأخذ البيعة عليهم . فاخذ يدور المعسكرات الثلاثة حتى استمال جماعة من القواد وبايعوه وفيهم جماعة من خواص المعتصم وقال لكل من بايعه اذا اظهرنا امرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي هو معه ويقتله . فوكل من بايعه من خاصة المعتصم ان يثبوا في الوقت المعين على المعتصم ويقتلوه ومن بايعه من خاصة الافشين ان يثب على الافشين ويقتله ومن بايعه من خاصة اشناس ان يقتله وهكذا في سائر القواد العظام فضمنوا له ذلك ^(١) »

وكان ضرغام يسمع كلام وردان وهو مطرق بهز رأسه من الاستغراب فلما فرغ من كلامه قال ضرغام « فيجهم الله من خونة مارقين »

فقال وردان « اني ارى العباس اعقلهم جميعاً فقد فهمت من محدثي انه لم يوافقهم على تنفيذ المكيدة الآن خوفاً من ضياع هذا الفتح . فاحببت ان اطلعك على ما سمعته وانت ذاهب غداً الي الخليفة فتنقله اليه اذا شئت »

قال « كلا ياوردان . لا ينبغي ان يعلم الخليفة بذلك والآن فاننا نجري على المسلمين ما نجاهشاه من الانقسام ولكننا نكتمه الي حينه وخصوصاً بعد ان علمنا انهم اجلوا تنفيذه . . . ويجب علينا مع ذلك ان نسهر على حياة امير المؤمنين »

فاحجب وردان باريجية ضرغام وقال « بورك فيك يا بطل . . . هذا هو الرأي الصواب » فقطع ضرغام كلامه قائلاً « ولكنك قد اخطأت باستبقاء هذا العبد عندك الي الصباح فاذا صحا عرف المكان وربما وشى بك والاحسن ان لا يعرفه فانتقله الآن وهو بين السكر والنوم وانا امكث هنا حتي تعود »

قال « لقد اصبت » ونهض واخذ في ايقاظ العبد وهو لا يصحو فجعل يوقفه او يقوده او يجره حتى بعد به عن فسطاطه واقترب من فسطاط العباس فتركه على الارض ورجع وكان الليل قد تنصف ولم يبق في المعسكر احد الا نام

الفصل الحادي والستون

فتح عمورية

اما ضرغام فوقف في اثناء غياب وردان ونظر الى عمورية فرأى الاضواء على اسوارها وفي بعض قصورها ولا سيما قصر البطريق فلما وقع بصره على ذلك القصر اختلاج قلبه بصدوره وحدثته نفسه ان يتسلق السور وينقض على المدينة حتى يبلغ القصر وينادي جهان فاذا اجابته لا يبالي ولو قاومه اهل عمورية كافة - ذلك هو غرور اهل الحب فان احدهم يرى المستحيل ممكناً في سبيل هواه . اما ضرغام فما لبث ان رأى وردان راجعاً حتى رجع اليه رشدة فصبر نفسه وكتب هواجسه وقال لوردان « اني ذاهب الى فسطاطي وامكث انت هنا الى الصباح لئرى ما يكون » قال « سمعاً وطاعة »

وتحوّل ضرغام نحو فسطاطه وهو غارق في افكاره وقبل ان يصل اليه سمع لغطاً بينه وبين السور فالتفت فرأى جماعة من خفر المعسكر يقودون رجلاً قد امسكوا بخناقه وهو يقول لهم « خذوني الى الصاحب »

فلما سمع صوته اجفل لأنه صوت حماد فامسح الى فسطاطه ولبث في انتظار وصولهم وبعد قليل دخل احدهم وقال « ان جاسوساً قبضنا عليه وهو داخل المعسكر من جهة المدينة فزعم انه قادم اليك » قال « ادخلوه »

فدخل فتبينه فاذا هو حماد بعينه فقال « دعوه » فتركوه ورجعوا فلما خلا به حياه ورحب به واجلسه الى جانبه وساله اولاً عن جهان فقال « لا تزال عند البطريق كما اخبرتك » قال « لم نستطع ابصال خبرنا اليها »

قال « كلاً . . . بل لم استطع الظهور قط ولما رأيت جنديكم بالامس تفرست بالاعلام فلم أرَ الراية المزدوجة الا في هذا المساء ولكنني لم استطع الخروج الا الساعة بحيلة شيطانية وقد اظلم الليل فتهت عنها ولما قبض الخفر علي طلبت اليهم ان يحملوني اليك كما ترى » قال « اهلاً وسهلاً . فجهان لا تزال في قصر فاطس »

قال « نعم وهيلانة معها وهما في خير لا بأس بهما ولكن الرجل شديد الحرص عليهما ولا تغضب فانك ظافر بما تريد عن قريب »

قال « وكيف ذلك . . . اني ارى الاسوار منيعة وسيطول الحصار علي ما اظن »

قال « ساجله قصيراً باذن الله » قال « هل تعرف مدخلاً سهلاً ؟ »

فضحك وقال « نعم اعرف مدخلاً يسهل الفتح هل اقصه عليك الآن ؟ »
 قال « اني ذاهب في صباح الغد لمقابلة الخليفة في خلوة وسأخبره بما عندك من اخبار
 العدو ونجعل ذلك ذريعة لرضائه عنك فيغفرك ما مضى » قال « حسناً . »
 فقال ضرغام « اظنك في حاجة الى الرقاد . . هذا فراش نم عليه وانا انام هنا ونذهب
 في الصباح معاً . »

وفي صباح اليوم التالي ذهبا حتى اتيا فسطاط المعتصم فاستأذن ضرغام عليه فدخل
 واستبقي حماداً خارجاً فرحب به الخليفة وقربه ولحظ ضرغام في وجه المعتصم تغيراً فتهيب
 وسكت فقال المعتصم « اتدري لماذا دعوتك يا صاحب ؟ »

قال « ليس لي علم الغيب يا مولاي »
 فتمهد المعتصم وقال « قد كنت وانا في سامراً استانس بالقاضي احمد واطلمه على
 سرّي اما الآن فاراني في حاجة الى مشاورتك بعد ان خبرت صدق نيتك »
 قال « اني عبد مخاص لمولاي »

قال « انذكر اني شكوت اليك ارتياي بالافشين ؟ » قال « نعم يا سيدي »
 قال « كنت استعظم ما لاحظته من طمعه بما لي ولكنني اصبحت الآن لا اعد طمعه شيئاً
 مذكوراً في جانب ما اراه في هذه المعسكر من فساد النيات . . هل عرفت شيئاً عن ذلك »
 قال « لم افهم مراد مولاي » وقد فهمه لكنه تجاهل
 قال « بلغني ان بعضهم طامع بجميائي بما مروا على نقل البيعة الى العباس بن اخي »
 قال ذلك وعيناه تقدران شرراً من الغيظ

فراى ضرغام من الحكمة ان يتجاهل ويخفف عنه فقال « لا اعرف شيئاً من ذلك
 وان كنت لا استبعده لان الخلافة ما برحت من عهد الراشدين مطمح انظار الطامعين
 وهب ان بعضهم يحدث نفسه بذلك فكن على يقين انهم مخذلون وانما نحن في حاجة الى
 الاتحاد لنتمكن من اعدائنا المحدثين بنا فهل انبيء مولاي بما يذهب عنه الغضب »
 فانبسظت امرة المعتصم وقال « ما وراءك ؟ »

قال « اتيت امير المؤمنين برجل خرج الينا في مساء الامس من عمورية وهو يعرف
 مداخلها ومخارجها . . . هل ادخله على مولاي » قال « يدخل »
 فنهض ضرغام و اشار الى حماد فدخل ووقف متادباً والى التحية فلما شاهده الخليفة
 عرفه فانقبض لرويته ولكنه اشار اليه بالجلوس فجلس جاثياً فنظر المعتصم الى ضرغام وقال

« كاني أرى حماداً العربي بين يدي »

قال « نعم هو عبد امير المؤمنين وقد يكون له خطيئة عنده لكنها ستغفر باذن الله »

قال « ما الذي جاءنا به ؟ »

فقال حماد « قضي عليّ ان ادخل هذه المدينة منذ بضعة اسابيع فعرفت حصونها ومعاقلمها ولما رأيت جند امير المؤمنين بالامس بذلت جهدي بالفرار حتى اتيت »

قال « ما الذي تخدم به الاسلام »

قال « ادل امير المؤمنين على عورات البلد فيهنون عليه الفتح . . . ان لهذه المدينة سوراً منيعاً كما ترى لكن قسماً منه وقع من سيل اتاه فكاتب الملك الى عاملها ليعمره من عهد قريش فتواني فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل ان يأتي عمورية ويرى السور خراباً فبنى وجهه حجراً وعمل الشرف على جسر من خشب واذا شاء مولاي دلته عليه من هنا »

فنهض الخليفة وقال « ارضيه »

فدله عليه من بعيد فلما رآه اثني عليه وقال « اذا صدقت في ما تقول فلك الجزاء الحسن »

فقال ضرغام « انا اضمن صدقه يا سيدي فهل يا امير المؤمنين بتعجيل الجزاء »

قال « نعجله اكراماً لك وما جزاؤه »

قال « انه لا يطلب مالاً وانما تاذن له بيجاربتك يا قوتة بتزوجها »

فقال « يا قوتة زوجتك ؟ »

فوجم ضرغام ثم قال « نعم يا قوتة التي امر امير المؤمنين ان تزوجها وانا استغفره عن جسارتي فاني لم اطعمه لعلمي انها مخطوبة لصدوقي هذا فحفظتها عندي امانة له فاذا شاء امير المؤمنين ان يغمرنا بنعمه عفا عنا واذن ان تكون يا قوتة زوجة لحماد بعد رجوعنا من هذه الحرب ظافرين باذن الله »

فاجب الخليفة باريحية ضرغام وكرم اخلاقه وابتسم له وقال « قد عفونا عنكما واحب ان يكون حماد معك من خاصتي وساغدى عليه النعم »

فانحنى كلاهما وشكرا له — فقال لهم بنا الى العمل وامر ان ينقل فسطاطه امام السور المتخرب ونصب المجانيق عليه فتخرب فجعل الروم خشباً كباراً كل عود بجانب الآخر فكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه البرازخ فلما الحت المجانيق على ذلك الموضع تصدع السور والح المعتصم بالحصار وكان حول السور خندق عميق لا يمكن تجاوزه ولولاه لاخذت المدينة حالاً . فاشار ضرغام على الخليفة ان يطعمه بجلود الغنم المملوءة تراباً ففعل وعمل دبابات كبيرة

تسع الواحدة عشرة رجال ليدحرجوها على الجلود الى السور فدحرجوا واحدة منها فلما صارت في نصف الخندق تعلقت بملك الجلود فماتت من فيها الا بعد جهد وعمل سلام ومنجنيقات وكان ضرغام يبلح على الخليفة ان يأذن للجند بالهجوم يريد سرعة الوصول الى جهان والخليفة ضنين به فلم يأذن له ولكنه امر بالحرب فكان اول من هجم اشناس باصحابه وكان المحل ضيقاً فلم يمكنهم من الحرب فيه . فامدهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها الى بعض فوق الثلثة . وفي اليوم الثاني امر المعتصم ان يهجم الافشين واصحابه واجادوا الحرب . وفي اليوم الثالث هجم هو ورجاله وفيهم المغاربة والاثراك وهجم ضرغام وعمل اعمالاً تعجز عنها الابطال ووردان الى جانبه وكان قد علم بامر حماد . وجعل ضرغام وجهته قصر البطريق وظلت الواقعة الى الليل واحتدم سعيها وكان البطارقة قد اقتسموا ابراج السور فاختصموا وجاء بعضهم في الصباح والقوا سلاحهم نكاية بالآخرين وساروا امامهم الى المدينة ففشل الروم ودخلها المسلمون دخول الفاتحين وامنعوا فيها نهباً وقتلاً وسبياً اما ضرغام فلم يكن همه الا قصر البطريق يطلب حبيبته ومعه وردان في مثل طلبه ومعهما حماد ولم يستطع الوصول الى القصر الا بعد التعب الجزيل لشدة ازدحام الاسواق بمن دخلها من المسلمين للنهب والسبي ولما وصلوا القصر وجدوا ابوابه مفتحة ولم يبق فيه شيء من المال او النساء فطافوا غرفه يبحثون فيها فلم يقفوا لجهان ولا هيلانة على خبر فارتاب ضرغام بقول حماد وادرك هذا ارتياحه فاقسم له على صدق قوله وقال « يظهر ان بعض الجند دخلوا القصر ونهبوه واخذوا اهله »

فوقف ضرغام ووردان وقد اسقط في ايديهما فقال وردان « لتبحث عنهما بين السبابا بعد الفراغ من المعركة »

الفصل الثاني والستون

جهان

فاقضى ذلك اليوم ولم يفرغ المسلمون من الحرب . وفي صباح اليوم التالي امر الخليفة ان تجمع الغنائم فجمعت في ساحة وامر ببيعها . فاخذوا ينادون عليها بالمزايدة فلا ينادون على السبي الواحد اكثر من ثلاثة اصوات التماساً للسرعة فكانوا ينادون على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرتة والمعتصم يطلب السرعة وامر بالمدينة فهدموها واحرقوها

اما وردان فانه طاف بين السبايا في اثناء البيع في عدة اما كن فلم يقف لامراته ولا
 لجهان على خبر فانقبضت نفسه وعزم على الرجوع الى ضرغام ليتداولا في الامر . وهو راجع
 مرة بمسكر الافشين فرأى فرس جهان الادم في جملة الغنائم وتحقق ذلك لانه رأى سامان
 واقفا الى جانبه فارتعدت فرائضه من الغضب . - وكان لا يستطيع ان ينظر الى سامان
 الا اقشعر بدنه وحدثته نفسه ان يفك به ولكنه امسك اكراما لضرغام لعلمه انه لا يريد ذلك
 على انه لما شاهد فرس جهان كاد يطير من الفرح فامرع الى ضرغام واخبره بما رأى فاتى
 ضرغام فرأى الفرس وحده لان سامان كان قد ذهب ونظر الى وجه الفرس فرأى صورة
 الاسد في جبهته فتأكد انه فرس جهان فغلب على اعتقاده ان جهان وهيلانة دخلتا في
 جملة السبي الذي اخذه الافشين وهم ان يدخل على الافشين حالا ليطلب منه جهان
 وهيلانة ثم تراجع خوفاً من ان يسمع ما يفضبه فيعمل عملاً يعود بفساد امر الجند وهو
 حريص على جمع كتبه فوقف حيناً وهو يتردد بين ان يدخل على الافشين او لا . واخيراً
 غلب على رأيه ان لا يفعل وان بوسط الخليفة ولا ريب عنده انه ينصفه

فرجع وذهب توجاً الى المعتصم فوجده في دار العامة وقد تقاطر القواد والخاصة لتمنيته
 بالنصر وهو فرح مستبشر فصبر نفسه حتى خلا المجلس فذهب في ذلك الانتظار معظم
 النهار فاستأذن بخلوة مع الخليفة فأذن له ورحب به واجلسه قريباً منه وهش له ولطفه
 فدعا ضرغام له وهناه . ولحظ الخليفة انقباضاً في وجهه فقال « ارى صاحب غضباً »

قال « لا يفضب العبد بين يدي مولاه ولكنني قلق »

قال « وما الذي اقلقك باصاحبي ؟ » قال « اقلقني ان الافشين تعدى علي »

قال « بماذا . . وعهدي بك انك حكيم لا تدع مجالاً لمثل ذلك »

قال « ليس الخلاف على منصب او مغنم ولكن كان لي خطيبة في عمورية وقعت سبية

عند الافشين وهو يعلم انها لي فاخذها لنفسه »

فاسنغرب المعتصم قوله وكيف يكون له خطيبة في عمورية فقال « زدني ايضاحاً »

فتنهده ضرغام وقال « يذكر مولاي زاده الله نصرأ انه اكرمني ونحن في سامراً يياقوتة

وامرني ان اتزوجها فخالفت امره لسبب ذكرته له بالامس وثلث عفوه ولم يسألني امير

المؤمنين عن سبب مخالفتي . والسبب اني كنت مقيد القلب بفتاة اخرى من فرغانة قد

خطبتها وتعاهدنا على الزواج يوم سرت الى فرغانة بشأن الجوارى . وتوفي والدها في اثناء ذلك

واتاني امر الخليفة ابده الله ان ارجع سريعاً فرجعت الى سامراً واجملت الاقتران . وحدث

في اثناء غيابي حوادث كثيرة يطول بي شرحها آلت الى خطف هذه الفتاة حتى وصلت الى هذه المدينة وكانت سجينة في قصر ناطس صاحب عمورية . فلما فتحت المدينة طلبتها في القصر فلم اجدها وبعد البحث علمت انها عند الافشين وحدثني نفسي ان ادخل عليه واطالبه بها فحفت ان يغضبني فنختمتصم ونفترق كلمة الجند ونحن احوج الى الاتحاد . فرجعت الى مولاي بما يراه »

فاطرق المعتصم لحظة ثم قال « ذلك امر هين ولا اظن الافشين يري بأسا برد خطيبتك اليك والسبايا عنده كثيرات وقد بيعت الواحدة منهن بدرام معدودة » وصفق فجاء احد العلمان فامر ان يستقدم الافشين

وبعد قليل جاء الافشين فدخل وسلم فلما رأى ضرغام هناك علم سبب دعونه لكنه تجاهل وسكت فقال له الخليفة « دعوتك لامريهم الصاحب وانت تعلم منزله عندي » فابتسم الافشين وقال « ان الصاحب عزيز علي وهو لا يجهل ذلك » قال المعتصم « اخبرني ان بين السبايا اللواتي وقعن في حوزتك فتاة يطالبها منك » قال « السبايا كثيرات وقد بعن باثمان بنجسة وعندي منهن عشرات فاذا ظلب خمسا اعطيته عشرا »

فادرك ضرغام تمويهه فقال « انما اعني سبية معينة انت تعرفها » قال « ايها ؟ » قال « اعني جهان بنت المرزبان » فاطهر الاستغراب وقال « وهل هي بين السبايا ؟ » قال « اظنها بينهن ومعها امرأة رومية اسمها هيلانة » فالتفت الى الخليفة وقال « اذا كانت جهان بين السبايا فاستعفي امير المؤمنين من اعطائها » فقال المعتصم « ولكن الصاحب يقول انها خطيبته وهو صادق » قال « نعم ولكن هذه الفتاة بمنزلة ابنتي وانا وصي عليها بوصاية بخط ابها ولا اظن الصاحب يتكر ذلك . . »

فالتفت المعتصم الى ضرغام فراه قد تغيرت سمخته وبان الغضب في وجهه ولما شعر ضرغام ان الخليفة يتفرس فيه التفت اليه فانس في عينيه معنى اذركه . فامسك نفسه عن الغضب وقال « سمعت بالوصية التي كتبت له ولكن خطبتنا حدثت قبل كتابتها » قال الافشين « لو صح ذلك لذكرها صاحب الوصية في وصيته وهو لم يفعل . فاننا اعدنا الفتاة غير مخطوبة ولا يجوز ان تخطبها الا بامري حسب وصية والدها » قال ذلك والتفت الى المعتصم كأنه يطلب مشاركته بهذا الحكم . فوقع الخليفة في حيرة لانه يجب ان ينال

ضرغام غرضه ولا يريد ان يحدث شقاق في الجيش فقال « هب ان والد الفتاة لم يكن عالماً بتلك الخطبة او لم يعترف بها وانت ولي الفتاة فنحن نخطبها منك »
 فافحم الافشين وظهر الانقباض في وجهه وتحير في الجواب بين ان يغضب الخليفة او تذهب جهان من يده فاطرق لحظة وضرغام ينظر اليه وقد امسك نفسه بشوقاً لسماع ما يقوله الافشين فاذا به يجيب ببرود وسكينة « ان امر مولاي نافذ لامرده له ولكن ذلك يكون بعد رجوعنا الى سامراً ان شاء الله »

فالتفت المعتصم الى ضرغام ولسان حاله يقول « هذا هو الرأي الصواب »
 فعلم ضرغام ان الافشين يماطله وينوي غير ما يقول فلم يملك غضبه فقال « اذا كان الافشين رضي طلب امير المؤمنين فليعقد الخطبة هنا ونحن حيثما كنا فاننا في ظله »
 فابتسم الافشين واظهر التلطف والاذعان وقال « اذا امر امير المؤمنين فلا مانع لدي ولكن لا ادري اين السبايا الآن واظنهن خملن الى سامراً »

فاستبشر ضرغام بنيل المرام لاعنقاده ان جهان في ذلك المعسكر وقد رأى فرسها فقال « اذا لم تكن الفتاة هنا اجلنا الخطبة الى سامراً فليأمر امير المؤمنين باستقدامها »
 فنادى الغلام وامره ان يذهب الى معسكر الافشين بطلب من وكيله ان يرسل اليه البعثة السبية جهات . فاستمته ضرغام وقال « او يقول له جلنار فانه الاسم المعروفة به في هذه الديار »

خرج الغلام ومكث ضرغام كأنه على النار وقد هاجت اشجانه وخفق قلبه تطامعاً لروية حبيبته بعد ذلك البعاد الطويل وتصوّر كم تكون دهشتها لما يقع نظرها عليه بغير انتظار وهي تحسبه في عالم الاموات - قضى في ذلك دقائق حسبها ساعات حتي عاد الرسول وهو يقول « ان السبايا ارسلن الى سامراً في هذا الصباح »

فوقع ذلك الجواب ووقع الصاعقة على رأس ضرغام ولم يسهه غير السكوت والصبر فظهر الرضى وسكت وقد عزم في باطن سره انه حالما يخرج من فسطاط الخليفة يكلف وردان بتدقيق البحث عن جهان فاذا كانت لا تزال في المعسكر اخذها عنوة

فحالما اذن المعتصم بانصرافهما ذهب ضرغام توجاً الى فسطاطه لمشاهدة وردان فلم يجده فسأل بعض العبيد عنه فقالوا انهم لم يروه من الصباح ولا يعرفون مكانه . فخرج للبحث في فسطاطه فلم يجده ولا وجد حماداً وكان يتوقع ان يراها معاً فتولاه القلق عليهما وهو في اشد الحاجة الي وردان . فخرج بنفسه لتفقد فرس جهان حيثما شاهده في الصباح فلم يجده

فترجح له ان الافشين صادق بقوله وهو يعلم انه لا يجراً على الكذب الصريح بين يدي
الخليفة فرجع الى فسطاطه وكظم ما في نفسه

الفصل الثالث والستون

الظفر

والواقع ان الافشين أمر باخراج السبايا من المعسكر من صباح ذلك اليوم -- اشار عليه
بذلك سامان وهو الذي دله على مقر جهان في قصر البطريق وحرضه على سبها . وكان
يتبع خطاها منذ كانت في البذ وعرف بخروجها لمخبرة الروم ونزولها عمورية وكان يفعل
ذلك التماساً لما وعده به الافشين من الوصية . فلما فتحت عمورية ذهب هو بنفسه الى اخته
واظهر انه جاء ليجدتها وان الافشين جرد هذه الحملة في سبيل انقاذها واخذ يهون عليها
القبول به وهي لا تجيبه فحملها رجال الافشين الى معسكره على فرسها قبل وصول ضرغام
الى القصر ومعها هيلانة وكانت تعزية كبيرة لها وقد تحابشا وتآلفتا وكل منهما تحسب نفسها
متروكة لا نصير لها . فلما صارنا في معسكر الافشين شق على جهان ذلك الاسر وحدثتها
نفسها ان تطالب مقابلة المعتصم وتستجير به من الافشين فاتاها اخوها وحبب اليها السكوت
وقال لها انه سيأخذها الى سامراً فتكون هناك كما تشاء . فلما سمعت ذكر سامراً تذكرت
ضرغاماً وفي نفسها بقية امل بوجوده او سماع حقيقة حاله من والدته اذا كانت لا تزال في
قيد الحياة فوافقتته واشترطت ان تكون هيلانة معها فقبل . وكان هم سامان ان يفر بجهان
قبل ان يعلم ضرغام بوجودها فلما رأى وردان في الصباح يبحث عنها اسرع الى الافشين
واشار عليه ان يأمر بارسالها حالاً فقال له الافشين « الى اين . . الى سامراً ؟ »

فاصطنع ضحكة ليس فيها من ظواهر الضحك غير التكشير عن الثنايا وتكمش عضلات
الوجه ونظر الى الافشين بنظر الاحول وقال « الى سامراً ؟ وهل انا مجنون لافعل ذلك ؟ »
قال « بورك فيك . سر بها رأساً الى اشروسنة واحتفظ بها جيداً وسأوافيك الى هناك »
فامر ضرغام سامان واعد الاحمال واخذ حامية تحفرهم في الطريق واقلع بهم خلسة . ولما جاء
غلام الخليفة يطلب جهان كان قد مضى على خروجهم عدة ساعات وهم على ظهور الخيل
اما ضرغام فاصبح لا يدري ما يفعل وقد ادشسه غياب وردان وحماد وخاف ان يكونا
قد اصيبا بسوء وظن الافشين الحق بهما اذية

بقي الجند في عمورية عدة ايام قضا خمسة منها في بيع الغنائم والاسرى رغم السرعة التي توخوها لكثرة الغنائم فرج تجار اليهود من ذلك ريجاً عظيماً . وقضوا اياماً اخرى في هدم المدينة واحراقها وقتلوا من اهلها جمعاً كبيراً وسلم ناطس سيفه ولما فرغ المسلمون من الفتح امر المعتصم بالرجوع الى سامراً وضرغام لا يزداد في اثناء ذلك الا قلقاً ولكنه رجع مع الراجعين وهو يرجوان يرى في سامراً شيئاً جديداً . وانفق له وهو راكب في اثناء الرجوع انه رأى في عرض الافق فرساناً لم يقع نظره على خيولهم حتى اختلج قلبه في صدره لانه رأى بينها فرساً عرف من مشيته انه فرس وردان فهمز جواده ملاقاته ذلك الركب ولما اقترب منهم عرف اثنين هما وردان وحماد فصاح « وردان » قال « لبيك بامولاي » وفي غنة صوته دلالة السرور والظفر فقال وهما قد حولا الاعنة ومشياً مع الحملة « اين كنتما لقد شغلت بالي عليكما ؟ » قال وردان « كنا في سامراً » قال « ولماذا ؟ » قال وهو يضحك « اوصلنا العروسين اليها ورجعنا » فبغت ضرغام وقال « اي عروسين » قال « جهان وهيالنة . . » قال « وكيف ذلك ؟ قل . . قل حالاً » قال « رأيتك كثير المراعاة لخاطر الافشين لا تخاطبه الاعلى يد الخليفة ورأيتك يخادعك وبيغي الفرار بهما الى حيث لا نعلم وما صدقنا اننا عرفنا مقرها والعمر لا يكفي للتفتيش مرة ثانية عنها . فخطر لي ان اعمد الى القوة ولو شاورتك لما رضيت واظنك كنت تقول لي الافضل ان نبعد عن اسباب الشقاق . وعلمت سرّاً ان الافشين يحاول الفرار بهما وقد أمر سامان بذلك فتواطأت انا وحماد ان نأخذهما بالقوة ونأخذهم معهما وقد فعلنا واوصلنا العروسين الى بيت الصاحب في سامراً وزججنا سامان في السجن ريثما نرجع » ففرح ضرغام ولكنه قال « ألم يكن الاولى ان نبقي على عهد الافشين فقد وعدني بين يدي الخليفة ان يعقد لي علي جهان حالما نرجع الى سامراً » قال « وهل صدقت انه كان ينوي ارسالها الى هناك ؟ . وهب انه كان صادقاً فاننا لم استطع صبراً على هذه المماطلة وقد فعلت ذلك ولم اشاورك او اخبرك حتى لا اشركك في الذنب فاذا طالبني الافشين بذنبي اجيب عن نفسي » فالتفت الى حماد وقال « وانت ايها الصديق ارجو ان تكون قد شاهدت ياقوثة وسررت بها . . ولكن لماذا رجعت »

قال « وكيف لا ارجع لمرافقتك واتمام خدمتي لك »
 وكانت الجملة سائرة فرقا وضرغام في فرقة المعتصم ليكون قريباً منه . ولما امسى المساء
 حطت الاحمال ونزل الناس للراحة والرقاد . وقص وردان على ضرغام في تلك الليلة
 مؤامرات جديدة ومكائد نصبها القوم على المعتصم من قبيل ما تقدم وانه اذا لم يعلن الخليفة
 حالاً تذهب حياته . واكبر ضرغام ان يكون هو المبلغ وخصوصاً لان الحارث صاحب التهمة
 الكبرى خصمه او منافسه فتباحث في ذلك مع حماد فقال حماد « انا انقل الخبر الى الخليفة
 انما اطاب اليك ان تدخاني عليه في خلوة »

قال « قم بنا الآن » وكان الوقت عشاءً فلما وصلا الى فسطاط الخليفة استأذن ضرغام
 بخلوة فاذن له فدخل ومعه حماد فقال الخليفة « ما وراءك يا صاحب »

قال « عند صديقي حماد عبد امير المؤمنين مخبات هامة اذا اذن له تكلم »

قال « قل واحذر الانحراف عن الصواب »

فقص عليه نواطوء القواد على قتله ومبايعة العباس وسمى المتواطئين وفي جملتهم الشاه بن اسماعيل
 الخراساني والحارث السمرقندي وعجيف بن عنبسة وغيرهم فاهتم المعتصم بالامر واستقدم المتهمين
 واستنطقهم فاعترفوا بقتلهم على اساليب مختلفة لا محل لذكرها . واحتفظ بالعباس حتى وصلوا
 سامراً فسماه اللعين واخذ اولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا ^(١) . وعد المعتصم هذه
 الخدمة جميلاً لضرغام وحماد معاً وانعم عليهما

اما الافشين فجاءه الخبر من بعض رجاله بما فعله وردان وحماد فصبر نفسه حتى يصل
 سامراً فيشكيهما ويشكي ضرغاماً

ولما دنت الحملة من سامراً اخذ قلب ضرغام بالخفقان لحوال الملتقى بعد ذلك الغياب
 الطويل . اما جهان لما خطفها وردان وحماد عادت اليها آمالها . وكانت لما رأتهما هاجمين
 بمن معهما من الرجال لاخططافها استعاذت بالله من توالي الاحن عليها وارادت الدفاع ثم
 سمعت صوت وردان وسمعتة ايضاً هيلانة زوجته فانحازتا اليه ولا نسل عن حال هيلانة
 لما سمعت صوت زوجها وهي تجسبه بين الاموات فترامت عليه فرحب بها واستمهلها حتى
 يتم مهمته . فامر الذين معه بالقبض على سامان قبل ان يفر فقبضوا عليه واوثقوه وثاقاً متيناً
 ونقدم وردان الى جهان بكل احترام فلما رآته قالت « وردان . . »

قال « نعم ياسيدي بشري بالسلامة واللقاء »

فلم نتالك عن ان صاحبت « اللقاء . . . ضرغام . . . ضرغام . . . اين هو ؟ »
قال « هو في سلامة وخير وسياتي بعد ايام وانا ذاهب بك الى منزله في سامرا تمكثين
مع والدته ريثما يعود »

فظننت نفسها في حلم وتفردت ثانية في وردان وقالت « وردان ؟ . . . ضرغام حي ؟ »
وتذكرت ان سامان اول من انبأها بموته فالتفتت اليه وقد شد الى ظهر الفرس وهو ينظر
اليها نظر الذليل لانه سمع ما دار بينها وبين وردان فلم تقل شيئاً . وراة صديقتها هيلانة
معلقة بثوب وردان وتكاد تشرق بعينيها فقالت لها « هل تعرفين وردان قبل الان ؟ »

فصاحت هيلانة من الفرح قائلة « هو زوجي يا مولاتي . . . »

قالت « زوجك البطريق الذي قصصت علي خبره ؟ »

قالت « نعم هو هو . . . الحمد لله على لقائه . . . واهنئك علي بلوغك الى حبيبتك »
وكان حماد واقفاً وقوف الدهشة وقد اضاف الى هذه الصدفة بقاء ياقوتة حية حتى
يرجع اليها فرادت دهشة

وسألت جهان عن محل ضرغام فاخبرها وردان انه في عمورية وانه ذاهب بها الى
سامرا تبقى فيها حتى يعود قريباً فاطاعته ومشوا نحو سامرا وكل فرح بما عنده . وقضوا مسافة
الطريق يقصون مامراً بهم من الغرائب . وقص وردان على جهان ما حظي به ضرغام عند
الاعتصم وكيف سماه الصاحب واسباب ذلك واخبرها خبر حماد وخطيبته ياقوتة ومقدار ما
بينهما من المشابهة العجيبة فاستغربت ذلك كله وصورة ضرغام غالبية على جوارحها جميعاً
ولما وصلوا الى سامرا بعث وردان بسامان الى صاحب السجن واخبره ان الصاحب يأمر
بسجن هذا الجاسوس فاطاع . وبعث وردان الى آفتاب بقدم جهان وكان لذلك اللقاء
دهشة يندر مثالها وآفتاب لم تشبع من لمس جهان وضمها وتقبيلها . اما ياقوتة فكان فرحها
بحماد عظيماً ولم يكن فخائفاً عليها لانها كانت عالمة ببقائه حياً ولكنها دهشت لما لقيت جهان
فتوهمت انها ترى نفسها بمرآة لشدة المشابهة بينهما . ولم تكن جهان اقل دهشة منها فبعد
ان سلمت عليها اخذت تنفوس في وجهها وكلما زادت تفردت زادت استغراباً فلما فرغ وردان
من تلك المهمة عزم على الرجوع الى عمورية فرجع حماد معه كما تقدم

ومكث اهل الجوسق على مثل الجمر في انتظار ضرغام وكانت والدته شديدة الالهة لجيئه
تشتهي شمه وضمه . ولكن شعورها يختلف عن شعور جهان حبيبته . ولا سيما بعد ان
قاست ما قاسته قبل اجتماعها به . والعذاب في سبيل الحب الصادق كالنار للذهب لا تزیده
الا صفاءً ورونقاً

الفصل الرابع والستون

اللقاء

قضت جهنم بضعة عشر يوماً في سامراً قبل وصول ضرغام وتمتعت بأشياء أكثرها جديد عندها وكانت موضع إعجاب كل من عرفها ولكنها كانت تعد حياتها ناقصة او اذا شئت قل نافذة ولولا التعلل باللقاء لكانت حجيماً . فكانت تعلق نفسها بقرب مجيئه ولا تزال صورته في ذهنها كما شاهدته المرة الاخيرة لما ودعها في قصر ابيها وعليه ثياب السفر اذ وقفت له بالباب حتى توارى

فلما جاءت البشائر برجوع المعتصم وجنده ظافراً زينت سامرة واصطفت المواكب والجنود ورفعت الاعلام وضربت الطبول وضجت المدينة فرحاً وخرج النساء والرجال للفرجة واشتغل الناس بهذا الاحتفال عن كل شيء الا جهنم فانها لم تكن تسمع صوتاً ولا ترى شيئاً وانما كانت عينها شائتمين نحو باب الجوسق لعلها تشاهد ضرغام داخل في موكب الخليفة فلما دخل الخليفة لم تر احدًا

وهي في تلك الالهفة سمعت سعالاً في الدار ارتعدت له فرائصها لانه سعال ضرغام فارادت ان تتحول لملاقاه فلم تساعدتها قدماها من الارتعاش واحمر وجهها ثم علاه الاصفرار ولكنها تشددت وتمالكت وتذكرت رباطة جأشها ومشيت . وكان ضرغام قد دخل الغرفة فرأى جهنم تمشي مشية الجلال والوقار وعيناها تتكلمان كأنهما خطيب على منبر يدعو الناس الى التمسك او يحرضهم على التفاني في الحب . فلم يتمالك عن الانحناء للسلام وهو يود ان يجعل سلامه معانقة لولا العادة التي تحول دون ذلك . ثم وقف ومد يده اليها فمدت يدها وابتسما ابتسامة اغنت عن حديث طويل ثم قال « مرحباً بعروس فرغانة . . . لقد اطلت علينا الغميب وطال بنا طريقك وطريق المحبين تصير على ما يقولون » فضحكت وقالت « طال الطريق لوعورته وكثرة عقباته . . . ولكن ماء السكر كلما زده غلياناً زادك حلاوة »

قال « لكن خشيت ان يجف ماؤه فيحترق »

قالت « اوشك ان يحترق لولم اربطه بدموعي . . » قالت ذلك وابتعدت عيناها وتلاأت فيهما دمعتان ونظرت اليه نظرة وقعت كالسهم في قلبه فقال لها وقد اخذ الهيام

منه مأخذاً عظيماً « بمثل هذه الدموع كنت تتقين الاحتراق ؟ »
 قالت « نعم ولكن شتان بين دموع الحزن ودموع الفرح واشكر الله على كل حال »
 وكانت يدها لا تزال بيده فضغط عليهما وقادها الى مقعد هناك وهو يتفرس في عينيها
 ويقول « اراك تشكرين الله وعهدي انك تشكرين اوروزد فتى حدث هذا الابدال »
 فقالت « وهي تمشي معي حتى جلسا متحاذيين وقد نسيا الوجود » حدث يوم تبدلت
 حالي وشغل فؤادي فاصبحت لا املك شعوري ولا ارى هذا الوجود الا كما يشاء ضرغام .
 ولا آسف الا على مدة غلب فيها اليأس على قلبي - يوم بعثت اخي وغير اخي للبحث عن
 ضرغام في سامرا فعادوا واكدوا انه لا يوجد فيها وزاد بعضهم انه لا يوجد في الارض .
 تباً لتلك الساعة كم أحدثت وكم غيرت . . ولكنني نسيت كل ذلك الآن ولا اعلم الا اني
 اسعد خلق الله بل اراني اسعد اليوم مما كنت بقربك في فرغانة . . كنت يومئذ سعيدة عن
 جهل لاني لم اجر ب الشقاء وكنت انلذ بقربك مندفعة بتيار الحب وانا لا اعرف قدر اللقاء
 واما اليوم فقد عرفت ان السعادة يزيد مقدارها كلما زاد الشقاء في سبيل الحصول عليها .
 لو عرفت ذلك يوم اجتماعنا في فرغانة لفضلت ان اجاهد في سبيل حبك قبل الحصول على
 قربك » قالت ذلك وقد غلب عليها الهيام ونسيت رباطة جأشها وكبر نفسها وهو ينظر اليها
 وقد شغل بمعاني وجهها وسحر عينيها عن تفهم كلامها ففرغت من حديثها وهو لا يزال يرنو
 اليها كأنها لا تزال تخاطبه

ثم اتبه لنفسه وخجل من غفلته عن الموضوع ونسي ما كانا فيه فقال « كم احب ان
 اسمع ما قاسيته في اثناء هذه الغيبة وقد سمعت بعضه ولكنني التذ ان اسمعه من فيك . ولا
 ريب عندي انك تجيبين الاطلاع على خبري والحديثان طويلان سنبتادلها في فرصة
 اخرى . ولو بقيت بجانبك الدهر كله لا ارتوي من النظر اليك يا جنتي وحياتي . صدقت ان
 الحب تزداد لذته كلما زاد التعب في سبيله ولم اكن احسب حينما يقبل الزيادة وحاشا ان
 يقبلها ولكنه يزداد بالتعب حلاوة وصفاء »

فوقفت وهي تقول « صدقت ان تلذذنا باللقاء لانهاية له فينبغي ان ننظر الى الآخرين . .
 هل رأيت والدتك ؟ » قال « لم ارها بعد وسارها »

قال « هنيئاً لك على هذه الولاية الحنونية فيجب ان تقبل يديهاصبح مساء وهي الآن تشتاق
 الى لمسك وشمك » فوقف ضرغام واطاع جهان وخرجا الى الدار وفيها والدته فشعرت
 بخروجهما فنحفرت وبسظت يديها لمعانقة ابنيها فترامى عليهما وقبل يدها واعلى صدرها فاضمته

وقبلته وشمت عنقه ثم قالت « اهنتك بعروسك بل اهنيء نفسي بهذا اللقاء »
وتقدمت جهان فقبلت يد آفتاب واثنت على لطفها والتفتت الى باقوتة وكانت قد
وقفت لاستقبالها وخاطبت ضرغاماً قائلة « الم تكن تستأنس بروية باقوتة في اثناء غيابي »
قال « ربما استأنست حيناً وغصصت برريقي احياناً ولكن هذه المشابهة هي التي دلني
عليك وساقص الخبر في وقت آخر »

فضوا في امثال هذه الاحاديث ساعات وقد اعدت الاطعمة فتناولوا ما شاؤوا ثم قالت
آفتاب « قد آن يا ضرغام ان تكتب الكتاب »
فقال « صدقت يا اماء وغدا افعل ان شاء الله »

الفصل الخامس والستون

محاكمة الافشين

وهم في ذلك جاء احد غلمان القصر يدعو ضرغاماً لمقابلة الخليفة فلبس قفلسوته وسواده
وخرج حتى اذا دنا من دار العامة رأى بالباب جماعة من الغلمان الاشروسنية فعلم ان
الافشين هناك فدخل فرأى الخليفة جالساً على سريره في صدر الايوان والافشين على كرسي
بين يديه ورأى بجانب القاعة وردان وحماداً واقفين فسلم فاشار اليه المعتصم ان يجلس
فتباطأ وقال « بأذن لي امير المؤمنين بكلمة قبل ان اجلس » قال « قل »

قال وهو يشير الى وردان « اقدم لامير المؤمنين البطريق وردان احد كبار بطارقة
ارمينيا وقد ابلى في خدمة جيشنا بلاءاً حسناً في البذ وعمورية »
فاستغرب المعتصم والافشين هذا التعريف وقال الخليفة « اليس هو خادمك وردان »
قال « كنت اظنه خادمي وانا لا اعرف اصله فلما بلوته علمت انه رجل شريف وقد
كانت له معي ايام بيضاء عادت بالنفع على جند المسلمين فاذا امر امير المؤمنين بجلوسه
فعل وهو صاحب الامر »

فقال « ولكنه واقف في موقف القضاء وقد دعوتك لتحضر المحاكمة وتؤدي الشهادة »
قال « افعل ذلك طوعاً لامير المؤمنين » وجلس واصفى
فقال المعتصم « يقول قائد جندنا الافشين ان وردان وحماداً تعديا على رجاله
واختطفا منهم امرأتين من سبيه بعد ان اجلنا النظر في ذلك لحين رجوعنا الى سامرا »

قال ضرغام « نعم قد فعلا ذلك واذا حكم امير المؤمنين انه ذنب فانا صاحب الذنب لانها فعلاه لاجلي وان لم يكن بامري وانا اتحمل تبعه عملها . وفي كل حال فان حماداً هذا (و اشار اليه) قد عرف امير المؤمنين خدمة وانعم عليه بالعفو وجاء سامراً لينال ما وعده به مولانا من النعم فلا يوخذ بجره سواه »

فحك المعتصم جبينه كانه يسترجع الى ذهنه شيئاً نسيه وقال « صدقت ان حماداً ذو فضل وسابقة وسنوليهِ ما هو اهل له فيخرج الآن اذا شاء »

فانحى حماد وسلم وخرج وبقي وردان وضرغام والافشين فقال الخليفة « فالآن قد قلت عن وردان ما هو اهله ولكن ذلك لا ينفي انه خالف امرأ اصدرناه بشأن السبيتين فقد قلنا ونحن في عمورية ان يترك امرها لحين رجوعنا الى سامراً فكان ينبغي ان يراعي هذا الامر . . . فليات بالسبيتين الآن الى هنا . . . »

فقال ضرغام « ان السبيتين هما خطيبي وزوجته (و اشار الى وردان) . اما خطيبي فقد سبق امر الخليفة ان تكون زوجة لي وهي في منزلي واما امرأة البطريق فهي عنده ايضاً ولا اظن الافشين يهمه امرها »

فقال الافشين وقد بدا الغضب في عينيه « يهمني أولاً ان يراعي امر امير المؤمنين في الاثنين . واما جهان التي تقول انها خطيبتك فلها شأن خاص لاني ولي امرها بوصية ابها » فعند ذلك تقدم وردان ووجه خطابه الى الخليفة واستأذن بالكلام وقال « هل ثبت لامير المؤمنين انه وصي »

فانتبه المعتصم لهذا الاعتراض والتفت الى الافشين وقال « اين هو كتاب الوصية »

فقال الافشين « هو عندي . . . وهل انا كاذب ؟ »

فقال المعتصم « لكن الشرع يقضي بالاطلاع على نصه قبل اصدار الحكم . . . وهل يهك كتابه ؟ »

فظهرت الحيرة في وجه الافشين فعمد الى المغالطة وظهر الغضب وقال « اذا كان الافشين الملك والقائد يكذب في مثل هذا الامر ويصدق هذا العليج فعلي الدنيا السلام » فقال وردان « اني لا انكر وصايته ولكنني اري ان يطالع امير المؤمنين علي نصها ليعرف من هو الافشين صاحب اشروسة »

فاستشاط الافشين غضباً وكأنه نسي موقفه فصاح « ان الافشين قائد جند المسلمين لا يخاطب بمثل هذا الكلام في حضرة امير المؤمنين . . . وهب ان الوصية ضاعت مني او

سرت او احترفت فهل يؤخذ ضياعها حجة علي فاعده كاذباً . والرجل يقول انه لا ينكر
الوصاية فما الفائدة من نصها »

فقال وردان « لا تغضب ايها القائد اننا في موقف القضاء يحضرة امير المؤمنين
والقضاء يطالب اليك ان تلتوا الوصاية بنصها »

فازداد الافشين غيظاً وقال « قد ضاعت الوصية ولا اذ كر نصها »

قال وردان « انا اذكره . . هل اتلو بعضها على مسامح امير المؤمنين »

قال المعتصم « اتل ما شئت »

فقال « يكفي امير المؤمنين ان الوصية مصدره باسم اورمزد مقبود المجوس بدل الله
تعالى وقد شهد فيها الموبذ كاهن المجوس بدل القاضي الشرعي . . اليس كذلك يا قائد
جند المسلمين »

فهاج غضب الافشين وادرك ان الرجل ينوي اذلاله وفضح امره وندم على ما فرط من
تعنته ولكنه تجلد وقال « واين هو وجه الطعن فيها ان الموصي مجوسي فكنتها على ما يقتضيه
دينه وعادات بلاده . . كأنك تريد بذلك اتهامي بالمجوسية . . انها لوقاحة كبرى »

فوجه وردان كلامه الي المعتصم وقال « هل يأذن امير المؤمنين ان اقول ما اعرفه »
قال « انك في موقف الدفاع عن نفسك قل ما بدالك »

فقال للافشين « لا اتهمك بالمجوسية تهمة ولكنني اقول انك مجوسي تسجد لا اورمزد
وتخضع للموبذ حتى الآن . واقول فوق ذلك انك تتظاهر بالدفاع عن الاسلام وانت انما تفعل
ذلك طمعاً بالمال . . . ولو استطعت سمى دولة المسلمين لسحقتمها وهذا بيت نار كاران شاه
في فرغانة شاهد على ذلك » . فلما قال وردان ذلك رأى الخليفة التهمة اوسع من ان يقضى
بها في تلك الجلسة فاحب تأجيلها فقال « ان هذه التهمة خارجة عن موضوع هذا المجلس
وانما نبحت الآن في اختطاف السبئيين »

فقال ضرغام « قلت لامير المؤمنين ان الذنب في ذلك لي انا لان احداها خطيبي وهي
في منزلي الان وقد اذن الافشين بزواجها على فرض صحة وصايتها »

فقطع الخليفة كلامه وقال « نحن لا نعترض على زواجك بها وانما نطالب وردان باختطافها »
فقال وردان « انما اختطفتها اعلمي ان مولانا الافشين امر بارسالها الى بلده اشروسنة
لتضاف الى خزائن الاموال التي يرسلها الى هناك كل سنة من اموال المسلمين ليستعين
بها على اسقاط دولتهم عند الحاجة . . »

فنظر المعتصم الى الافشين فرأى لحيمته ترقص في صدره ولوجس يده لراها باردة كالثلج فضلاً عن ارتعاشها فقال له « ان هذه التهم كبيرة ولا اراك دفعتها عنها » فقال الافشين « كلها مفتربات كاذبة وعند التحقيق يظهر كل شيء وغداً موعداً » فقال وردان « لا باس من التاجيل الى الغد او بعده ولكن من يضمن ان صاحب هذه التهم يبقى في سامرا الى الغد »

فقال المعتصم « يبقى محبوباً في الجوسق » وأشار الى صاحب حرسه ان ياخذ سلاحه وسواده ويحبسه ويتولى حراسته . فنهض الافشين وقد اسقط في يده ولكنه ما زال يكابر ويغالط ويمشي مرحاً وهو يتوعد ويتهدد

وبعد خروج الافشين اشار المعتصم بالنصارى وردان واستبقى صاحب فلما خلا به تنهد وقال « تبا هؤلاء الجوس انهم شاركونا في ملكنا وخذعونا في امرنا . ولكن الله اعاننا على الانتفاع بسيوفهم ورد كيدهم في نحورهم . ما ذاريت باصاحب ؟ » قال « ان امير المؤمنين عرف سوء نية هؤلاء قبل سائر الناس . ولا انسى شكواه منهم مراراً . »

قال « ان ما اشار به صاحبك وردان لم يخف علينا فان كتب عاملنا في خراسان كانت تاتينا وفيها الشكوى من كثرة الاموال التي يرسلها الافشين الي بلده ونحن صابرون . وقد رفعت الينا الكتب من كثيرين يتهمونه بالجوسية وعبادة الاصنام وبالمواطاة مع المازيار صاحب طبرستان وبابك على حربنا . وقد علم بذلك القاضي احمد ووزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات وغيرها وبعثنا نستقدم المازيار صاحب طبرستان الذي تواطا معه على الغدر بنا والمرزبان احد ملوك السغد وموبد الجوسيا واثنين من المسلمين كان الافشين قد عدنهما لانهما بنيا مسجداً في اشروسنة . وساعدت مجلساً يحضره هؤلاء تفضح به ما استتر ونجزي كل فاعل وما فعل . اما انت فلك عروسك تنتمأ بها ولا باس على وردان فانه حرث وسنجهله في خاصتنا وعلى الباغي تدور الدوائر » فدعا له وخرج

وفي يوم نال عقد المعتصم مجلساً مؤلفاً من القاضي احمد بن ابي دواد والوزير محمد بن عبد الملك الزيات وغيرها من الاعيان ودعا صاحب ووردان فحضرا ثم امر بالافشين فاخرج من محبسه وجيء به الى المجلس وتولى ابن الزيات مناظرته بعد ان احضر الشهود المشار اليهم . فطلب اولاً الرجلين المضروبين وكشف عن ظهريهما وهي عارية من اللحم وقال للافشين « اتعرف هذين ؟ »

قال « نعم هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجداً باشروسنة فضربت كل واحد منهما الف سوط لان بيني وبين ملك السغد عهداً ان اترك كل قوم على دينهم فوثب هذان على بيت نار في اشروسنة كان فيه اصنام فاخرجها وجعلاه مسجداً فضربتها على هذا »
 قال ابن الزيات « ما كتاب عندك حليته بالذهب والجوهر فيه الكفر بالله تعالى »
 قال « هو كتاب ورثته عن ابي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت اخذ الآداب واترك الكفر . ووجدته محلي فلم احتج الى الخلية منه وما ظننت هذا يخرج من الاسلام »
 ثم تقدم الموبذ وقال وهو يشير الى الافشين « ان هذا يا كل لحم المخنوقة ويحملني على اكلها ويزعم انها ارطب من المذبوحة وقال لي يوماً قد دخلت لؤلؤ القوم (المسلمين) في كل شيء اكرهه حتى اكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم اختن » فاعترض الافشين على كلام الموبذ بانه غير ثقة . فرد ابن الزيات عليه وحجه . ثم تقدم المرزبان وقال مخاطباً الافشين « كيف يكتب اهل بلدك اليك ؟ »
 قال « لا اقول »

قال « ألا يكتبون بكذا وكذا في الاشروسية وتفسيره بالعربية الى اله الالهة من عبده فلان بن فلان ؟ » قال « بلى »

فقال ابن الزيات « ان المسلمين لا يهتمون هذا فما بقيت لفرعون ؟ »
 قال « هذه كانت عاداتهم لابي وجدي ولي ايضاً قبل ان ادخل في الاسلام فكهرت ان اضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهم »

ثم تقدم الماز يار فقال ابن الزيات للافشين « هل كاتب هذا » قال « لا »
 قال الماز يار « نعم كتب اخوه الى اخي انه لم ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك فاما بابك فانه لحمه قتل نفسه ولقد جهدت ان اصرف عنه الموت فابي لحمه الا ان اوقعه فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعى الفرسان واهل النجدة فان وجهت اليك لم يبق احد يجار بنا الا ثلاثة العرب والمغاربة والأتراك والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه والمغاربة اكلة رأس والأتراك فما هي الا ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم فناتي على اخرهم وياود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم »
 فقال الافشين « هذا يدعي ان اخاه كتب الى اخي وما هو ذنبي »^(١)
 فتقدم وردان عند ذلك وقال « تزعم ان اخاك كتب ولا تبعة عليك فما قولك بمن »

رأى رأي العين في بيت النار بفرغانة ومعك المازيار هذا ونائب عن بابك وقد نواطأتم على
 بحق دولة المسلمين وتعهدت ان تجمع المال الكافي لذلك العمل «
 فاعرض الافشين بوجهه عنه وقال « هذا خصم يكذب في سبيل مصلحته »
 قال « وان اتيتك بالموبذ نفسه الذي شهد على كتاب الوصية وسمعته يقول مثل قولي؟ »
 فقال المعتصم « سترسل في طلبه »
 فقال وردان « واذا بعث امير المؤمنين الآن من يدخل بيت الافشين في سامرا »
 وجد فيه التماثيل الجوسية »

فقال ابن الزيات « قد اتيناها بالامس » وامر غلاماً احضرها واذا هي تمثال من
 خشب عليه حلية كثيرة الجواهر وفي اذنه حجران مشتبكان عليهما ذهب واصنام اخرى
 وكتاب من كتب الجوس وغيره . فارتج على الافشين وسكت فامر المعتصم بارجاعه الى
 الحبس وان يقطع عنه الطعام والشراب فقطعوها حتى مات سنة ٢٢٦ هـ ^(١)
 وخلا ضرغام بالمعتصم بعد ايام وقص عليه حقيقة وصاية الافشين على جهان فامر
 بالغائها ورد المال الى صاحبه . وبعث الى فرغانة فامر بهدم بيت النار كاران شاه ^(٢) وامر ان
 يكون حماد ووردان من خاصته باعطية تصرف لهما وان يقيموا في قصرين داخل الجوسق
 مثل ضرغام . وامر بعقد كتاب ضرغام على جهان وانعم عليه نعماً شتى
 ولما تم ذلك نقل ضرغام الانعام الى اصحابه وابلغ جهان ما اصاب الافشين وان الخليفة
 امر ان تعود نركة ابيها اليها بلا وصاية ففرحت ولكن ساءها ما اصاب الافشين ليس
 غيره عليه ولكن كبير العقل بأسف لما يلحق البشر من الاذى وان كانوا يستحقونه فانما
 استحقوه لضعف في فطرتهم هم غير مخيرين فيه

الفصل السادس والستون

محاكمة سامان

أما سامان فقد تركناه في السجن لا يكترث به احد الا وردان كان يتردد عليه من
 حين الى آخره ويسأله عن حاله على سبيل التهمك والتشفي . وكان ضرغام في شاغل عنه حتى
 اذا فرغوا من امر الافشين احب ان يطلق سراح سامان كرمًا وفضلًا فقال وردان « اذا

(١) ابن الاثير ٢٢١ ج ٦ (٢) السمودي ٢٦٦ ج ١

اطلقتهُ فكانك سجنيتني مكانه وبهمني في الدرجة الاولى ان اسأله بعض الاسئلة واسمع
جوابه عليها لاني رأيت منه امورا لا تصدر عن البشر »

فقال « نسال جهان عن رأيها في ذلك » قال « افعل »

فلاقى جهان وسالها عن اخيها فقالت « لا ادري . . . وليثك لم تسالني عنه لاني
احب ان انساه » قال « هو في السجن الآن فما الذي تريد ان تفعل به »

فاطرت حيناً ثم قالت « احب ان ان تطلقه ولكنني في شوق الى سر لا يزال مكتوماً
عني — اريد ان اطلع على سبب غضب والدي عليه ثم نرى ما يكون »

فتذكر سرّاً آخر قد طال اشتياقه الى معرفته وهو حقيقة نسبة فعزم ان يستطلع والدته
عنه بعد الفراغ من سر سامان

وأمر باستقدام سامان من السجن الى منزله في جلسة حضرها ضرغام ووالدته وجهان
وياقوتة وحماد ووردان وهيلانة وجعلوا محاكمته بيئية

دخل سامان دخول غريب تنبجه الكلاب ووقف وقوف مجرم يخاف العقاب وقد شوهت
خلقه كأنما طبعت على صحيفتها دنارياه ونقائسه . وكان رث السربال زاده الهزال ذلاً حتى
اذا توسط الدار وقف محني العنق يجول ببصره في الجالسين . فلما رأى ياقوتة ظهرت عليه
البغته فالتفت الى جهان واجهش فسبقتة الى البكاء وقد عز عليها ان تراه واقفاً هذا الموقف
رغم ما ارتكبه في حقها من السيئات . ولم يبق احد من الحاضرين الا رق لذلك المنظر الا
وردان فانه لم تأخذه عليه شفقة وكان هو اول المتكلمين فقال « لا تخف ياسامان لم نندعك
لمحاكمة على جريمة من جرائمك فانها لا تقتقر الى محاكمة ولا نعرف عقاباً يفي بها ولكنني
رأيت في سيرتك ما ادهشني من ثقلبك في الايذاء فبين انت ناقد على الافشين لانه حرمك
من الميراث تستعين عليه بالصاحب فاذا انت تستعين على هذا بذلك ثم بذلك على هذا
واغرب من ذلك انك غدرت بأختك هذه وهي كالملائكة خلقتا وخالقة وواطأت عليها افسق
اهل الارض وهي مخطوبة وقد وثقت بك وعوّات عليك في الفرار الى خطيبها . فرضيت ان
تؤخذ غدرًا وتحمل قسرًا الى ذاك اللعين زعيم اهل الفخشاء . ولم تكن لتنال على عمالك جزاء
افضل مما قد تناله لو جئت بها الى سامرًا . ومع ذلك لم تنل من بابك غير الخزي . وبعد ان
كنت نصيره خنته وبحت باسرار حصونه الى عدوه وواطأت الافشين على اختك وعلى
خطيبها . عرفت في الناس اشراراً يرتكبون افظح مما ارتكبته في سبيل غرض يعرفونه
ويعرفه الناس واما انت فما عرفنا لك غرضاً . . . »

وكان سامان يسمع قول وردان وهو يتظاهر بالا طراق وعيناه لم تنتقلا عن ياقوتة وان لم يظهر ذلك للحاضر ين لشدة الحول . فلما فرغ وردان من كلامه ظهر الجذ في وجه سامان وقال « تسأني عن اسباب لست اعلم بها منك . ارتكبت فظائع لم يعرف الناس الا طرفاً منها ولو سئلت عن اسبابها لم استطع جواباً . وانما اعرف اني كنت ارتكبت الخطأ ثم ابادر الى اصلاحه بخطأ افظع منه كأن اعمالي سلسلة غلطات والعمدة على الغلطة الاولى » قال ذلك وتغير وجهه وغص بريقه وتلملم فابتدره وردان قائلاً « ماهي تلك الغلطة » قال « هي الغلطة التي اغضبت والدي وجرت علي هذه المصائب »

فقالت جهان « قل يا سامان اني اكثر الحاضرين شوقاً لمعرفة تلك الغلطة » فحوّل بصره الى ياقوتة واطال النظر اليها وعيناه ترتعشان ثم انتقلت الرعشة الى اطرافه حتى اصطكت ركبته وكاد يسقط فلحظ ضرغام ذلك منه فقال له « اجلس يا سامان ونكلم » وقد استغربوا تغيره وطول نظره الى ياقوتة حتى تولاهما الخجل وحولت بصرها عنه . فجلس سامان جاثياً وجعل رأسه بين كفيه واخذ في البكاء بصوت عال يتخلله شهييق كثير حتى كاد يخنق فانكر القوم بكاءه لاول وهلة وحملوه على الحيلة ثم ما لبثوا ان تحققوا صدقه فصبروا عليه حتى فرغ من بكائه وهم ينظرون بعضهم الى بعض . واذا بسامان نهض بغتة وتراعى عند قدمي ياقوتة واوغل في البكاء فدهش القوم ولا سيما حماد ووثب اليه ليرجعه عن امراته فلم يطعمه فقال له « ماشأنك يا سامان هم يسألونك عن غلطتك الاولى فاجب عليها » فصرخ قائلاً وهو يشير الى ياقوتة « هنا غلطتي الاولى . . . هذه هي » وعاد الى البكاء . فازداد الحاضرون دهشة وظنوه جن ولا سيما جهان فقالت « قل يا سامان . صرح فقد حيرتنا . . ماهي غلطتك يياقوتة »

قال « بل هي غلطتي نفسها . . وماهي ياقوتة وانما هي شهر زاد » فلما قال ذلك صاحبت آفتاب ام ضرغام « شهر زاد ! شهر زاد هي شهر زاد ! ؟ » وكانت جالسة بالقرب منها فضمتهما الى صدرها وقالت « قد تنسنت ريجك منذ لمستك للمرة الاولى ثم صاحبت « جهان حبيبي الا تعرفين شهر زاد ؟ » فبغنت جهان واعملت فكرتها وقالت « لا اعرف واحدة بهذا الاسم الا اختألي ماتت طفلة قبل ان اولد »

فقالت آفتاب هي هي اختك لم تكن ماتت بل ضاعت . . وانما قالوا ذلك لتطفأ وتسنراً ولم يكن يعرف هذا السر الا انا ووالداك وسامان هذا وكان ضياعها علي يده ولم يحضره

سواه وكان قد خرج بشهر زاد الى البساتين وهي طفلة تكاد لا تستطيع المشي . فلما عاد سأله ابواك عن اخته فبكا وزعم ان فرساً من افراس النخاسين اخنطفها منه — لان في تركستان جماعة يربون الخيل على النخاسة ويعودونها اخنطاف الاطفال باسنانها فيلتقط الفرس الطفل باسنانه ويطير به الى منزل صاحبه — ولم يصدق والدك ما قاله سامان وغضب عليه من ذلك الحين واشاعوا انها ماتت »

وكانت افتاب تتكلم والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير . فلما فرغت اكبت جهان على باقوته وضممتها وطفقت قبلها وياقوتة اشد فرحاً من الجميع لانها كانت تحسب نفسها جارية فاذا هي بنت المرزبان . فقبلت اختها والدهشة لا تزال سائدة والكل يقولون « لم تكن هذه المشابهة بين الاختين عن عبت واخذوا يتساءلون وهم يحسبون انفسهم في حلم فقالت جهان « افصح يا سامان . . قل كيف اخذت شهر زاد منك »

فاجابها وهو يمسخ دموعه « انتهت لوجودي وانا في نحو العاشرة من العمر واخنتك هذه في نحو الرابعة ورأيت ابويناً يجبانها كثيراً ويدلانها ويهملانني فدب الحسد في قايي فصرت اظهر السكره لاختي وهما يزيداني حسداً بتمييزها عني باهدايا والنقود . وكنت اذا طابت نقوداً من ابي لم يعطني وأنا ارى النقود مع اختي او حاضنتها . وسمعت ذات يوم ان اناساً يطوفون البلاد يشترون الاطفال بالدنانير ففاقت الحاضنة واخذت شهر زاد الى البساتين فرأيتهم مارين فبعثها لهم بدينارين وعدت وساروا هم في طريقهم . ولما سئلت عنها قلت انها خطفت مني فلم يصدق والدي . واتبه بعد ذلك اني بعثت وبعث من يفتش ويبحث بلا فائدة . فكرهني من ذلك الحين وهددني بالحرمان من ماله فصرت أرى كل الناس اعدائي وتوهمت ان كل حركة يأتونها انما يريدون بها نكايي أو اذيتي فاصبحت ولاهم لي الاكسب المال لاستعين به عليهم . واول سعي بذلته في هذا السبيل اني حاولت منع والدي من كتابة الوصية ففشلت فارادت اصلاح هذا الفشل فوقع في فشل آخر وهكذا كما تعلمون . ولم ادرك هذه الحقيقة الا وانا في السجن منذ يومين » قال ذلك وتنفس الصعداء ثم عاد الى اتمام الحديث وقد زاد وجهه امتقاعاً وبدت الرعدة في اطرافه والاضطراب في عينيه وقال « وقد تأخذكم الشفقة عاي بعد ما بسطتم لكم فاعلموا اني لا التمس عفوكم لان من كانت حياته سلسلة فظائع لا يجوز ان تنتهي بغير القتل » قال ذلك واستقل من جيرو خنجراً طعن به صدره وسقط يتخبط بدمه

فضج الحضور وابتعدت النساء عن هذا المنظر وقد اسفوا على موت سامان بعد ان ايقنوا بتوبته فترحموا عليه وامروا بدفنه . وكانت جهان اكثرهم حزناً عليه

الفصل السابع والستون

نسب ضرغام

وكان الجمع في أثناء ذلك يتحدثون بما علموه من القرابات الجديدة اذ تبين لهم ان ياقوتة اخت جهان وقد اقسمتا الميراث . واصبح حماد وضرغام نسيين وقد نالوا حظوة في عيني المعتصم وتم لهم كل ما يبغونه الا ضرغاماً بقي في خاطره شيء يجب الاطلاع عليه فاختلى بوالده يوماً وقال لها « ألم يئن الوقت لكشف حقيقة نسيي؟ ما الذي تتظن به بعد الذي رأيت من نعم المولى؟ »

قالت « لا انتظر شيئاً ولكنك مع ذلك لم تنل ما انت اهل له »

فقال « تعنين ان والدي كان اعز جانباً وارفع مقاماً مني؟ »

قالت « نعم »

قال « فهو اذن من كبار القواد او الوزراء واذا صح ذلك فلا يعقل ان يكون

خبره مكتوماً عن الناس »

قالت « انه فوق ما ذكرت »

فبهت ثم قال « لم يبق الا ان يكون من اشرف قريش او بني هاشم او بني ابي

طالب »

قالت « انه اشرف من ذلك كثيراً »

فاطرق واعمل فكرته في ما تعنيه امه فلم يبق الا ان يكون ابوه الخليفة وهم ان

يسألها عن ذلك فنجعل وامسك نفسه وظل ساكناً وهي تنتظر سؤاله فلما استبطأته

قالت « لم لا تتم اسئلتك يا ضرغام »

قال « ينجباني ان اقول ما في خاطري »

قالت « لا تنجبل ان تسأل اذا كان ابوك خليفة فانه كذلك »

فاجفل وقال « ابي خليفة؟ كيف يمكن ذلك . ان المعتصم يضارعني سناً فلا

يمكن ان يكون هو المراد ولا المأمون ولا الأمين »

قالت « ان هؤلاء اخوتك »

فقال وقد اخذته الدهشة « فانا اذا ابن الرشيد! »

قالت « نعم يا ولداه وهذه اول مرة نطقت بهذه الحقيقة بعد مرور الاعوام الطوال »
قال « أليس في الدنيا احد سواك يعرفها »
قالت « كلا »

قال « وما معنى كتابها كل هذا الزمن الطويل والناس يفاخرون بالانتماء الى اتباع
الخلفاء فكيف الى الخلفاء انفسهم »

قالت « لذلك سبب معقول وهو اني كنت من جملة جواري الرشيد في قصره ببغداد
وكان يستلطفني ويحبني حتى كانت الليلة التي فلك فيها باختمه العباسية وبجعفر البرمكي وابنيهما
الحسن والحسين^(١) وقد بالغ في التكمم حتى قتل كل من استخدمه في ذلك الفتك . فلم
يكن احد من اهل القصر يجسر على الخروج من حجراته مع انهم مطلعون على كل شيء
وهم بعيدون . الا انا فقد حدثني طيشي لصغر سني يومئذ ان اخرج لارى واسمع فوقفت
موقفاً ظننت نفسي مخبئة فيه لا يراني احد فسمعت حديث الرشيد رحمه الله مع زوجته
زيدة بشأن اخته واشياء اخرى . وانا في ذلك رأيت زبيدة نفسها مقبلة نحوي وهي تقول
« يا هرون ان جواريك يسمعن حديثنا » فوقع الرعب في قلبي وايقت اني مقبولة
لا محالة فلم تعد ركبتي تحملا نني من الرعشة . ثم سمعت الرشيد يردد بصوته من الغضب
ويقول « من هذا ؟ » وامر مسروراً فماني اليه فلما رأني اظهر الاسف علي لان قنني
لا مناص منه . فلما رأى دموعي رفق بي ولكنه كان شديداً في غرضه فاطرق لحظة ثم
قال « يا حبيبة (وهذا كان اسمي عنده) قد سمعت الى حثفك بظلفك ويسوءني ان تقلمي
ولكن لا بد من قتلك »

فتراميت عند قدميه وبكيت وغسلت رجليه بدموعي . وكنت يومئذ حاملاً بك فقلت
« اشفق على صباي بل اشفق على هذا الجنين »

فوجم وتراجع ثم قال « اعفو عن حياتك ولكنني لا اقدر ان اراك ولا اسمع
اسمك » ونادى مسروراً فاتي فاصره ان يجهزني بالمال ويدبر نقلني الى البلد الذي اختاره
فاخترت فرغانة لاني اعرفها من قبل ثم قال لي « احذري ان تفوهي بكلمة او تذكري
سابق عهدك في هذا القصر او انك تنتمين الي » واذا وضعت غلاماً فاكتمني نسبه عنه
واذا خالفت ما اقول عاد ذلك بالوبال عليك وعليه . . ولو علمت زبيدة بانني ابقيت عليك
لاحت علي بقتلك » وصر في نخرجت مع مسرور في الليل الدامس الى خارج بغداد وقد

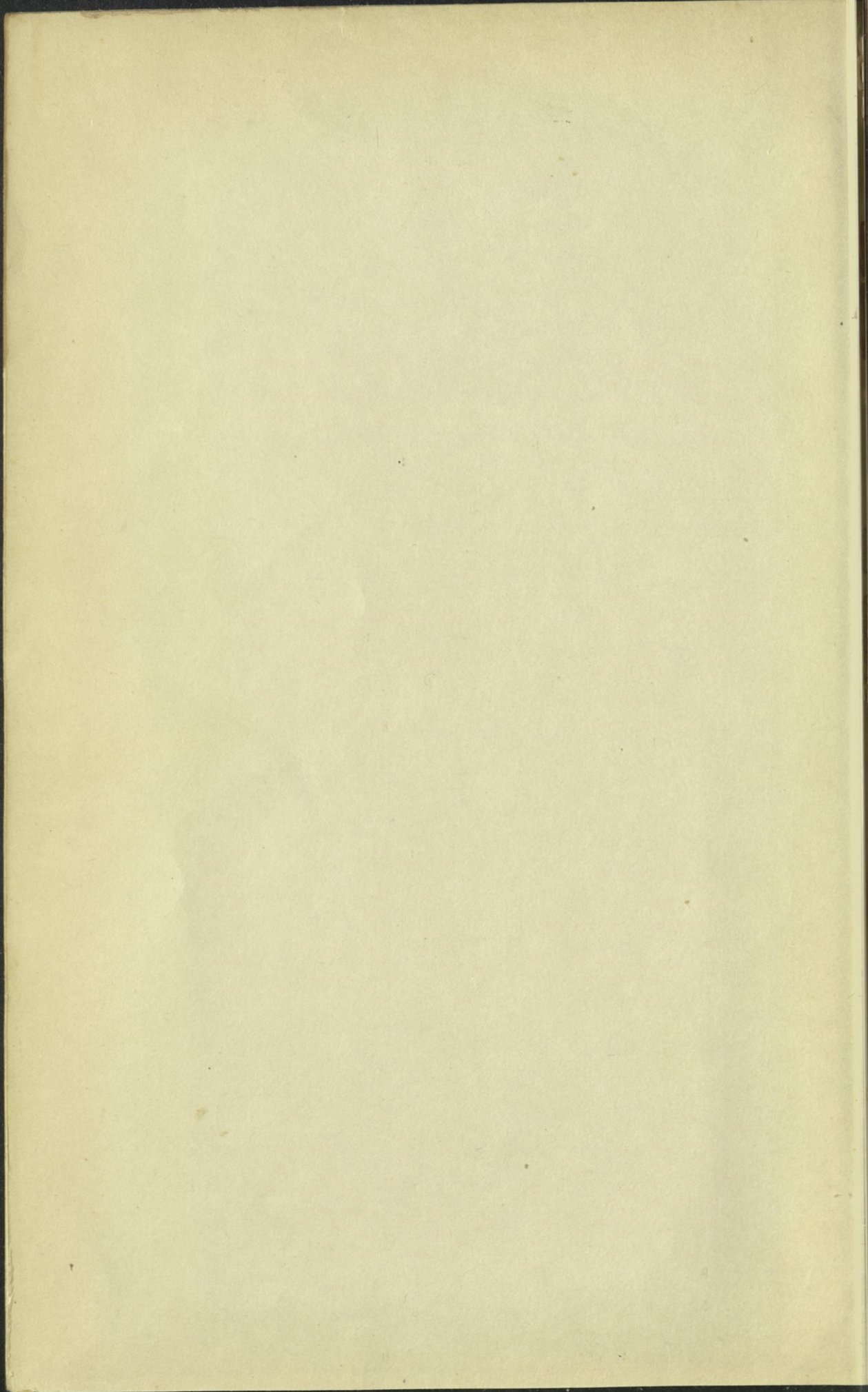
اعدت لي الاحمال واوصى المسكاري بي ودفع اليّ مالا وجواهر تكفييني اعواماً وودعني •
 فقضيت في الطريق مدة طويلة ولدتك في انائها • واخيراً وصلت الى فرغانة فاقمت فيها
 وعرفت المرزبان وعائته وطلبني اناس للزواج فابيت وانقطعت لثريبتك وانا كاتمة سرك
 وانت تطلب الحجيء الى العراق وانا اخالفك • ولما مات الرشيد ما زلت خاتمة من زبيدة
 حتى اذا مات هان عليّ الحجيء ورضيت بسفرك الى العراق كما علمت •
 وكانت آفتاب تتكلم وضرغام يتناول بعنقه للسمع وقد اخذته الدهشة • فلما فرغت
 قال لها « فانا اذا اخو المعتصم »

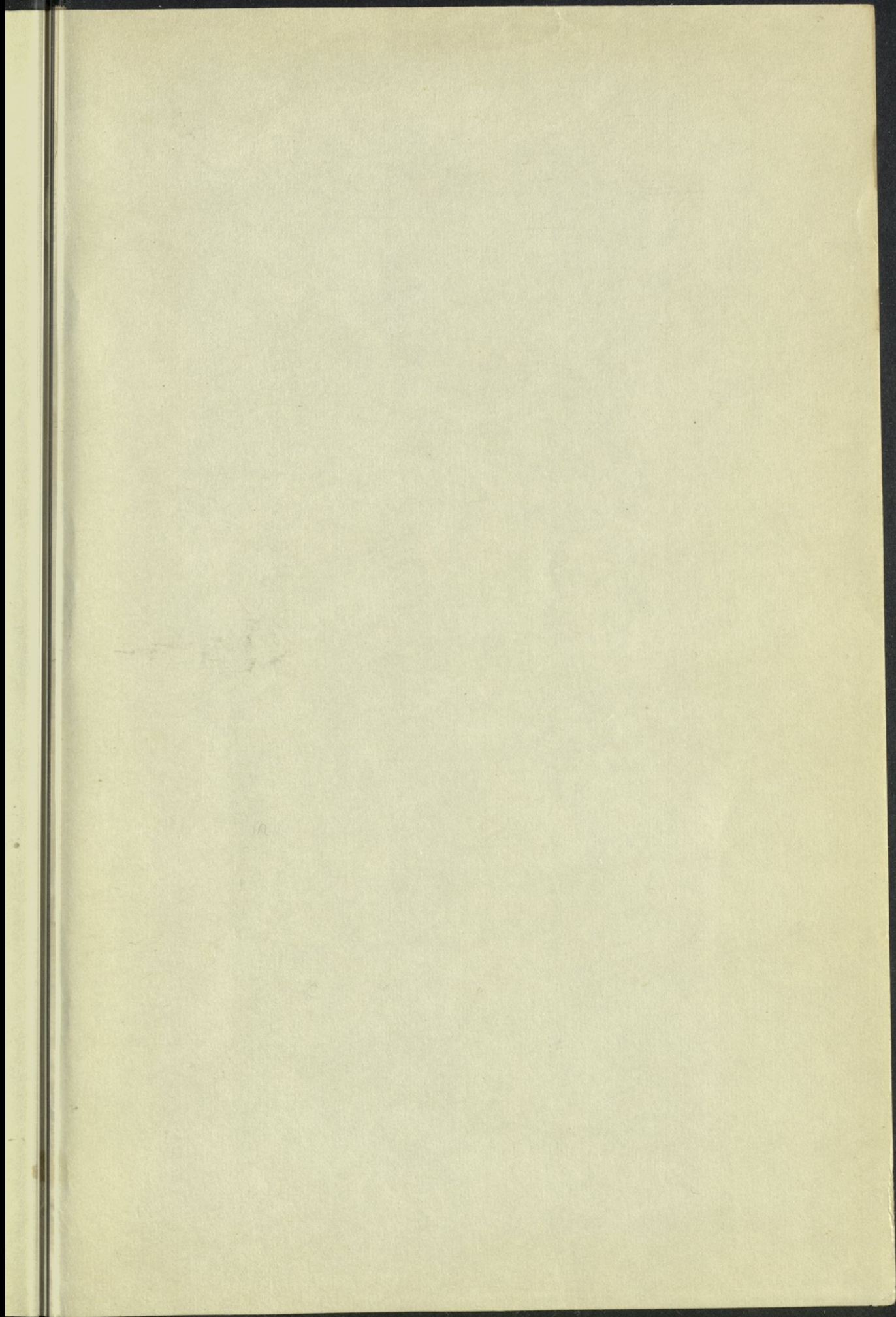
قالت « نعم انك اخوه فاذا علم هو بذلك زادك تقريباً »
 فهز رأسه هز الانكار وقال « كلا • • ان هذا السريجب ان يبق مكتوماً بيننا لثلاً
 يطلع عليه المعتصم فتتحول محبته الى حذر وكيد • ويكفييني اني عرفت حقيقة نسي ولا
 ارى فائدة من كشفه لان الناس لا يصدقوننا • ونحمد الله اننا نلنا من النعم والرتب
 فوق ما كنا نتمناه • وان وجود جهان في منزلي نعمة كافية احمد الله عليها وارجو ان
 يطول بقاؤك »

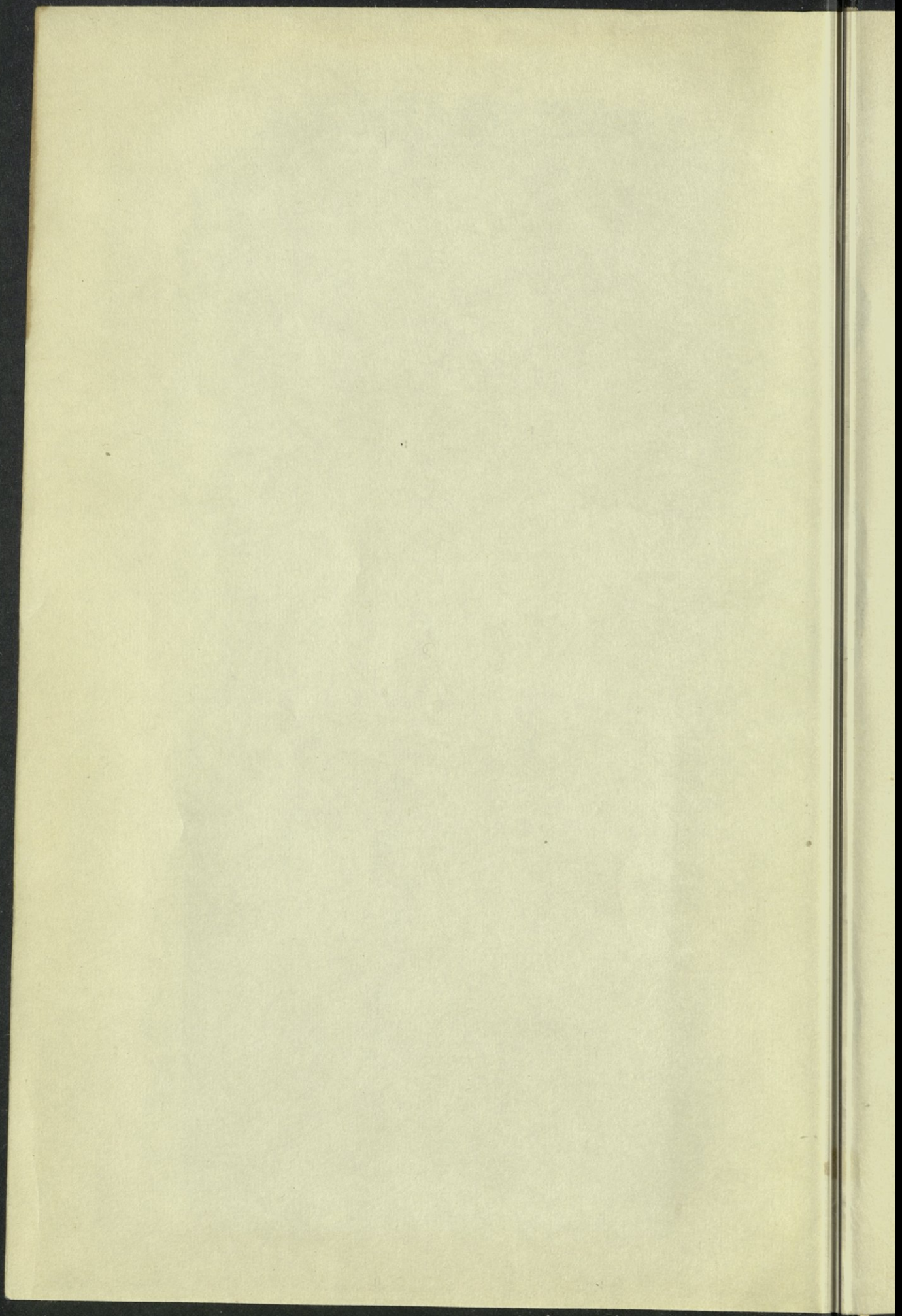
فوافقته والدته على الكتمان وعاشوا بعد ذلك برغدٍ وهناك حتى نشئت شملهم وبقي
 السر مكتوماً الى الأبد

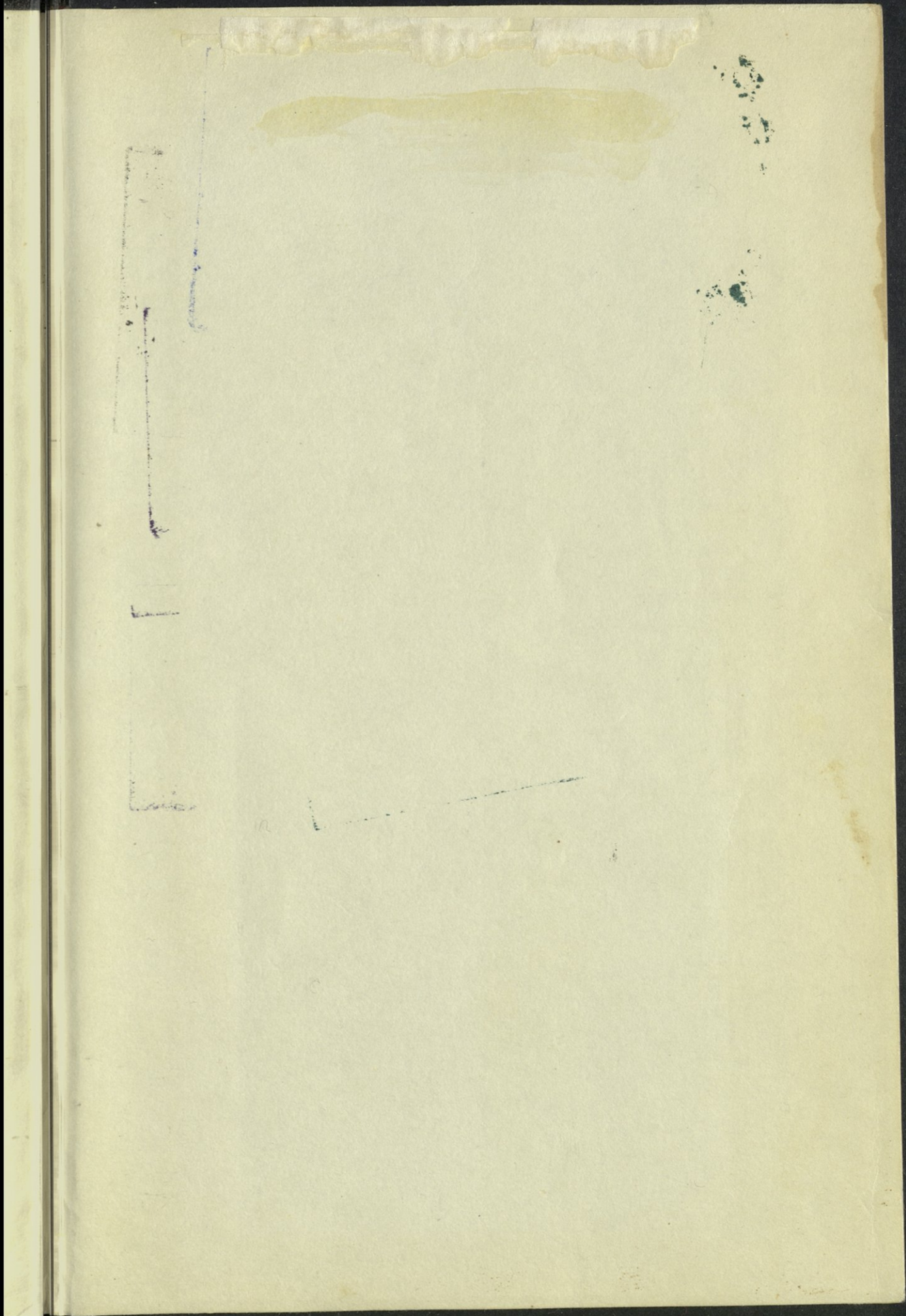
﴿ تمت الرواية ﴾











زیدان، جرجی
عروس فرغانة...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

01037278

892.78
Z39arA
c.1